سردم العربي

فصلية تعنى بالتواصل الثقافي الكردي- العربي
تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر
السنة الأولى- العدد الخامس- صيف 2004

موقع المجلة على الإنترنيت:
www.sardam.info

المراسلات:
تلفاكس: 00447043129839
ايميل: info@sardam.info
أو عن طريق سكرتير التحرير:
nawzadaa@yahoo.com

- المقالات تعبر عن آرا، الكتاب انفسهم ولا تعكس بالضرورة آرا، المجلة
- يخضع ترتيب المواد لإعتبارات فنية

محتويات العدد

سردم العربي - العدد 5 - 2004

وثائق

شخصيات كردية

محطات ثقافية

كتب

بدلا من المقدمة

طالب اتحاد الصحفيين العرب في مؤتمره المنعقد بدمشق خلال فترة 20-2004/4/23 بعدم قبول نقابة صحفيي كردستان في الاتحاد الدولي للصحفيين، لكن اقر السكرتير العام للاتحاد الدولي للصحفيين في مؤتمره الـ(25) الذي عقد باثينا ايام 25-2004/5/30 قبول نقابة صحفيي كردستان عضوا في الاتحاد الدولي للصحفيين. هنا ننشر نص الرسالة التي بعثتها دار سردم للطباعة والنشر الى اتحاد الصحفيين العرب:

رسالة الى السيد الامين العام لاتحاد الصحفيين العرب/ دمشق

تحية ثقافية و مهنية

تلقينا ببالغ الاسف ماورد في بلاغكم الختامي لاجتماعات الامانة العامة لاتحاد الصحفيين العرب حول موقفكم الاعتراضي عن قبول عضوية نقابة صحفيي كردستان في الاتحاد الدولي للصحفيين لانه لم يكن في تصورنا ان يكون موقفكم هذا موازيا للمواقف العنصرية التي تنتهجها بعض السلطات العربية في عدم الاعتراف بحقوق الشعب الكردي الذي له خصوصيته القومية ويتمتع بكامل حريته في تاسيس هيئاته ونقاباته المهنية و المؤسسات المدنية التي تواكب فيها متطلبات عصره ومهمات تجدده. ان نقابة صحفيي كردستان قد تاسست في ظل الديمقراطية التي تشمل عموم مناطق كردستان منذ الانتفاضة الرائعة بوجه الديكتاتورية الفاشية سنة 1991، وقد وافق برلمان كردستان بقانون رقم (4) لسنة 1998 بتاسيسها، وعملت النقابة منذ ذلك الحين بنفس هذه الروح المنهلة من الجو الديمقراطي في حرية التعبير واحترام الراي الاخر وحقوق الانسان، وكذلك ضمان ما يستحقه المنتسبون هذه النقابة من المستلزمات الفكرية والحياتية. ولم تكن نقابتنا جزءا من النقابة العفنة غير الشرعية انذاك التي كان يتزعمها ابن الطاغية عدي صدام حسين.

لقد هدرت في النقابة البعثية التي كنتم تعترفون بها حرية الانسان الصحفي و همومه الحياتية و التعبير عن افكاره الطبيعية والثقافية، لقد شوهت قدسية المهنة واستغلت من قبل الادعياء المزيفة التي تماشي حدودها السياسية بدون التمسك بشرف مهنتها.

اننا نخاطبكم باسم مؤسسة سردم للطباعة والنشر في كردستان، وهي المؤسسة الحرة في التعبير عن ارائها المستقلة ومهماتها الثقافية، ان تعيدوا النظر في قراركم السريع هذا. لاننا ننضوي اخيرا تحت ظل عائلة واحدة ترسخت اركانها في العالم المتمدن بعيدا عن المهاترات السياسية والنزعات العنصرية التي عفى عنها الزمن.

اننا لعلى يقين بان المحاولات اليائسة لاتتمكن من شق هذا الصف والصرح الفكري والثقافي.

مع خالص تمنياتنا بالنجاح . . .

دار سردم للطباعة والنشر

السليمانية-كردستان

2004-5-8

الكورد الفيلية و دورهم في الحركة التحررية الكردستانية

د. مجيد جعفر

من هم الكورد الفيلية و أين يقطنون؟

الكورد الفيلية (او الفيليون) هم كورد، كما يدل على ذلك اسمهم، و هم قسم لا ينفصل عن الشعب الكردي في العراق* و جزء لا يتجزأ من الامة الكردية المقسمة بين دول العراق و ايران و سوريا وتركيا. لقد اثبت الكورد الفيلية هذه الحقيقة وهذا الواقع عبر السنين و الاحداث و لحد الآن بالقول والفعل و العمل. يتكلم الكورد الفيلية لهجة فرعية تابعة للهجة اللورية التي ينطق بها الكورد في المناطق الجنوبية من كردستان، خاصة المناطق القريبة من الحدود بين العراق و ايران. الكورد الفيلية مسلمون تتبع الغالبية العظمى منهم المذهب الشيعي.

جميع الناطقين باللهجة الفيلية لا يطلق عليهم اسم "الفيلية". يمكن القول بان الكورد الناطقين بهذه اللهجة و الذين يقطنون مناطق بغداد و وسط و جنوب العراق شرقي نهر الفرات يطلق عليهم اسم "الكورد الفيلية". توجد تفسيرات و اجتهادات عديدة و متنوعة حول اصول و اسباب اطلاق اسم "الفيلية" على هؤلاء الكورد و لكن الكاتب لم يعثر على تفسير موثق و مقبول بشكل عام حول هذه المسألة[1].

غالبية الكورد الفيلية كانت تقطن مدينة بغداد و خاصة قبل حملات التسفير المتكررة، كانوا متركزين في حي الاكراد (و بعض الاحياء الشعبية المجاورة لها) و عند تحسن حالتهم الاقتصادية كانوا ينتقلون الى اماكن اخرى من بغداد اكثر رفاها، مثل حي العطيفية وحي جميلة و الاحياء الممتدة على طول شارع فلسطين و غيرها، كما كان الكورد الفيلية يقطنون باعداد اقل في المدن العراقية الواقعة بين الحدود مع ايران شرقا و حتى الضفاف الشرقية لنهر الفرات غربا، من جنوب المدينة الكردستانية كركوك شمالا حتى شمال مدينة

البصرة جنوبا. من بين هذه المدن المدن الكردستانية خانقين و مندلي (منلي باللهجة الفيلية) و زرباطية و السعدية و شهربان و المدن العراقية كوت و العمارة و الجصان و كوميت و شيخ سعد و النعمانية و الحي و الرفاعي و علي الغربي و علي الشرقي و غيرها[2]. اما على الجانب الايراني من كردستان فان الكورد الفيلية (بالرغم من عدم اطلاق هذه التسمية عليهم هناك) يقطنون محافظات كرماشان و ايلام و جنوبها، و بعد التسفيرات الجماعية للكورد الفيلية من العراق في السبعينيات و الثمانينيات تقيم جالية كوردية فيلية كبيرة من اصول عراقية في طهران ايضا يطلق عليهم الايرانيون اسم "عربها" (اي العرب).

و كأية مسألة اخرى في دولة البعث البوليسية فان عدد الكورد الفيلية غير معروف بالدقة و ربما اعتبرتها من الامور السرية المتعلقة لأمن دولة البعث. و لكن هناك تقديرات مختلفة تضع عددهم بين مئات الآلاف و ثلاثة ملايين. الا ان الكثيرين يتكلمون عن اكثر من مليون كوردي فيلي كانوا يقطنون في بغداد قبل التسفيرات الجماعية[3].

الكورد الفيلية حكموا العراق من سنة 1523 حتى سنة 1529 ميلادية

الكورد الفيلية مواطنون عراقيون بالولادة ابا عن جد و قسم ضئيل منهم بالتجنس، سكنت غالبيتهم بغداد باعداد كبيرة منذ مئات السنين، وبدقة اكثر، منذ اربعة قرون و نيف. يشير البروفسور عزالدين مصطفى رسول الى ان كتاب "الشرفنامه" الذي يعتبر اول الاعمال المكتوبة عن تاريخ الكرد و جغرافية كردستان (الذي الفه الامير شرفخان البدليسي عام 1005 هجري المصادف لعام 1584 ميلادي، اي قبل 420 عاما) يشير الى مسألة استقرار الكورد (اللورية) الفيلية في بغداد بشكل دائم. كما يشير الاستاذ جرجيس فتح الله الى ان الكورد الفيلية بقيادة قائدهم ذو الفقار احمد سلطان فتحوا بغداد و المدن العراقية الاخرى من شمال سامراء حتى البصرة و حكموا العراق (كما كان معروفا انذاك) لمدة ست سنوات من عام 1523 حتى عام 1529 ميلادي (صفحات من تاريخ الكورد الفيلية، مجلة روز العدد 8، نقلا عن مجلة ايلام الصادرة في غوتنبورغ في غرب السويد). و يضيف في مقالة له نشرت في مجلة روز في عددها 8 بأن اول اشارة الى الكورد الفيلية في الكتب الانكليزية تعود الى عام 1744 في كتاب جيمس فريزر المعنون "تأريخ نادر شاه" الصادر في لندن.. هاتان الاشارتان تؤكدان بان الكورد الفيلية قطنوا بغداد و المدن العراقية الاخرى من جنوب كركوك شمالا حتى البصرة جنوبا و من الحدود الايرانية شرقا حتى السواحل الشرقية لنهر الفرات غربا لأكثر من اربعة قرون و قبل وقوع العراق تحت الحكم الصفوي و من ثم غزوه من قبل العثمانيين.

ازداد عدد الكورد الفيلية في بغداد بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة بشكلها الحالي و جغرافيتها الحالية حسب اتفاقية سايكس – بيكو بين بريطانيا و فرنسا و تقسيم الشرق الاوسط بشكل اعتباطي بينهما

لخدمة مصالحهما الخاصة. زيادة عدد نفوس الكورد الفيلية هذه كانت لاسباب كثيرة منها قابلية التحرك الاجتماعي و الانتقال الجغرافي و الحيوية الاقتصادية (الجراة على أخذ المبادرة و تقبل المخاطرة الاقتصادية) و الخصوبة السكانية (ارتفاع معدلات الولادة).

عمل العديد من الكورد الفيلية في قطاعي المقاولات و تجارة الجملة و المفرد و خاصة في سوق الشورجة و في القطاع الخاص بشكل عام في بغداد وغيرها بسبب مؤهلاتهم الاقتصادية المشار اليها اعلاه و بسبب سد فرص العمل و الاستخدام امامهم خاصة في القطاع العام.[4] كما عملوا كنقالين (حمالين) في سوق الشورجة خاصة عند التجار الكورد الفيلية و عرفت عنهم الامانة و الاخلاص في العمل و القوة البدنية.

بدأ الكورد الفيلية في ارسال ابنائهم الى المدارس بشكل واسع بعد الحرب العالمية الثانية و خاصة منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي بعد سنوح الفرص لهم و تحسن اوضاعهم الاقتصادية. درس وتخرج و عمل الكثير منهم كأطباء و مهندسين ومعلمين و غيرهم من التكنوقراط و انشأوا مدارس خاصة بهم اشهرها المدرسة الفيلية في باب الشيخ (في منطقة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني).

الاضطهاد و التمييز القومي
و الطائفي و التطهير العرقي

تعرض الكورد الفيلية لمختلف انواع التمييز والمظالم و سوء المعاملة على يد اجهزة الدولة العراقية و الى الاهانات المختلفة على يد الشوفينيين بين موظفيها. من اشد هذه الاجراءات الغاء و نكران عراقيتهم و تسفيرهم الى الخارج بين فترة و اخرى بشكل غير قانوني و بدون وجه حق و على نطاق واسع خاصة اعوام 1969 و 1971-1973 و بشكل شبه شمولي و منتظم و عدواني و في مختلف مناطق العراق في بداية ثمانينيات القرن الماضي. قامت اجهزة الدولة العراقية بجمع الالاف من الكورد الفيلية من بيوتهم و مدارسهم و جامعاتهم و محلات عملهم و دوائرهم و ووحداتهم العسكرية و اخذهم الى دوائر الامن العامة السيئة الصيت. بعد سلب و مصادرة جميع ممتلكاتهم المنقولة و غير المنقولة و محلاتهم التجارية و مصانعهم و سياراتهم و ودائعهم في البنوك و جميع وثائقهم العراقية من شهادات ميلاد و جنسية و شهادة جنسية و جوازات و دفاتر خدمة عسكرية و عقود زواج و شهادات ووثائق دراسية و مستندات ملكية العقارات (الحجة) و غيرها و اخذ نقودهم و حلاهم الذهبية وتفتيشهم و استجوابهم غالبا تحت الاهانات والضرب و الشتائم و الكلام البذئ الذي اشتهرت به سلطة البعث، ثم وضعهم في شاحنات و باصات اكثرها عسكرية دون السماح لهم بأخذ اي شيء معهم (الا في حالات نادرة جدا) سوى ملابسهم التي كانوا يلبسونها و منعوا من اخذ الماء و الاكل لهم ولاط فالهم (حتى الصغار منهم) و اخذوهم، شبابا و شيوخا وكهلة، نساء و بناتا و رجالا، اطفالا ورضعا، الى الحدود (البوابة) الشرقية و امرهم بالسير على الاقدام في مناطق جبلية وعرة احيانا

كثيرة على ان لا يلتفتوا او ينظروا الى الوراء ابدا و الا فسيطلقون النار عليهم و يقتلوهم هناك.

جرت غالبية هذه العمليات المشينة تحت جنح الظلام مما سبب موت العديد من الشيوخ و كبيرات السن و الاطفال الذين لم تبق عندهم القدرة والطاقة و القوة على الاستمرار في السير في الظلام وفي البرد في تلك المناطق الجبلية فانهاروا من التعب وتوفي عدد منهم هناك. كما قام قسم من حراسهم العراقيين الذين اخذوهم الى تلك المناطق الحدودية باطلاق النار على رؤوسهم لاجبارهم على الاستمرار على السير، كما وجه عدد من هؤلاء الحراس نيران اسلحتهم على المسفرين و اردوا عددا منهم بين قتيل و جريح.

بسبب كون النخبة بين الكورد الفيلية كانت تتمتع بقوة اقتصادية ملموسة في مجال تجارة الجملة فان حملة التسفيرات الواسعة في بداية الثمانينيات من القرن الماضي بدأت باسلوب الكذب و الخداع و المكيدة و الغدر البعثي المعروف (صفات ملازمة لقيادة البعث و التي ربت قواعد الحزب عليها منذ البداية) عن طريق دعوة التجار الكبار من الكورد الفيلية الى اجتماع في غرفة تجارة بغداد لمناقشة موضوع تصاريح و اجازات استيراد جديدة و لبحث قضايا اقتصادية مهمة. عند حضور التجار الى مكان الاجتماع قامت قوات الامن بغلق كل ابواب و نوافذ المكان ثم تم اخذ جميع الاوراق و الوثائق الرسمية و غير الرسمية منهم اضافة الى نقودهم و ساعاتهم و اختامهم و كل شيء اخر كان معهم و تم تفتيشهم للتأكد من عدم بقاء اي شيء بحوزتهم سوى الملابس التي كانوا يرتدونها. نقلوا من هناك الى مديرية الامن العامة في بغداد و بعد استجوابهم و التحقيق معهم اخذوا الى الحدود دون اخطار او اعلام عوائلهم او ذويهم بذلك. بعد معاناة قصيرة او طويلة اصاب اغلب هؤلاء التجار الكآبة و الوهن لما تعرضوا اليه على يد سلطات دولة البعث و مات الكثير منهم بالسكتة القلبية او الجلطة الدماغية. معاناة المسفرين خلقت عند الكثير منهم الكآبة و القلق و غيرها بسبب المعاملة اللاانسانية التي اخضعتهم اليها عناصر الاجهزة القمعية لدولة البعث التي صادرت و سلبت كل شيء منهم حتى حياة شبابهم دون وجه حق او قانون او عدالة او ضمير، سلبت منهم ثمرات عمل وجهد حياتهم و القتهم في حياة الفقر و الفاقة و الضياع[5].

لقد اصدر نظام البعث عددا من "القوانين" اسقط بموجبها الجنسية العراقية عن الكورد الفيلية المسفرين و صادر بموجبها جميع بيوت سكناهم و ممتلكاتهم المنقولة و غير المنقولة وجميع اموالهم و ودائعهم و محلاتهم التجارية و مشاريعهم الزراعية و الصناعية و اعطى الكثير منها ان لم يكن كلها الى اعوانه و مرتزقته وخاصة عناصر امنه و مخابراته المجرمة بثمن بخس و كغنائم "حرب" او "فرهود" على مستوى الدولة و الافراد[6].

المحتجزون من شباب الكورد الفيلية ومصيرهم المجهول

من اجل زيادة قسوة و الام حملات التسفير الجماعية على الكورد الفيلية قامت الدولة العراقية بحجز اكبر عدد ممكن من الشابات و الشباب منهم و خاصة الذين ادوا او كانوا في سن الخدمة العسكرية. و بسبب عدم وجود وثائق و احصائيات رسمية عن عددهم فان التقديرات تتراوح بين 5000 و 10000 شاب و وصل اعلى تقدير الى 30000 من شبيبة الكورد الفيلية. و رغم مرور شهور عديدة على هزيمة النظام السابق لم يستطع احد العثور على اي اثر لهم[7] سوى بعض وثائق دوائر الامن و المخابرات التي تشير الى اسماء بعض الذين تم اعدامهم دون ذكر التهم الموجهة اليهم او اسم المحكمة التي نظرت بالتهم الموجهة اليهم او تاريخ محاكمتهم او تاريخ صدور الاحكام بحقهم او قيامهم باستئناف تلك الاحكام ام لا. و بالنسبة للذين جرى اعدامهم، فهل دفنوا و اين هي مقابرهم؟ القتل الجماعي لشباب عوائل المسفرين و التسفير الجماعي للكورد الفيلية وغيرهم و مصادرة اموالهم و ممتلكاتهم و وثائقهم وكل شيء اخر عائد لهم كلها جرائم ضد الانسانية يجب ان يعاقب عليها كل الذين اصدروا اوامر القيام بها و الذين شاركوا بتنفيذ عمليات القتل منها، بدءا بالقيادات العليا و غيرهم من الذين اقترفوا جرائم القتل و التعذيب بحق المحجوزين و جرائم السطو وسرقة الاملاك العائد للمسفرين، كل حسب جرمه وجنايته.

مخطط التطهير العرقي و تغيير الواقع القومي

كانت حملات التسفير الجماعي للكورد الفيلية في بداية الثمانينيات حملات مخططة و مدروسة وصارمة اقيمت لها هيكلية ادارية خاصة لها مخصصات مالية و كوادر بشرية كان يرأسها طه ياسين رمضان و يشرف على تنفيذها. كانت هذه الحملات مقدمة لحملات اكثر عنفا و قساوة و لا انسانية (حملات الانفال) نفذها نظام القتل والقبور الجماعية بحق سكان كردستان و خاصة كركوك في نهاية الثمانينيات و التي اشرف على تنفيذها مجرم الحرب الاخر علي حسن المجيد (علي كيمياوي). كان هدف المخطط ذو المرحلتين هو التطهير العرقي وتجريد الكرد في العراق من قوتهم الاقتصادية[8] والبشرية و العسكرية و تفكيك و تحطيم و هدم بنيتهم الاجتماعية و اخراجهم قسرا و بكل وسيلة غير قانونية و غير انسانية من كل مناطقهم ذات الثروات الطبيعية (كركوك على سبيل المثال) او الاماكن الاستراتيجية (مثل خانقين) و المواقع الحساسة (الكورد الفيلية بشكل عام و التجار منهم بشكل خاص من بغداد مركز الدولة العراقية). وكجزء من هذا المخطط بذل البعث جهودا من اجل التشكيك بالهوية الكردية و بمحاولة تغيير القومية لشرائح من الشعب الكردي مثل الأيزدية و الشبك وغيرهم. قام نظام البعث بالاضافة الى حملات التسفير و التهجير القسري و تغيير الهوية القومية، قام بشكل منظم و بتخطيط بجلب مستوطنين من

وسط و جنوب العراق و اسكنهم في البيوت و القرى مع جميع محتوياتها التي هجر منها سكانها الكرد والتركمان الاصليين قسرا و اقام لهم مستوطنات جديدة و قدم لهم كل التسهيلات المالية والاقتصادية واعطاهم الاراضي الزراعية التي سبق و ان صادرها من اصحابها الشرعيين من الكورد و التركمان واعطى هؤلاء المستوطنين السلاح لكي يدافعوا عن نظامه.

الصمت المدوي

جرت عمليات تسفير و سلب الكورد الفيلية بشكل جماعي و مكشوف. كما ان عمليات التهجير القسري لمناطق واسعة من كردستان العراق و تدمير 4000 قرية فيها و قتل ما يقارب الـ 180000 شخص من سكانها و قصف مدينة حلبجة بالاسلحة الكيمياوية قد اثارتها القوى السياسية الكردستانية و العراقية المعارضة في وسائل اعلامها المتواضعة وكشفت وسائل الاعلام الغربية جريمة قصف حلبجة في حين التزمت الحكومات و الاحزاب والقوى و وسائل الاعلام العربية و الاسلامية (باستثناء المعارضة العراقية بكل اطيافها و سورية وايران و ليبيا) و التزم المثقفون العرب و المسلمون الصمت و السكوت و لم يشر اي منهم الى هذه الجرائم المروعة بحق هذا العدد الكبير من "العراقيين المسلمين"! لقد وصل الامر الى حد ان بعض هذه الحكومات و الاحزاب و القوى السياسية والمثقفين من العرب و المسلمين دافع عن هذه الجرائم بحق الانسانية و دافع بحرارة و اندفاع عن مقترفيها و على رأسهم الطاغية صدام او انكروا وقوع ما حصل و شككوا حتى بالتقارير المصورة من قبل اجهزة الاعلام التي صورت جريمة حلبجة (كتبوا انها من خدع هوليود) او حاولوا القاء تبعتها على الآخرين.

و يتساءل البعض بنوع من السخرية قائلا ماذا كنتم تتوقعون من هذه الحكومات و السياسيين والمثقفين و الاعلاميين غير مجاملة نظام صدام انذاك؟ صدام بطل الأمة و الدين و حافظ بوابتها الشرقية؟ لقد كانوا يمولونه بالمال و السلاح و الخبرة والمعلومات العسكرية و الضباط العسكريين ويدعمونه اعلاميا و سخروا اقلامهم لمدحه حتى بدأوا انفسهم يصدقون ما يقولون و يكتبون بالرغم من انهم يعلمون بانه قاتل و مرتكب جرائم بحق الانسانية ضد ابناء الشعب العراقي و خاصة الكورد في الشمال و العرب في الجنوب. الا ان بعض هؤلاء غير رأيه حول صدام و نظامه بعد احتلاله للكويت و سلبها و نهبها و لكن الكثير من الاحزاب و الساسة و الاعلاميين و المثقفين العرب و المسلمين استمروا على مدحهم للطاغية و يرجع البعض ذلك الى "مكارم السيد الرئيس" عليهم من نقود و كوبونات نفط و غيرها.

كما ان العديد من الحكومات العربية والاسلامية و الغربية و "الاشتراكية" سابقا دعمت الطاغية صدام و نظامه بالتسهيلات المالية و القروض والاسلحة و الاجهزة و المواد الاولية لصنع اسلحة القتل الجماعي (الاسلحة الكيمياوية و الجرثومية

هي اسلحة قتل جماعي و ليس دمار شامل لأنها تقتل اعدادا كبيرة من البشر و الكائنات الحية الاخرى و النبات في حين انها لا تسبب دمارا للبنايات او السيارات او غيرها من الجماد) مقابل النفط و الدولار غير مبالين او مهتمين لما كان يقترفه بحق الشعب العراقي من جرائم و لا بالمآسي و ويلات الحرب و الحصار و الموت و الدمار الذي جلبه على شعبه و الشعوب المجاورة. لقد كشفت القبور الجماعية و وثائق اجهزة الامن و المخابرات قسما من هول هذه المآسي و الويلات في حين كان هو وعائلته و جلاوزته ينعمون بخيرات العراق ويتصرفون بها و كانها ملك شخصي لهم (شاهد بعضا من بذخهم و استهتارهم في افلام الفيديو المتوفرة في اسواق بغداد و غيرها).

الهجرة الجماعية بعد التسفير القسري

بسبب صعوبة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية و الامنية و السياسية التي كانت سائدة في ايران وخاصة اثناء الحرب العراقية - الايرانية والتقييدات الكثيرة و المفروضة على نشاطاتهم وحرية حركتهم داخل ايران (و بسبب اعتبارهم رسميا مواطنيين عراقيين من قبل السلطات الايرانية و تسميتهم غربيا "عربها" من قبل عامة الناس في ايران) اضطر عشرات الالاف من الكورد الفيلية المسفرين الى مغادرة الاراضي الايرانية بكل الوسائل و الاساليب الممكنة و المتاحة و رغم المخاطر التي انطوت عليها. لذا اصبح قسم منهم ضحايا المهربين الجشعين و الموظفين المرتشين. و من بين ابرز المآسي التي مر بها عدد منهم هي الكارثة التي وقعت عام 2001 خارج المياه الاندونيسية و التي ذهب ضحيتها 271 انسانا من بينهم العديد من الكورد الفيلية من الاطفال و النساء و الرجال عندما غرقت السفينة الصغيرة التي كانت تنقلهم من اندونيسيا الى استراليا في المحيط. اما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فانهم يعيشون في بؤس و الم. (الشخصان المسؤولان عن هذه المأساة هما الآن تحت المحاكمة في استراليا، الاول مصري و الآخر عراقي).

نتيجة لذلك يقطن الكورد الفيلية باعداد كبيرة الآن في مناطق عديدة من العالم و العديد منهم مازال في العراق، و خاصة بغداد، و ايران. فالكورد الفيلية منتشرون في اوربا الغربية باعداد كبيرة (السويد و الدانمارك و النرويج و المانيا و انكلترا وهولندا و فرنسا و غيرها) و في الولايات المتحدة الامريكية و كندا و استراليا.

معادات صدام و نظامه للكورد عامة و بضمنهم الكورد الفيلية

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا عامل نظام البعث الكورد عموما و من بينهم الكورد الفيلية بهذه الدرجة من الحقد و القساوة؟ هنالك اسباب عديدة تلقي بمجموعها بعض الضوء و تجيب على هذا السؤال، من بينها الاسباب الآتية:

1-تأتي اصول ايديولوجية البعث عند انشائه من الفكر النازي اثناء الحرب العالمية الثانية عندما كانت المانيا النازية في اوج عظمتها العسكرية وتوسعها العدواني[9]. كما ان للستالينية تأثيرا كبيرا

على صدام شخصيا حيث كانت مكتبته الخاصة مليئة بالكتب المكتوبة من قبل ستالين او من قبل اخرين عنه. فالنازية و ايديولوجيتها المبنية على عبادة الشخصية (القائد الاوحد) و الدكتاتورية والشمولية و الاستعلاء القومي و التوسع و العدوان، والستالينية الدكتاتورية و الدولة البوليسية المنغلقة و ممارستها الصارمة و العنيفة ضد الاقليات حقائق تأريخية معروفة و موثقة و تأثيراتها على نظام البعث واضحة وجلية في سياسات و ممارسات الطاغية صدام ايضا. اضافة الى هذين العاملين هناك عامل اخر اثر على النظام و قائده وهو التزامه بالتقاليد و القيم القبلية العشائرية و الريفية الاقطاعية الصارمة من الولاء الكامل و التام الى الطاعة المطلقة.

2-كون الكورد الفيلية جزءا من الشعب الكردي في العراق و جزءا من الامة الكردية، لذا فان اضطهاد الكورد الفيلية من قبل نظام البعث المعادي للشعب الكردي و لتطلعاته المشروعة هو امتداد او جزء من اضطهاده لهذا الشعب ككل و يعبر عن الاستعلاء القومي و العدوانية التي ترفض او تنفي القوميات الاخرى و تطلعاتها و تبغي التوسع على حسابها.

3-وصل الكورد الفيلية بجهودهم الذاتية و من بدايات متواضعة جدا الى مستويات و مراكز مرموقة و مؤثرة في قطاع التجارة الخاصة و خاصة في بغداد، مركز سلطة الدولة العراقية. بسبب الاجندة الخفية لنظام البعث المعادية للشعب الكردي و تطلعاته المشروعة عمل ذلك النظام على تدمير المركز التجاري القوي للكورد الفيلية و تحطيم قوتهم الاقتصادية عن طريق سلب و مصادرة جميع اموالهم و ممتلكاتهم و ودائعهم و وثائقهم العراقية كجزء من اجندة النظام ضد البنية الاقتصادية للكرد و كردستان.

4-قام حزب البعث و القوميون العرب بانقلاب 8 شباط 1963 الدموي. لم يواجه الانقلابيون مقاومة جدية و على مدى ايام سوى في منطقتين في بغداد احداهما في حي الاكراد استخدمت فيها الوحدات الانقلابية الاسلحة الخفيفة و الثقيلة (الدبابات) لفرض سيطرتها على الحي ثم قامت باعتقال جميع الرجال البالغين من العمر 16 عاما حتى الشيوخ. وهذه مسألة لم ينسها البعث و قادته و لم "يسامحوا" الكورد الفيلية عليها.

5-قانون الجنسية العراقي العتيق و البالي الموروث كثيرا منه من العهد العثماني و المطور من قبل الاستعمار البريطاني عند انشائه الدولة العراقية ليجعله في صالح الاقلية من المجتمع العراقي التي تعاونت معه و ضد مصالح الاغلبية. و كان الكورد الفيلية من بين اكثر العراقيين تضررا من هذا القانون.

6-كجزء من تحضيرات نظام البعث التوسعية والعدوانية في الحرب ضد ايران عمل على تحقيق ما اعتقد انه سيزيد من الفوضى و عدم الاستقرار الاجتماعي و الاعباء و الاضطرابات الاقتصادية في ذلك البلد الذي شهد لتوه تغييرات كبيرة عن طريق تسفير مئات الالاف من الكورد الفيلية و غيرهم من

العراقيين اليها قبل بدء الحرب. و قد سبق للنظام ان استخدم نفس الاسلوب مع الحركة التحررية الكردستانية عام 1974 قبيل بدء حملته العسكرية الجديدة على شعب كردستان حيث دفع و ارغم الالاف من الكورد للذهاب الى المناطق المحررة لخلق مشاكل و اعباء اقتصادية و مصاعب اجتماعية ومخاطر امنية للحركة.

7-كون الكورد الفيلية من المسلمين الشيعة كان سبباً اضافيا لملاحقتهم و تسفيرهم و معاملتهم بشكل لا انساني من قبل نظام البعث الذي اتصف بالشوفينية و الطائفية و المذهبية الضيقة.

الكورد الفيلية و دورهم في الحركة الكوردية في العراق

سيتم تقسيم دور الكورد الفيلية في الحركة التحررية الكردستانية الى المراحل التاريخية الرئيسة التي مرت بها الحركة منذ تأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني بعد الحرب العالمية الثانية.

اولا-الفترة من الحرب العالمية الثانية حتى عام 1970

كان للكورد الفيلية حضور في صفوف الحركة التحررية الكردستانية المتمثلة بالحزب الديمقراطي الكردستاني منذ تأسيس الحزب عام 1946 كاعضاء و انصار و مؤازرين و مؤيدين و متعاطفين. وصل اشخاص من بينهم الى مراكز المسؤولية و الشهرة وخاصة بين الكورد الفيلية انفسهم، مثل الدكتور جعفر (جعفر محمد كريم) و شعبان نور علي وغيرهم، مع العلم بان الحزب كان محظورا ونشاطاته ممنوعة و كان الحزب يعتبر في العهد الملكي من "العناصر الهدامة"[10]. و كانت هناك خلايا وتنظيمات حزبية في بغداد تضم في صفوفها الكورد الفيلية. اتسعت مشاركة الكورد الفيلية في نشاطات الحزب بعد 14 تموز 1958 و خاصة بعد عودة القائد التاريخي للشعب الكردي مصطفى البارزاني من منفاه الى بغداد ثم الى كردستان و عندما اصبح الحزب يمارس نشاطاته بشكل شبه قانوني.

بعد شن الدولة العراقية و قواتها المسلحة الحرب من جديد على كردستان عام 1961 انحسرت لحد ما مشاركة الكورد الفيلية بسبب ظروف الملاحقة لكنها استمرت باشكال سرية مختلفة. و بعد انقلاب 8 شباط 1963 استمرت السياسة العدوانية للدولة العراقية تجاه شعب كردستان و حقوقه المشروعة واتهامها لهم بالتمرد و العصيان و العمالة تارة وبالانفصالية تارة اخرى و حاول البعث انذاك اثارة رجال الدين عليهم الا ان مساعيهم باءت بالفشل حين اتصل السيد عبد الحسين فيلي (حسب مصدر موثوق) بمكتب المرجع اية الله العظمى السيد عبد المحسن الحكيم رحمه الله و رتب لقاء بين سماحته ووفد كردي مؤلف من الاستاذ مام جلال الطالباني والسيد شاخوان شوان و السيد عبد الحسين فيلي اصدر على اثرها سماحته فتوى فحواها عدم جواز سفك دماء الكرد، كما اراد نظام البعث و شركاؤه من القوميين في حينه. استمر الكورد الفيلية على القيام بدورهم في الحركة التحررية الكوردية بمختلف الاساليب و تعرضوا للاضطهاد و الملاحقة

بسبب ذلك قبل التوقيع على اتفاقية 11 اذار 1970 بين الدولة العراقية ممثلة بالحكومة المركزية والحركة التحررية الكردستانية. و كان من بين الذين تعرضوا للاعتقال عدد من التجار الكبار من الكورد الفيلية في بغداد بتهمة ذات شقين (اساسها هو خرق الحصار الاقتصادي المفروض على كردستان و التعاون مع "الكرد المتمردين قطاع الطرق")، الاول هو شراء المنتجات الزراعية و الحيوانية القادمة من كردستان و بيعها من قبلهم في بغداد، و الثاني هو بيعهم لتجار من كردستان الشاي و السكر و غيره من المواد التي منعت حكومة بغداد بيعها او ارسالها الى كردستان. يمكن ذكر اسماء عدد من بين هؤلاء التجار و هم المرحومون الحاج علي جان، جاسم نريمان و اولاده و حيدر توفيق و غيرهم.

ثانياء الفترة من 11 اذار 1970 حتى 11 اذار 1974

بعد التوقيع على الوثيقة الرسمية التي اطلقت عليها اتفاقية 11 اذار 1970 بين الحكومة المركزية و اقليم كردستان (سمي انذاك منطقة كردستان للحكم الذاتي) و التي رحب بها الشعب العراقي و كل القوى السياسية و دول عديدة في الشرق الاوسط وخارجها و التي تم الاتفاق بموجبها على اعتبار الوية دهوك و اربيل و السليمانية وحدة متكاملة وتأجيل قضية المناطق المختلف عليها (و هي لواء كركوك و مناطق خانقين و مندلي و غيرها في لواء ديالي و سنجار و شيخان و غيرها في لواء الموصل) الى مفاوضات لاحقة.

اصبحت الحركة التحررية الكردستانية بعد التوقيع على اتفاقية 11 اذار حركة موحدة تحت قيادة القائد مصطفى البارزاني. استبشر الكورد الفيلية خيرا و ملئهم الفرح و الابتهاج و الاندفاع بعد هذين الحدثين المهمين (الاتفاقية و توحيد الحركة). لذا انخرطوا باعداد كبيرة في صفوف الحزب الديمقراطي الكردستاني و خاصة فرعه الخامس في بغداد و في غيره من الاحزاب العراقية. الا ان نظام البعث استمر في تسفير الكورد الفيلية و الذي بداه عام 1969 حتى عام 1971 و بعده.

تقلد عدد من الكورد الفيلية مراكز مسؤولية عالية في صفوف الحزب و منظماته الجماهيرية خلال هذه الفترة. من بين ابرز هؤلاء السيدة زكية اسماعيل حقي (اول قاضية في العراق) رئيسة اتحاد نساء كردستان، و السيد عادل مراد رئيس اتحاد طلبة كردستان، و السيد يد الله كريم العضو القيادي في اتحاد شبيبة كردستان العراق و السيد حبيب محمد كريم الامين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني حتى نكسة اذار 1975 بعد الغدر الايراني على يد الشاه السابق و خيانة ادارة نيكسون – كيسنجر و تنازلات نظام البعث عن وحدة الاراضي و السيادة العراقية باعطائه الشاه النصف الشرقي من شط العرب حسب اتفاقية الجزائر لعام 1975 بين الشاه و صدام. و ينبغي هنا ذكر حقيقة ان اول امراة يتم اعدامها في العراق لأسباب سياسية كانت الشهيدة ليلى قاسم الكوردية الفيلية التي اعدمها نظام البعث في ايار (مايس)

1974 مع اربعة شبان كرد. لقد كان اسناد القائد مصطفى البارزاني لحقوق الكورد الفيلية و تأكيده على عراقيتهم امام الحكومة العراقية هو تشجيعه لانتخاب هؤلاء لمواقع المسؤولية المهمة هذه، كما انه مثل رد فعله على مواقف "اللاموقف" لقسم من قادة الحزب الديمقراطي الكردستاني تجاه تسفير الكورد الفيلية قبيل و بعد التوقيع على اتفاقية 11 اذار 1970 و الذي كان باحسن التفسيرات موقفا ضعيفا و فاترا حيث فضل هذا القسم السكوت وعدم الرد على اجراءات الحكومة من اجل "عدم اثارة المشاكل" معها و "تجنب ما قد يثير التوتر" معها بسبب هذه المسألة. و تجدر الاشارة هنا ايضا الى ان القائد التاريخي مصطفى البارزاني اعاد تأكيد موقفه هذا من الكورد الفيلية و تجاه حكومة البعث و بعض قادة الحزب الديمقراطي الكردستاني المترددين عندما رشح السيد حبيب محمد كريم (سكرتير الحزب و كوردي فيلي) لمنصب نائب رئيس الجمهورية الذي كان من حصة الكرد حسب نصوص اتفاقية اذار 1970 و اصر على هذا الترشيح رغم الرفض المتكرر من قبل نظام البعث و رغم محاولات بعض قادة الحزب الديمقراطي الكردستاني اقناعه بترشيح شخص اخر بدلا عنه من اجل حل هذا الخلاف مع الحكومة المركزية. لقد رفض مصطفى البارزاني المساومة على هذه القضية رغم الضغوطات التي مورست عليه من اكثر من جهة[11]. و استمر في اصراره على ترشيحه لحبيب محمد كريم لمنصب نائب رئيس جمهورية العراق حتى شن البعث عدوانه على شعب كردستان في اذار 1974 عندئذ اختار نظام البعث كرديا اخرا هو سفير العراق في روما انذاك (طه محي الدين معروف) و عينه نائبا لرئيس الجمهورية و الذي بقي في منصبه حتى سقوط نظام البعث في حرب تحرير العراق في 9 نيسان 2003 و اعتقاله بعد ذلك.

اصدر نظام البعث قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان للحكم الذاتي في اذار 1974 من جانب واحد دون الالتزام بكل بنود اتفاقية 11 اذار 1970 وخاصة مسألة المناطق المتنازع عليها (كركوك وخانقين و سنجار و غيرها) و مسألة تنظيم العلاقة بين الاقليم (منطقة الحكم الذاتي) و المركز وكيفية حل الخلافات بينهما عند بروزها و الجهة التي ستبت فيها. كانت حسابات النظام تقوم على اساس انه ضمن الجبهة الداخلية و الخارجية لصلحته و عزل الحركة الكردستانية عن اصدقائها. لذا شن ذلك النظام البعثي العبثي الحرب من جديد على شعب كردستان في اذار 1974 و كانت حربا شرسة و ضروسا. التحق في هذه الفترة المئات والالاف من الكورد الفيلية من بغداد و غيره بالحركة التحررية الكردستانية و عملوا في صفوفها ككوادر علمية و ادارية و اعلامية و غيرها و انخرط العديد منهم في صفوف قوات البيشمركة.

استخدم النظام البعثي في حربه الشرسة ضد شعب كردستان كل قواته المسلحة لكسر مقاومته دون ان ينجح في تحقيق اهدافه فلجأ الى التضحية بوحدة الاراضي العراقية و بسيادة العراق على جزء

من اراضيه و خاصة ممر مائي استراتيجي بموجب اتفاقية الجزائر بدلا عن تلبية الحقوق المشروعة لجزء من الشعب العراقي و هو الشعب الكردستاني. (مزق رئيس النظام اتفاقية الجزائر بنفسه امام شاشات التلفزيون و استخدم نظام البعث و العبث تنازلاته عن وحدة الاراضي و السيادة العراقية واحدة من الحجج التي لجأ اليها لشن الحرب على ايران التي دامت ثماني سنوات و التي تسببت في مقتل مئات الالاف من الشعبين الجارين العراقي والايراني و في تخريب اقتصاديهما).

ثالثا- الفترة من اذار 1975 حتى الانتفاضة 1991

كما ذكرنا اعلاه، فمن جانب و بسبب غدر شاه ايران السابق (كان يتظاهر بشيء و يخفي نواياه الحقيقية المعادية لشعب كردستان العراق) و نكثت الادارة الامريكية المتمثلة بنيكسون - كيسنجر بوعودها و بعهودها (حتى وصل الامر بكيسنجر ان صرح علانية، و بدون ندم او وازع من ضمير، اثناء استجوابه من قبل مجلس الشيوخ الامريكي بانه "يدير السياسة الخارجية و لا يقوم بالاحسان") وخيانة نظام صدام (تنازله عن اراض و مياه عراقية في شط العرب و اماكن اخرى لدولة اجنبية من اجل كسر شوكة المقاومة الكردستانية بدلا عن تلبية حقوق شعب كردستان المشروعة). و من جانب اخر، و بسبب عوامل داخل الحركة التحررية الكردستانية نفسها، اصيبت الحركة بنكسة موجعة المت بشعب كردستان العراق و بكل الشعب الكردي اينما كانوا و ليس في العراق فقط. (جاء على ذكر هذه الاسباب الداخلية و الخارجية اكثر من كراس و كتيب و كتاب صدر في اعقاب النكسة و صدرت عن العديد من الاشخاص الذين عايشوا الحركة حاولوا تحليل تلك الحقبة و اسباب النكسة و تبرير دورهم فيها كل حسب رأيه). و لكن بسبب حيوية و ديناميكية شعب كردستان و بمساندة الامة الكردستانية عموما لها نهضت الحركة التحررية الكردستانية في العراق من جديد و وقفت على قدميها و تركت النكسة وراءها و لكنها انقسمت وتبادلت التهم المريرة فيما بينها لفترة من الزمن ولكنها تجاوزت تلك المرحلة من التطور.

تاسست بعد النكسة احزاب جديدة عديدة ولعب الكورد الفيلية ادوارا بارزة في العديد منها. فبالاضافة الى السيد مام جلال الطالباني و اخرين كان السيدان عاد مراد و عبد الرزاق ميرزا (رزاق فيلي) عضوين مؤسسين للأتحاد الوطني الكردستاني و كان كوردي فيلي مسؤولا عن العلاقات الخارجية للحزب الديمقراطي الكردستاني - القيادة المؤقتة وعمل في مكتب الحزب في لندن برفقة القياديين البارزين نوري شاويس و علي عبدالله من سنة 1977 حتى 1980.

لذا شهدت حقبة ما بعد الانتكاسة فترات من الاقتتال الداخلي ذهب فيه من الضحيا اكثر من ضحايا القتال مع القوات المسلحة العراقية. كما ان هذه الحقبة شهدت ابشع هجمة شرسة على شعب كردستان و على الكورد الفيلية في بداية ثمانينيات

القرن الماضي حيث بدأ نظام البعث الشوفيني حملته بتسفير اكثر من 500.000 كوردي فيلي بشكل اعتباطي لا قانوني و لا انساني و احتجز ما يناهز الـ 10.000 من شبيبة الكورد الفيلية و غدر بهم فيما بعد. و بدأ بعد منتصف الثمانينيات بتنفيذ عمليات الانفال السيئة الصيت بأسم "العروبة و الاسلام" فقتل فيها اكثر من 180.000 من المواطنين العراقيين من ابناء كردستان العراق و سبى اهلها و اعتدى على نسائها و بناتها واطفالها و دمر حوالي 4.000 قرية في كردستان و صب الاسمنت في عيون و ابار المياه و شن حملة عنصرية من التطهير العرقي في لواء كركوك و المناطق الكردية في لوائي ديالى و الموصل. و قام بجريمة قصف مدينة حلبجة في 16 اذار 1988 بالاسلحة الكيمياوية و التي قتل فيها حوالي 5.000 "مواطن عراقي كردي مسلم" وجرح اكثر من 10.000 من سكان المدينة المسالمة من الاطفال و النساء و الشيوخ و غيرهم و قام خلال هذه الفترة "بتصفية اكثر من 6.000 بارزاني تصفية جسدية دون ان يترك لهم اثرا، و قتل كل المحجوزين الذين يقدر عددهم بحوالي 10.000 من شباب الكورد الفيلية اعداما او بطرق اخرى. هذه الجرائم هي "وصمة عار" للبعث و مؤيديه و المدافعين عنه والمطبلين له و لسياساته الشوفينية و الطائفية و على الذين يريدون الان السير على خطاه.

رابعا- الفترة من انتفاضة 1991 حتى حرب تحرير العراق

دخلت قوات نظام البعث العدواني اراضي دولة الكويت و احتلتها و اضطهدت شعبها و سرقت ما وقع تحت يدها من اموال و اجهزة و معدات وغيرها من "غنائم" الحرب و الفتوحات و الاغارة في 2 اب 1990. و بسبب رفض نظام البعث الالتزام بالشرعية الدولية و قرارات مجلس الامن، تشكل تحالفا دوليا من 32 دولة قام بتحرير الكويت في بداية عام 1991 انهزم في معركتها الجيش العراقي شر هزيمة (سماها ذلك النظام بـ"ام المعارك"!). على اثر ذلك وبتشجيع مباشر من رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية انذاك (الرئيس جورج بوش الاب) انتفض الشعب العراقي بكرده في كردستان العراق وعربه في الوسط و الجنوب. تم قمع الانتفاضتين الشعبيتين بالوحشية و الضراوة البعثية المعهودة وقتل خلالها عشرات الالاف (القبور الجماعية في شمال و وسط و جنوب العراق خير شاهد على ذلك) وقام حوالي المليونين من شعب كردستان بالنزوح الجماعي نحو الحدود الشرقية و الشمالية تعبيرا عن رفضهم لنظام البعث و خوفا من استخدامه للأسلحة الكيمياوية و الجرثومية ضدهم كما فعل مع سكان حلبجة و باليسان و جافايتي و غيرها.

قام الكورد الفيلية خاصة المتواجدين في اوربا الغربية و غيرها بالمشاركة الواسعة في التظاهرات والاعتصامات الكبيرة ضد السفارات و القنصليات العراقية و امام السفارات الامريكية دفاعا عن شعب كردستان العراق و احتجاجا على جرائم البعث بحقه و طلبا للحماية الدولية لهذا الشعب المضطهد والمظلوم. تعرض المتظاهرون في عدد من العواصم الاوربية (من بينها ستوكهولم و هلسنكي) للرمي

بالرصاص الذي اطلقه جلاوزة النظام "الدبلوماسيون" من داخل هذه السفارات والقنصليات.

بسبب ردود الفعل القوية لدى الراي العام الاوربي و الامريكي تدخلت كل من الولايات المتحدة الامريكية و بريطانيا و فرنسا (انسحبت فرنسا بعد تسنم جاك شيراك رئاسة الجمهورية بعد ميتران) باقامة منطقة امنه في كردستان العراق و فرضت منطقة حظر الطيران على العراق شملت القسم الاكبر من كردستان العراق (و بعدها منطقة اخرى في الجنوب) و قامت بحراسة اجواء تلك المنطقة بطائرات انطلقت من مطار انجيرليك في شرق تركيا. و اصبحت تلك المنطقة تحت سيطرة الاحزاب الكردستانية و لم تكن للبعث سلطة فيها منذ انتفاضة 1991 حتى سقوطه في 9 نيسان 2003.

و لكن بسبب كون القوى السياسية الكردستانية لم تكن متهيأة كما لم يكن شعب كردستان مهياً لمثل هذه الاوضاع و لم تكن لديهم خبرات في مجالات ادارة دوائر الدولة، عانى الوضع في بادئ الامر صعوبات جمة حيث لم تكن الادارات تعمل بشكل منتظم لتسيير امور الناس و مؤسسات الخدمات العامة او لتنظيم حياة المواطنين اليومية. و لكن الامور بدأت بالتحسن التدريجي حتى جرت انتخابات ناجحة و بشكل حر وديمقراطي و في جزء محرر من بلد يعيش تحت الدكتاتورية و المركزية الصارمة و عبادة الشخصية لثلاثة عقود ونيف و مر بظروف اقتصادية واجتماعية وجيوسياسية صعبة للغاية.

عاد عدد من الكورد الفيلية الى المناطق المحررة من بقية مناطق العراق و من المهجر للمشاركة في الوضع الجديد و عملوا في اربيل و السليمانية وغيرها (مثل عادل مراد، حبيب محمد كريم، الذي اسندت اليه مهمة تحرير جريدة "التآخي"، و يد الله و غيرهم) الذي استمر مستقرا لفترة من الزمن حتى بدأت القوى الاقليمية التي تقطن ضمن حدود دولها اجزاء من الشعب الكردي و هي تركيا و ايران و سوريا بالتدخل في شؤون الاقليم اضافة الى تدخلات نظام البعث في بغداد. كانت هذه الدول تتظاهر في العلانية بمساندة شعب كردستان ومعارضة سياسة بغداد تجاههم و لكن كان وزراء خارجيتها يعقدون في نفس الوقت اجتماعات دورية في انقرا تارة و في طهران تارة و في دمشق تارة اخرى مرة كل ستة اشهر و ينسقون سياساتهم ونشاطات اجهزة مخابراتهم لتخريب تجربة اقليم كردستان في الديمقراطية و الحكم الذاتي و لإثارة الخلافات بين الحزبين الكردستانيين الكبيرين نحو التخاصم و العداء حتى نجحوا في زرع الشكوك وبذور الفتنة و اخيرا اشعال فتيل الاقتتال الداخلي بينهما عندئذ و بعد ان حققوا اهدافهم المعادية لشعب كردستان و تطلعاته توقفوا عن عقد اجتماعاتهم الدورية.

كان بين الكورد الفيلية مؤيدون للطرفين (الحزب الديمقراطي الكردستاني و الاتحاد الوطني الكردستاني) و بعد انشاء الادارتين في السليمانية واربيل عمل عدد من الكرد الفيلية في كلتيهما.

خامساً- منذ "حرب تحرير العراق"

ايد الكورد الفيلية حرب تحرير العراق كما فعل شعب كردستان العراق و قواه السياسية و قواته المسلحة تأييدا كاملا من اجل نيل حقوقهم وللتخلص من نظام الطاغية بشكل نهائي. كان دور الكورد الفيلية ضمن صفوف و نشاطات الاحزاب التي ينتمون اليها او يعملون فيها او المشاركة في المظاهرات التي جرت في الخارج و على الانترنيت ضد نظام بغداد.

تعمل اعداد متزايدة من الكورد الفيلية في صفوف الاحزاب الكردستانية و العراقية، العلمانية و الدينية، و عدد منهم يتسنم في صفوفها و في ادارتي اربيل و السليمانية مراكز مسؤولية بمنصب وزير او نائب وزير او في صفوف قواتها المسلحة من بين المعروفين منهم عادل مراد (عضو مكتب سياسي) و عبد الرزاق ميرزا و سعدون فيلي (في ادارة السليمانية)، و يد الله كريم و جليل فيلي و حيدر شيخ علي (في ادارة اربيل)[12].

لم يقم الكورد الفيلية في العراق بانشاء احزاب سياسية[13] بل انخرطوا في صفوف الاحزاب الكردستانية و العراقية مفضلين تأسيس الجمعيات و المنظمات غير الحزبية للحفاظ على الروابط التي تجمعهم و لنشر ما لحق بهم من مآسٍ و ويلات و ظلم و لاظهار مشاكلهم و همومهم و للدفاع عن حقوقهم و تطلعاتهم المشتركة. الا ان بعض الكورد الفيلية يشعرون ان الاحزاب الكردستانية تستطيع ان تعمل اكثر و ان تذكر مشاكل و مظالم الكورد الفيلية ايضا عند التعامل مع المظالم التي تعرض لها شعب كردستان العراق و المشاكل التي تواجههم حاليا و خاصة في المحافل المهمة ذات العلاقة و في وسائل الاعلام لأنهم، اي الكورد الفيلية، تولد لديهم الانطباع بان هذه الاحزاب تغيبهم او تنساهم وتهمل مشاكلهم خاصة عند حسم الامور. و يرد بعض قادة هذه الاحزاب انهم يساندون الكورد الفيلية و حقوقهم وتطلعاتهم و لكن الكورد الفيلية هم انفسهم احسن المؤهلين لإثارة قضيتهم و نشرها في المحافل المناسبة و طرح مظالمهم و مطالبهم ومتابعتها بانفسهم. و لكن بعض الكورد الفيلية يردون قائلين انه و مع شديد الاسف فان بعض الشخصيات السياسية الكردستانية و بعض المثقفين الكورد ليست لديهم معلومات كافية عن الكورد الفيلية و مشاكلهم و ما تعرضوا له من مآسٍ مما ادى الى عدم اكتراثهم و تغييبهم للكورد الفيلية ومشاكلهم[14].

هناك البعض من الكورد الفيلية الذين يقولون ويتحاججون بان تغييبهم او اهمال قضيتهم يظهر من عدم تمثيلهم في مجلس الحكم او في المحافل الاخرى. و يرد اخرون بان الكورد الفيلية بحاجة الى تمثيل في هذه المحافل ضمن المجموعة الكردية وليس بشكل منفصل عنها، سواء كان ضمن المؤسسات القائمة الان او التي ستنبثق في المستقبل. ان ذلك سيؤكد هويتهم الكوردية و يثبت مواطنتهم العراقية.

الاستنتاجات

الكورد الفيلية هم قسم من الشعب الكوردي في العراق و جزء من الامة الكردية وهم سياسيا شريحة من الحركة التحررية الكردستانية في العراق و هم عراقيو المواطنة و الجنسية. و هذه حقائق موضوعية لا يمكن انكارها. احداث و تطورات نصف القرن الماضي تظهر و تؤكد ذلك. الا ان للكورد الفيلية خصوصية بالنسبة لوضعهم العام و للمظالم التي تعرضوا لها على يد الدولة العراقية و للمشاكل التي تواجههم الان. المشاكل التي يعاني منها الكورد الفيلية هي مشاكل عديدة و معقدة و صعبة الحل في ظل الظروف الحالية. يمكن ذكر اهم هذه المشاكل بشكل مختصر في النقاط الاتية:

1-مشاكل الجنسية و المواطنة: لقد نظرت الدولة العراقية منذ تاسيسها و تبنيها قانون الجنسية نظرة غير عادلة فيها الكثير من الغبن و الاجحاف بحقهم و كأنهم غرباء و من اصول غير عراقية رغم انهم و اباءهم و اجدادهم مواطنون عراقيون بالولادة و خدموا في الجيش العراقي و ارسلوا الى جبهات القتال. لقد حكم الكورد الفيلية، كما جاء اعلاه، العراق من سامراء حتى البصرة من سنة 1523 الى سنة 1529 ميلادية و اغلبيتهم بقوا وقطنوا العراق منذ تلك الحقبة كما اشارت الى ذلك الشرفنامة الصادرة عام 1584 ميلادية. الا ان نظام البعث قد اسقط عن مئات الالاف منهم جنسيتهم العراقية و رماهم عند الحدود[15]. و في ايران اعتبرتهم السلطات الايرانية غرباء و مواطنين عراقيي الجنسية و كان الناس يطلق عليهم اسم "عربها" (اي العرب). مشكلة المواطنة و الجنسية تحتاج الى حل جذري عن طريق سن قانون جديد للجنسية و اعادة الجنسية الى كل المسفرين الراغبين في استعادتها.

2-مشاكل الاملاك و الممتلكات المصادرة: لقد صادر نظام البعث جميع املاك و ممتلكات و اموال الكورد الفيلية، المنقولة منها و غير المنقولة والسائلة (النقود و الذهب و ارصدة البنوك و غيرها) بقرارات كيفية و اعتباطية غير قانونية اتخذت بدون ادنى وازع من دين او ضمير او انسانية. اعادة هذه الاملاك و الممتلكات الى اصحابها الشرعيين هي من ابسط متطلبات الحق و العدل و القانون. هذه ليست املاك و ممتلكات "متنازع" عليها بل هي اعادة الحق الى اصحابه. و هذه المشاكل شبيهة بمشاكل المهجرين من الكورد و التركمان و غيرهم من كركوك و خانقين و مندلي و غيرها من المناطق الكردستانية.

3-مصير المحتجزين من الكورد الفيلية: كما ذكرنا اعلاه احتجز نظام البعث الالاف من شبيبة الكورد الفيلية خلال عمليات التسفير الجماعية في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. و بعد حرب تحرير العراق لم يعثر احد على اثر لهم سوى بعض وثائق الامن و المخابرات التي تشير الى اعدام المذكورة اسمائهم في هذه الوثائق. اما مصير البقية و التي هي الاغلبية بينهم فلا احد يعلم علم اليقين ما جرى لهم. فبعض التقارير يقول انهم استخدموا في فتح

حقول الالغام اثناء الحرب مع ايران و تقارير اخرى تقول ان النظام البعثي الاجرامي اجرى تجارب اسلحته الكيمياوية و الجرثومية عليهم. اهالي هؤلاء المحتجزين يريدون ان يعرفوا ما جرى لاولادهم وبناتهم. و اذا اعدموا و قتلوا هل تم دفنهم؟ و اين هي مقابرهم؟

4-مشاكل العودة: يتساءل الكثير من الكورد الفيلية عن العودة الى وطنهم العراق الذين سفروا منه ظلما و عدوانا و عن الجهة المسؤولة عن ادارة هذه العودة وكيفية تنظيمها من قبل السفارات والقنصليات العراقية في الخارج و مدى صلاحياتها في اصدار وثائق سفر عراقية للراغبين منهم في العودة و هل سيعودون الى بيوتهم المغتصبة ام الى اين؟ ان قرار مجلس الحكم هو "تأسيس الهيئة العليا المختصة بحل منازعات الملكية العقارية" في حين ان الموضوع لا يتعلق بمنازعات بل باعادة الحقوق المصادرة اعتباطا من قبل نظام دكتاتوري جائر الى اصحابه، بقدر تعلق الامر بالكورد الفيلية و بشعب كردستان العراق من الكورد و التركمان و غيرهم من المهجرين قسرا.

5-مسألة التعويضات: اذا لم يكن من الممكن اعادة الحق الى اصحابه الشرعيين فهل ستقوم الدولة العراقية بتعويض اصحاب هذا الحق؟ و متى؟ وكيف؟ ام هل سيضيع منهم حقهم هذا؟ هل سيغبن الكورد الفيلية كبقية ابناء كردستان الان كما غبنوا دائما من قبل الدولة العراقية منذ تأسيسها و لحد الان؟ هل سيطلب منهم الانتظار بهدف التسويف والنسيان من اجل هضم هذه الحقوق كما كان يجري دائما في السابق؟

مسألة الكورد الفيلية
و حل قضية كردستان العراق

يعتقد الكورد الفيلية ان حقوقهم يمكن ان تعاد اليهم اذا تم حل القضية الكردية في العراق بشكل جذري و نهائي على اساس الحل الفيدرالي الجغرافي القائم على اساس توحيد مناطق اقليم كردستان العراق في وحدة ادارية واحدة من اجل تقوية الوحدة العراقية و تلبية لرغبة الاغلبية الساحقة من سكان هذا الاقليم و وضع ضوابط كافية واضحة و صريحة لهذا الحل في الدستور العراقي و في القوانين العراقية و بضمانات دولية من الامم المتحدة كطرف ثالث من اجل قطع الطريق على اية محاولات من اية جهة كانت قد تحاول ان تجرب السياسات القمعية السابقة بحق شعب كردستان العراق و منع اتخاذ اجراءات و قرارات اعتباطية وكيفية من قبل المركز كما كان يجري حتى 9 نيسان 2003. هذا الحل للقضية الكردية في العراق هو شرط اساسي لحل قضية الكورد الفيلية و لكنه ليس شرطا كافيا ما لم تقم القيادة الكردية بايجاد حلول جذرية لقضية الكورد الفيلية و ضمان هذه الحقوق و وضع الضوابط الدستورية و القانونية لها و تجنب تكرار اخطاء السبعينيات مع المركز الذي بدأ بضرب الكورد الفيلية ليختبر كيفية و مدى ردود فعل القيادة الكردية تجاهها و عندما اكتشف ان ردود الفعل هذه كانت واهية و فاترة تمادى

النظام في مواقفه الشوفينية و سياسته في التطهير العرقي. تجربة السبعينيات و الثمانينيات تبين بوضوح ان هناك تداخلا عضويا متشابكا في سياسات المركز (الدولة العراقية) تجاه اقليم كردستان العراق و تجاه الكورد الفيلية و كركوك و خانقين و مندلي و سنجار و الشبك و الايزديين.

يعرف الكورد الفيلية و ابناء شعب كردستان العراق كما يعرف خصومهم و اعدائهم ان وحدة صفوف قواهم السياسة و شرائحهم الاجتماعية واطيافهم الدينية و المذهبية هي قوة للحركة التحررية الكردستانية في العراق ككل و لكل واحد منهم ايضا و بأن فرقتهم هي ضعف لجميعهم. وهذه بديهية يعرفها الكل و لكن المهم ان يلتزم الجميع بها قولا و فعلا و ان لا يسمحوا للخصوم والاعداء النجاح في خلق الفرقة و الخلافات والخصامات بينهم كما فعلوا سابقا و نجحوا في ذلك احيانا.

من المسؤول: تعرض الكورد الفيلية كبقية سكان كردستان العراق الى جرائم ضد الانسانية و جرائم حرب و ابادة جماعية و تطهير عرقي و سلب ونهب (فرهود و سبي) و سرقة من قبل الدولة العراقية خاصة في زمن حكم الطاغية صدام. و لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل قام صدام بكل هذه الجرائم بنفسه شخصيا ولوحده؟ و هل قام بقتل كل هذه المئات من الالاف من الضحايا بيديه فقط؟ الجواب هو طبعا لا. اذن تتطلب العدالة و يتطلب القانون معاقبة الذين شاركوا في اصدار و تنفيذ قرارات عمليات الانفال و القصف الكيمياوي و التهجير القسري و التسفير و قتل سكان حلبجة وشبيبة الكورد الفيلية و البرزانيين و غيرها من الجرائم بدأ بالطاغية صدام حسين و انتهاء بالمسؤولين من المستويات التي تشملها قرارات اجتثاث البعث كل حسب الجرم الذي اقترفه[16].

اضافات

بعد كتابة هذا البحث باللغة الانكليزية وترجمته الحالية الى العربية ظهرت بعض المعلومات و حصلت بعض التطورات في الموقف من الكورد الفيلية و مواقع المسؤولية التي تسنموها في الوضع الجديد في العراق.

اولا: تعيين كورد فيلية في مراكز مسؤولية.

1-السيدة زكية اسماعيل حقي تعمل مستشارة في وزارتين عراقيتين و د. سعيد اسماعيل، و د. فؤاد حسين، و فيصل درويش، يعملون مستشارين في وزارات عراقية مختلفة و يعملون منذ سقوط نظام البعث.

2-صدر مؤخرا "قانون تأسيس الهيئة العليا المختصة بحل منازعات الملكية العقارية" الذي يستخدم تعبيرا غير مناسب لما وقع فعلا اذ يوصف القانون الاملاك و الممتلكات المصادرة من الكورد الفيلية المسفرين و من سكان كردستان العراق المهجرين و غيرهم بـ"منازعات الملكية العقارية" وليس اعادة ممتلكات و املاك الى اصحابها الشرعيين، املاك و ممتلكات سلبت من اصحابها الشرعيين بموجب قرارات و اجراءات اعتباطية غير قانونية. (جريدة الصباح في 2004/1/15).

3-نقلا عن موقع "النهرين" الالكتروني في 2004/2/11 و حسب جريدة بغداد الصادرة في بغداد فقد صدر قرار عن مجلس الحكم عين بموجبه 80 (حسب بعض المصادر) او 84 (حسب مصادر اخرى) وكيل وزارة[17] من بينهم 6 من الكورد الفيلية هم:

السيدة حمدية احمد نجف، وزارة المهجرين و المهاجرين

السيد اراس حبيب محمد كريم، وزارة الداخلية

السيد حميد ميرزا، وزارة البيئة

الدكتور كمال فيتولي، وزارة حقوق الانسان

السيد ضياء حسين علي فيلي، وزارة المهجرين والمهاجرين،

السيد جابر محمد الجابري، وزارة الثقافة

مع العلم بانهم رشحوا لمواقع المسؤولية هذه من قبل الحزبين الكردستانيين الرئيسيين (الاتحاد الوطني الكردستاني و الحزب الديمقراطي الكردستاني) و قوى سياسية عراقية اسلامية وعلمانية (المؤتمر الوطني العراقي، المجلس الاعلى للثورة الاسلامية، حزب الدعوة).

ثانيا: صدور "قانون تأسيس الهيئة العليا المختصة بحل منازعات الملكية العقارية" (المنشور نصه في جريدة الصباح البغدادية في 2004/1/15). يبدو ان مشرعي القانون ينظرون الى مشكلة الاملاك و الممتلكات التي صودرت من الكورد الفيلية و من مواطني كردستان العراق هي مشكلة حول "منازعات الملكية العقارية" و ليس حول اعادة حقوق مسلوبة الى اصحابها الشرعيين الاصليين التي صودرت منهم هذه الاملاك و الممتلكات بدون وجه حق او قانون و بقرارات و اجراءات اعتباطية تعسفية. و القانون هذا يتعلق فقط بـ"الملكية العقارية" و لا يجئ على ذكر الاموال المنقولة المصادرة بنفس الاسلوب اللاقانوني، مثل المحتويات المختلفة التي كانت موجودة في الممتلكات العقارية (مثل الاثاث و الحلي و الاجهزة و الادوات و المكائن و غيرها في العقارات السكنية والصناعية) و السيارات و ودائع البنوك والممتلكات الزراعية و غيرها التي صادرتها منهم الدولة العراقية المتمثلة بالحكومة و اجهزتها القمعية و التنفيذية و القضائية و التشريعية (مجلس قيادة الثورة و المجلس الوطني و مجلس الوزراء و اجهزة الامن و المخابرات و الشرطة والقوات المسلحة) التي شاركت في عمليات التهجير والتسفير و المصادرة بشكل او باخر.

الهوامش

*الكورد الفيلية هم جزء من الشعب الكردي في العراق و لكن لكون غالبيتهم يقطنون او سكنوا في مناطق تقع خارج حدود اقليم كردستان العراق، مثل بغداد و غيرها من مدن وسط و جنوب العراق، لذا لا يمكن اعتبار هذه الاغلبية جزء من شعب كردستان العراق، في حين ان الكورد الفيلية من خانقين و مندلي والمناطق القريبة هم جزء من الشعب الكردي و من شعب كردستان العراق ايضا اذ ان هذه المناطق هي قسم من كردستان العراق.

1-ينبغي التفريق بين حالة الكورد الفيلية من المدن الكردستانية مثل خانقين و منـدلي الخ و الـتي تشكل الجزء الجنوبي مـن كردستان العـراق و حالـة الكـورد الفيليـة مـن مـدن بغـداد و وسط و جنـوب العـراق ذات الاغلبية العربية. كورد هذه المدن تعرضوا مرارا وتكرارا الى حملات تسفير الى خارج الحدود في حين ان الكـورد الفيليـة مـن المـدن الكردسـتانية هـم ضحايـا التـهجير القسري داخل العراق.

2-في بعض المناطق التي يقطنها الكورد الفيلية ضمن الاماكن العربية في العراق يرتدي البعض من هؤلاء الزي العربـي و لكنـهم يتكلمـون اللغـة الكرديـة و يعتـبرون انفسهم كـوردا، مثـل الريـواري و الكـوردلي. و يلاحـظ نفس الشئ بـين الكورد مـن بعـض منـاطق كردسـتان القريبـة مـن الامـاكن العربيـة مثـل الايزديـين و الشـبك وكورد سنجار.

3-حسب تقديرات امريكية فان عدد الكورد الفيليـة في بغـداد الان يـتراوح بـين 700.000 و 750.000 شـخص (المصدر: حميـد نـوروز بعـد زيارة الى بغـداد في النصـف الثاني من عام 2003). و يذكر اية الله هادي المدرسي في بيـان لـه ان هنـاك 3.000.000كـوردي فيلـي في العـراق (بيان صدر عنه بتـأريخ 2003/9/24 بعنـوان "استمرار الظلم ضد الكرد الفيلية").

4-فعلى سبيل المثال لا الحصر، تعاقد عدد من الكورد الفيليـة مـع السلطات المحليـة و البريطانيـة على تسـوية وتعبيـد الطـرق جنـوب العاصمـة بغـداد في الثلاثينيـات والاربعينيات من القرن الماضي و استخدموا فقط كوردا فيليين في هذه النشاطات الاقتصادية.

5-عند تسفير الكورد الفيلية من العراق قامت الدولة العراقيـة ممثلة بالحكومـة "بمصـادرة" جميـع اموالهـم واملاكهم المنقولـة و غـير المنقولـة و ودائعهم في البنـوك ومحلاتهم التجاريـة و مصانعهم و غيرهـا دون اعطائـهم ايـة فرصـة لبيعـها في حـين ان نفـس الدولـة قـامت "بتجميد" اموال و ممتلكـات اليـهود المهاجرين او الذين اسـقطوا جنسـيتهم العراقيـة و سمحـت لهـم السـلطات العراقية ببيع ما استطاعوا مـن ممتلكاتـهم قبـل مغـادرة العراق. و هذا معناه انهم يستطيعون قانونيا و نظريـا المطالبـة بهذه الممتلكات اذا عـادوا الى العـراق في حـين ان الكـورد الفيليـة لا يسـتطيعون ذلـك لأن اموالهـم وممتلكاتهم تمت مصادرتها و ليس تجميدها.

6-يشير احد الاصدقـاء الى انتشـار ثقافـة او عقليـة "الفرهود و السبي" في مجتمعات الشرق الاوسـط الـتي عبرت عن نفسها مرارا عند غياب السلطة و انعدام الامن عند وقوع تغييرات سياسية كبيرة (كما حصل في العـراق مثلا يوم 14 تموز 1958 و خـلال عمليـات الانفال (التي اباح فيها نظام البعث لقواتـه المسلحة "الغازيـة" سـلب ونـهب اموال و حيوانـات الكـرد المدنيـين العـزل و سـبي نسائهم و بناتهم بعد تحقيق "النصر المؤزر" عليهم من "القـوات المسلحة الباسـلة" و اثنـاء عمليـات التسـفير والتهجير القسري للكرد) و اثناء انتفاضـات 1991 و عنـد سقوط نظام البعـث في 9 نيسـان 2003 و بعدهـا) و عنـد احتلال الجيش العراقي للكويـت عـام 1991 و عنـد نـهب نفط الشعب العراقي من قبل حكومات الجوار وسياسيين وصحفيين.. الخ مـن الـدول العربيـة و الاسلامية، والـتي ذكرت اسمائهم صحف بغداديـة. و يرجـع البعض اصول هذه الممارسات الى الثقافة العشائرية – البدوية و الغزوات القبلية و نهب و سلب القبيلة المغلوبة و اعتبار كل شـيء عائد لها (من الاموال المنقولة و الابل و الاغنام و النساء..

الخ) غنائم يحق للقبيلة المنتصرة اخذها عنوة اذا تطلب الأمر. هذه الظاهرة تحتاج الى دراسة خاصة.

7-تشير بعض التقارير المؤكدة بان المحجوزين قد تمت "تصفيتهم" بمختلف الطرق و الاساليب. فقسم منهم جرى اعدامه و قسم اجبر على السير في حقول الالغام لفتح الطريق امام وحدات "الجيش العراقي" خلال الحرب مع ايران و قسم جرى استخدامه في تجارب الاسلحة الكيمياوية و الجرثومية التي اجراها النظام. واذا تأكدت هذه التقارير فهذا يدل على ان الجيش قد اجرى تجارب هذه الاسلحة على شباب الكورد الفيلية ثم استخدمها ضد كرد كردستان و خاصة في جريمة قصف مدينة حلبجة بالغازات السامة عام 1988.

8-لقد اكد نائب رئيس وزراء البعث طارق عزيز حقيقة نوايا نظام البعث بتجريد الكورد من قوتهم الاقتصادية عندما اخبر الوفد الكردي المفاوض الذي ذهب الى بغداد في نهاية فترة الانتفاضة عام 1992 قائلا "لن نسمح ابدا بقيام قاعدة اقتصادية في المنطقة الكردية". (نقلا عن عضو في الوفد الكردي حضر تلك الاجتماعات).

9-جرى خلال هذه الفترة انقلاب (انقلاب رشيد عالي الكيلاني) في بغداد موال لألمانيا النازية ولمحور (المانيا – ايطاليا – اليابان) و معاد للحلفاء، تم القضاء عليه من قبل الجيش البريطاني الذي دخل العراق من الاردن. و في رأي البعث فان هذا الانقلاب هو حدث بارز في تأريخ العراق القومي.

10-بسبب نشاطاته في الحزب المذكور قامت السلطات في العهد الملكي باعتقاله مرات عديدة و تسفيره الى ايران بحجة "التبعية".

11-كانت هناك اسباب سياسية اخرى جعلت القائد التاريخي مصطفى البرزاني يتخذ هذا الموقف الثابت.

12-ذكر السيدات و السادة الواردة اسمائهم اعلاه هو الألتزام بالوقائع التأريخية التي حصلت خلال الحقبة الزمنية موضوعة البحث على ضوء المعلومات المتوفرة حاليا و لا يعني اتخاذ موقف معين تجاه ارائهم ومواقفهم و ممارساتهم خلال تلك الحقبة الزمنية من تطور الحركة التحررية الكردستانية في العراق.

13-من مصلحة الاحزاب الكردستانية نفسها ان تعير اهتماما اكبر لقضية الكورد الفيلية و مشاكلهم و ان تدافع عنهم و عن مصالحهم في المحافل ذات الاهمية لأن العراق من المؤمل ان يصبح ديمقراطيا و عندئذ ستجري الانتخابات البرلمانية و ربما الاستفتاءات و عندها سيكون لأصوات الكورد الفيلية وزنا لا يستهان به (مليون كوردي فيلي او اكثر اذا استطاع المسفرون العودة الى ديارهم المغتصبة). مع العلم ان الاحزاب العراقية الاخرى، من علمانية و اسلامية، تعمل منذ الان على كسب اكبر عدد منهم بوسائل الترغيب المختلفة.

14-هنالك اخبار تشير الى محاولة يقوم بها الان عدد من الكورد الفيلية في بغداد بمساندة و دعم طرف عراقي (المؤتمر الوطني العراقي) لتشكيل حزب سياسي فيلي (يقال ان اسمه المقترح هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي الفيلي او الحزب الاشتراكي الديمقراطي الفيلي) و يشيرون الى اسماء عدد من القائمين بهذه المحاولة.

15-تنبغي الاشارة هنا الى ان نظام البعث الشوفيني كان يعطي الجنسية العراقية مباشرة الى كل بعثي يأتي الى العراق من اي مكان و الى كل عربي موال للبعث وافكاره بعد وقت قصير.

16-ام هل يطبق البيت الشعري الآتي للشاعر الجواهري على الكورد الفيلية و شعب كردستان وغيرهم من ضحايا جرائم نظام البعث؟

قتل امرء في غابة جريمة لا تغتفر

و قتل شعب آمن مسالة فيها نظر

17-حسب ايلاف في 2004/2/12 فقد "رفض رئيس سلطة التحالف قائمة وكلاء الوزارات الجدد في العراق التي اصدرها مجلس الحكم امس و قرر تعليق العمل بها" لان الاختيار جاء على اساس "المحاصصة و التوفيقية و ليس على اساس الكفاءة و الامكانية" و بأن الاسماء اعتبرت بمثابة ترشيح لمناصب الوكلاء عند صدور قائمة جديدة من دون الألتزام بها جميعها، كما ابلغت مصادر مقربة من سلطة التحالف راديو سوى الليلة.

بعض المصادر

فيما يلي عينة من اسماء الكتب و المقالات و المؤلفين الذين كتبوا حول الكورد الفيلية بمختلف اللغات و في مختلف البلدان و المحافل الاكاديمية و السياسية و غيرها و المواقع الالكترونية المهتمة بقضيتهم.

Dr. Kadhim Habib, Dr. Qasim al –Mandelawi, Dr. Ismail Kamandar, Dr. Kamal Ketuly, Judge Zuhair Kadhim Abbod, Karzan Khanaqini, Dr. Muaiyad Abd al-Sattar, Dr. Abd al Rahim al Rifal, Dr. Adnan Abbas and many others. A comprehensive list of articles, papers and other sources on Fayli Kurds is found at http:/www.9neesan.com site.

1-Najm S. Mehdi, al-fayli, Stockholm 2001.

2-Dr. Adnan Abbas, Poznan University, Issues Concerning the Kurds and Kurdistan, 2003.

3-Middle East Watch, The Forgotten mass deportations in Iraq, Middle East International, Nov. 20, 1992.

4-Judge Zekia I. Hakki, The Iraqi Fayli Kurds and their catastrophic case, National Press Club, Washington DC, Oct 4, 2002.

5-Dr. Kadhum Habib, The plight of Fayli Kurds in Iraq, June 15, 2003.

6-Dr. Munther al – Fadhel, Fayli Kurds and their rights in the future of Iraq.

7-Abdul Rahman Ghassemlou, Kurdistan and the Kurds, London, 1965.

8-M Jafar, 1976, Under- Underdevelopment, A Regional Case Study of the Kurdish Area in Turkey, in English "Helsinki", Turkish "Istanbul" and Arabic "Beirut".

9-Muhammad A Zeki, History of the kurds and Kurdistan, Baghdad, 1961 "Arabic".

10-Dr. Mundhir al-Fadhl, Fayli Kurds And their role in future Iraq

11-The late Dr. Ali Babakhan, The Fayli issue in Iraq: origins and solutions, London, Dec. 2002.

12-Wittfogel, K.A., Oriental Despotism, A Comparative Study in Total Power, New Haven, 1967.

13-The internet, the following among many other sites:

/http://www.fkgc.com

/http://www.9neesan.com

/http://biphome. Spray.se/faili.kurd

/http://www.sotaliraq.com/feli.htm

majeed.jafar@maxima.se

قدمت هذه الدراسة باللغة الانكليزية الى الكونفرانس الاكاديمي "قضايا تتعلق بالكورد و كردستان" الذي عقد في بوزنان في بولندا، 20-21 تشرين الاول 2003 و الذي نظمه قسم الدراسات العربية و الاسلامية في جامعة ادم ميكيفيش و بمبادرة من رئيس القسم البروفيسور دكتور عدنان عباس. الترجمة الحالية تختلف عن النص الانكليزي الاصلي في التبويب و الاخراج و التجديد.

حصل المؤلف على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد والتخطيط الاقليمي من جامعة هلسنكي، فنلندا، عام 1976 ومن ثم درس و بحث كطالب ابحاث في مدرسة لندن للاقتصاد و العلوم السياسية لمدة ثلاث سنوات و تمت ترجمة اطروحة الدكتوراه الى اللغتين التركية و العربية اذ انها كان القسم العملي منها حول كردستان تركيا. عضو اتحاد المؤلفين في السويد منذ ثمانينيات القرن الماضي. عمل حزبيا في صفوف الحركة التحررية الكردستانية منذ عام 1970 و تسنم مختلف المسؤوليات الحزبية و السياسية حتى عام 1993 حين ترك النشاط الحزبي لأسباب سياسية عديدة.

القضية الكردية في المعادلة الدولية ودورها في مستقبل الشرق الاوسط

2-2

د. خالد يونس خالد

القضية الكردية والتدخل الإقليمي الدولي في العراق

الحرب العالمية الأولى وإتفاقية سايكس بيكو عام 1916 ومؤتمر سان ريمو عام 1920 دخلت الأمبراطورية العثمانية التي كانت تسمى بالرجل المريض الحرب العالمية الاولى عام 1914-1918 إلى جانب ألمانيا، وخسرت الحرب. وقعت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية إتفاقية سرية بأسم إتفاقية سايكس بيكو في 16 ايار عام 1916. تضمنت الإتفاقية تقسيم الممتلكات العثمانية بما فيها كردستان العثمانية بينهم. إنسحبت روسيا بعد ثورة اكتوبر الإشتراكية بزعامة لينين عام 1917، وبذلك إنفردت بريطانيا وفرنسا الإستعماريتان حكم المنطقة. هنا أصبحت القضية الكردية أكثر تعقيدا بل أصبحت من المعضلات الدولية حيث بموجب هذه الإتفاقية اصبحت كردستان الجنوبية ضمن خارطة العراق ، وكردستان الغربية ضمن خارطة سوريا، وكردستان الشمالية ضمن خارطة تركيا. بينما بقيت كردستان الشرقية على حالها ضمن خارطة إيران لأن إتفاقية سايكس بيكو لم تشمل إيران. وقد كرست الدول الإستعمارية هذا التقسيم لكردستان ودول الشرق الأوسط في مؤتمر سان ريمو عام 1920.

إحتلال بريطانيا للعراق وكردستان الجنوبية وتأسيس الدولة القومية العراقية

تشكلت الدول القومية التي ضمت أجزاء من كردستان وهي تركيا والعراق وسوريا وإيران بعد الحرب العالمية الاولى. ونحن هنا نعالج قضية العراق وكردستان الجنوبية. فقد إحتلت القوات الأنكليزية بقيادة الجنرال مود بغداد في 19 آذار 1917. وفي

نهاية عام 1918 إحتلت القوات البريطانية أجزاء من كردستان الجنوبية التي تسمى اليوم كردستان العراق بعد معارك طاحنة مع القوات العثمانية. وقرر مجلس الحلفاء الاعلى وضع العراق تحت الإنتداب البريطاني في 25 نيسان 1920. وقد ورد في المادة السادسة عشرة من "لائحة الإنتداب البريطاني" في 9 كانون الأول عام 1920 بصدد القضية الكردية ما يلي: "لاشئ ما في هذا الإنتداب يمنع المنتدب من تأسيس حكومة مستقلة إداريا في المقاطعات الكردية ..." . (أنظر ماجد عبد الرضا، القضية الكردية في العراق، ط 2 ، بغداد 1975، ص 55).

الإنتفاضات الكردية والتدخل البريطاني بإلحاق كردستان الجنوبية بالعراق العربي

قاد الزعيم الكردي الشيخ محمود الحفيد إنتفاضته الأولى عام 1919 والتي أخمدت بقوة السلاح الأنكليزي. ولكنه ما لبث أن قاد إنتفاضته المشهورة الثانية عام 1922 واجبر المستعمرين الأنكليز أن يستدعوه لتشكيل حكومة كردية مستقلة ذات علاقة بالدول المجاورة. وقد إعترفت الحكومتان العراقية والبريطانية بحكومة الحفيد والتي كانت عاصمتها السليمانية. ونصب الشيخ حفيد نفسه ملكا عليها ورفع العلم الكردي.

ومن جانب آخر كانت بريطانيا تخطط لضرب الحركة التحررية الكردية. فاتفقت مع الحكومة العراقية بصياغة بيانات تجعل الكرد تقترب من الحكومة والأنكليز. ففي 22 كانون الأول عام 1922 صدر بيان موقع من قبل الحكومتين البريطانية والعراقية يقول مايلي: "تعترف حكومة صاحب الجلالة والحكومة العراقية بحق الأكراد القاطنين ضمن هذه الحدود، وأنهم يؤملون أن العناصر الكردية المختلفة ستصل إلى إتفاق فيما بينها حول الشكل المرغوب للحكومة وحدودها. يرسل الأكراد مندوبين عنهم لمناقشة علاقاتهم الإقتصادية مع حكومة صاحب الجلالة والحكومة العراقية". (أنظر أبو شوقي، رابطة كاوة للمثقفين اليساريين الاكراد، لمحات من تاريخ الانتفاضات والثورات الكردية، بيروت، 1978، ص 132).

في 19 تموز / يوليو عام 1924 إحتلت القوات البريطانية مدينة السليمانية عاصمة حكومة الحفيد، وألحقت كردستان الجنوبية بالعراق العربي. لكن الشيخ محمود الحفيد قاد إنتفاضة اخرى عام 1930 بعد "اليوم الأسود" وهو اليوم الذي أطلق البوليس النار على المتظاهرين في 6 أيلول 1930 أمام سراي الحكومة بالسليمانية إثر مظاهرة شارك فيها العمال والفلاحون والكسبة الكرد ضد سلطات الإحتلال البريطاني. فأقسم القائد الكردي الشيخ الحفيد أن يأخذ بثأر الشهداء. لكن القوات البريطانية والعراقية سحقت الإنتفاضة ونفي الشيخ محمود الحفيد إلى الهند.

مشكلة ولاية الموصل والإدعاءات التركية بها

بعد سيطرة قوات كمال أتاتورك على مجمل الأراضي التركية، عمل جاهدا لإبطال تنفيذ بنود معاهدة سيفر عام 1920 والتي أقرت بالحقوق القومية للشعب الكردي. شاركت تركيا الكمالية في

مؤتمر لوزان بسويسرا عام 1923 ونجح الوفد التركي إقناع ممثلي دول الحلفاء بالتوقيع على معاهدة لوزان عام 1923، والتي الغيت إتفاقية سيفر، وبذلك تم إحتلال كردستان الشمالية كاملة من قبل تركيا.

بقي النزاع الحدودي بين تركيا والعراق، فقد نصت المادة الثالثة من معاهدة لوزان بهذا الصدد على مايلي: "ستتم تسوية الحدود الفاصلة بين تركيا والعراق بطريقة دولية بين الحكومتين البريطانية والتركية في غضون تسعة أشهر. وإن لم تتوصل الحكومتان إلى إتفاق خلال المدة المعينة، تحال القضية إلى مجلس عصبة الأمم". (أنظر قاسملو، كردستان والأكراد، بيروت، 1970، 89).

في الحقيقة والواقع لم يكن هذا النزاع مجرد نزاع محدد على الحدود إنما كان نزاعا على ولاية الموصل كلها أي على كردستان الجنوبية التي تسمى اليوم بكردستان العراق، وذلك بسبب النفط، واصبح مصير الكرد العراقيين مرتبطا بهذا النزاع.

فشلت المفاوضات بين بريطانيا وتركيا، فتحول النزاع إلى عصبة الأمم. ناقش مجلس عصبة الأمم القضية وقرر المجلس في 30 أيلول عام 1924 أن يؤلف لجنة من ثلاثة أعضاء لدراسة الموضوع وتقديم تقرير بشأنه متضمنا المعلومات والإقتراحات لغرض إتخاذ القرار. وكان أعضاء اللجنة هم الكولونيل باوليس من بلجيكا، والكونت تيكيلي رئيس وزراء هنغاري سابق، وفيرسن السويدي الذي ترأس اللجنة. وصلت اللجنة إلى مدينة الموصل في كانون الثاني عام 1925. إقترحت تركيا بإجراء إستفتاء لكن بريطانيا رفض الإقتراح باعتبار أن النزاع على الحدود وليس على منطقة من المناطق. وتقدمت بريطانيا وتركيا معلومات وأرقام مختلفة عن القوميات القاطنة في المنطقة. وأكدت بريطانيا أن الكرد آريون وليست لهم أية علاقة بتركيا في حين أن تركيا أعلنت بأنه ليس هناك فرق بين الترك والكرد وأنهما أمتان عاشتا بود جنبا إلى جنب طيلة قرون عديدة. (أنظر قاسملو، المصدر أعلاه، ص 90).

توصلت اللجنة المكلفة من عصبة الأمم إلى الإستنتاجات التالية : "ليس الأكراد عربا ولا أتراكا ولا فرسا، إلا أنهم قريبون من الفرس أكثر من الآخرين. وهم يختلفون ويجب تمييزهم عن الأتراك، وهم بعيدون عن العرب ويختلفون عنهم أكثر ... وفي حالة إعتماد النواحي العرقية وحدها أساسا للإستنتاج، فإنها تقودنا إلى القول بوجوب إنشاء دولة كردية مستقلة، فالأكراد يشكلون خمسة أثمان السكان. وإذا صار الإتجاه إلى هذا الحل فإن الايزيديين وهم من عنصر مشابه للأكراد، يجب أن يدخلوا ضمن عدد الأكراد، فتكون نسبة الأكراد حينذاك سبعة أثمان السكان". (أنظر قاسملو، المصدر أعلاه، ص 91-92).

عصبة الأمم توافق على قرار ضم كردستان الجنوبية بالعراق

الحقت بريطانيا كردستان الجنوبية بالعراق العربي، ونتيجة ضغط الإستعمار البريطاني على عصبة الأمم ، صادقت عصبة الأمم على قرار الضم عام 1925. ورفض الشعب الكردي هذا القرار

وخاصة في مدينتي السليمانية وكركوك. وطالب الكرد بتشكيل حكومة كردية مستقلة، حتى أنه أثناء تتويج فيصل ملكا على العراق، أظهر الإستفتاء "أن الولايتين المأهولتين بصورة رئيسية بالأكراد عارضتا ذلك. ففي كركوك صوتت الغالبية ضد الإستفتاء بينما قاطعه سكان السليمانية". (ادمون غريب، الحركة القومية الكردية، بيروت، 1973، ص 23. أنظر أيضا محمود درة، القضية الكردية، بيروت، 1966، ص 113).

كردستان الجنوبية أصبحت ولا تزال ضمن العراق الموحد

إستنادا الى ما ذكرناه، وبموجب قرار عصبة الأمم أصبحت كردستان العراق جزءا من الدولة العراقية الجديدة. وعندما صدر القانون الأساسي العراقي (الدستور) في 21 آذار عام 1925 جاء في المادة الخامسة مايأتي: "لا تكون هناك أية تفرقة في حقوق العراقيين أمام القانون بسبب إعتبارات عنصرية أو دينية أو لغوية". وتقول المادة 18 "العراقيون يتمتعون بالمساواة الكاملة في الحقوق السياسية والدينية والواجبات العامة والإلتزامات. لا يجب أن يفرق بينهم بسبب الأصل أو اللغة أو الدين".

لائحة العراق إلى عصبة الأمم عام 1932

قدم العراق لائحة إلى عصبة الأمم في كانون الثاني عام 1932 لقبوله عضوا فيها. وقد أكد العراق في اللائحة أن للعراقيين الحرية الكاملة دون تمييز بسبب المولد أو الجنسية او اللغة أو الدين. وبأن جميع العراقيين متساوون أمام القانون ويتمتعون بنفس الحقوق المدنية والسياسية بغض النظر عن اصلهم القومي أو دينهم. وأن يتضمن نظام الإنتخابات تمثيلا عادلا للأقليات القومية والدينية في العراق. ووافقت الحكومة العراقية أن تكون اللغة الكردية لغة رسمية في المنطقة الكردية. (أنظر التفاصيل في كتابنا بعنوان: كيف تعالج الدساتير العراقية الحقوق القومية للشعب الكردي، ستكهولم، 1990، ص 25).

وافقت عصبة الأمم على طلب العراق عضوا فيها عام 1932. وبذلك بدأت الحكومة العراقية بخرق بنود اللائحة المذكورة أعلاه.

الحرب العراقية الإيرانية 1980ـ1988

بعد نكسة عام 1975 إثر إتفاقية الجزائر بين الحكومتين العراقية والإيرانية والتي أودت بإنهيار الحركة التحررية الكردية، كما ذكرنا في الحلقة السابقة، تمكن الشعب الكردي أن ينهض من جديد بتفجير ثورة جديدة في 26 أيار عام 1976 والمستمرة لحد إسقاط النظام البعثي العراقي في 9 نيسان عام 2003 إثر الغزو الأمريكي للعراق وتحريره من دكتاتورية صدام ثم إحتلاله بعد التحرير.

بعد ثورة الشعوب الإيرانية عام 1979 فُسخت الصداقة العراقية الإيرانية ووجد صدام حسين نفسه في موقع القوة، خاصة بعد أن عزل احمد حسن البكر وتسلم هو رئاسة الجمهورية. فأعلن إلغاء إتفاقية الجزائر المذكورة أعلاه وذلك في 17 أيلول عام 1980. وفي 22 من نفس الشهر دخلت

القوات العراقية إلى الأراضي الإيرانية. وبذلك ساعد صدام الشعب الإيراني بالوقوف وراء قيادة آية الله خميني في حرب دامت ثماني سنين، قتل فيها مئات الآلاف من القتلى والجرحى والمشردين من الجانبين.

إنتهزت القيادة الكردية هذه الحرب، فقررت قبل كل شئ عدم المساهمة فيها ضد إيران، وعدم مساعدة صدام حسين في عدوانه على إيران كما أسموه. وأقاموا علاقات مع الثورة الإيرانية، وبعث البارزاني الأب مصطفى برقية تهنئة إلى آية الله خميني بمناسبة إنتصار ثورة الشعوب الإيرانية على نظام الشاه. كما بعث جلال الطالباني ببرقية مشابهة، حيث أصبح هوالآخر له دور كبير في الحركة التحررية الكردية بعد إنهيار ثورة أيلول 1961 والتي كان يقودها البارزاني إلى 6 آذار عام 1975.

إنتهت الحرب العراقية الإيرانية في 18 تموز عام 1988 بعد موافقة إيران على وقف إطلاق النار بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 الصادر في 10 تموز 1987، والذي وافق عليه العراق أصلا في حينه. وفشل نظام صدام من تحقيق أي هدف من الحرب ، وبقيت إيران تحتفظ بالحدود التي حصلت عليها بموجب إتفاقية التنازل في 6 آذار 1975. وبهذا نرى كيف أن القضية الكردية كانت السبب لتنازل النظام العراقي لأجزاء من شط العرب لإيران بموجب إتفاقية الجزائر عام 1975، والتي بدورها كانت سببا لشن نظام البعث العراقي الحرب على إيران في عام 1980. ولو كان النظام العراقي يجد حلا للقضية الكردية بدلا من شن الحرب على إيران، وحافظ على وحدة العراق، في أجواء ديمقراطية ، لما دخل العراق في أتون حرب الثماني سنوات. ولما أصاب العراق ما اصابه من دمار وإحتلال.

غزو العراق للكويت 1990

حاول النظام البعثي العراقي إيجاد الذرائع لشن الحرب على دولة الكويت ، في الوقت الذي كانت دولة الكويت من أكثر الدول العربية تعاطفا مع العراق في سنين الحرب العراقية الإيرانية، إلى درجة أن صدام حسين قلد أمير الكويت وسام الرافدين من الدرجة الأولى أثناء الحرب. لكن إحسان الكويت قوبل بالغدر والخيانة، وذلك بغزو الأراضي الكويتية وإحتلالها في اغسطس عام 1990. وبذلك فتح النظام العراقي الأبواب أمام القوات الأجنبية وخاصة الأمريكية بدخول الشرق الأوسط من أوسع ابوابها. وساهمت الدول العربية وخاصة مصر وسوريا ودول التعاون الخليجي في الحرب ضد العراق لتحرير الكويت.

كان موقف الكرد من الحرب واضحا وهو أنهم وقفوا ضد العدوان العراقي ، ووجدوا فرصة مناسبة لتكوين علاقات صداقة مع حكومة الكويت ، والحصول على مساعدات إقتصادية للوقوف ضد السياسات العدوانية للنظام العراقي ضد الكرد. كما كانت الحرب ضد الكويت فرصة جيدة للقيادات الكردية بتقوية علاقاتها مع دول الحلفاء وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وساندت حرب تحرير الكويت إعلاميا. هذا الموقف أضعف النظام العراقي

من النواحي العسكرية والإقتصادية والنفسية حيث رفض الكرد البقاء في الخدمة العسكرية، والهرب إلى كردستان العراق والخارج، وبذلك فقد العراق سندا شعبيا من كردستان، مثلما فقد العمق الإستراتيجي من جهة كردستان.

الإنتفاضة العراقية عام 1991

ودخول القضية الكردية مرحلة دولية جديدة

من المهم أن نذكر بأن القضية الكردية كانت سببا مباشرا لإضعاف النظام العراقي وبالتالي سقوطه مؤخرا. فبسبب موقف الكرد المعادي لغزو العراق للكويت، وبعد تحرير الكويت إثر نجاح عاصفة الصحراء، وإستسلام النظام العراقي تحت خيمة صفوان، صب صدام حسين جام غضبه على الشعب العراقي من عرب وكرد. وبالمقابل إنتفض الشعب العراقي في الجنوب أولا ثم في كردستان في أوائل شهر آذار عام 1991، معتمدا على الوعود الأمريكية بدعم الإنتفاضة من أجل إسقاط النظام البعثي الصدامي. لكن جوج بوش الأب قرر وقف العمليات العسكرية ضد بغداد، وعدم التقدم نحو العاصمة بغداد لإسقاط النظام. فقد كانت المصالح الأمريكية تتطلب الإبقاء على النظام العراقي لفترة أخرى من أجل ترسيخ نفوذه في المنطقة. وبذلك مهدت الولايات المتحدة لنظام صدام بشن حرب إبادة ضد الشيعة في الجنوب، وضد الكرد في كردستان. وقتل الآلاف من المواطنين المدنيين العزل لمجرد مشاركتهم في الإنتفاضة. وبذلك وجدت بريطانيا وفرنسا ضرورة التدخل وتشكيل المنطقة الآمنة في كردستان العراق. ودخول القوات الأمريكية إلى المنطقة، وتكوين قواعد عسكرية ومراكز تجسس لحماية الكرد في كردستان، وحماية الشيعة في الجنوب نسبيا. وقد حدث كل ذلك تحت خيمة بعض الانظمة العربية وجامعة الدول العربية والمؤتمر الإسلامي.

لقد تجلت الحقيقة للشعب الكردي بأن الذين يضطهدونه هم أنظمة عربية (العراق وسوريا) وتركية وفارسية مسلمة، وجميع هذه الأنظمة تتعامل مع الغرب، كما انها تتعامل مع إسرائيل بشكل أو بآخر. ولهذا فكرت القيادات الكردية بأن الوقت ملائم بالتوجه نحو الغرب وإسرائيل. وفعلوا ذلك. فقد تحولت كردستان العراق إلى قاعدة للقوات الأمريكية كما سمح الكرد لليهود بزيارة كردستان. وتمكن الكرد من فتح قنوات غربية عديدة للتعامل معها، والحصول على مساعدات إنسانية من أجل تقوية نفوذها، وإمتصاص قوة الجيش العراقي والعمل على إنهيار الإقتصاد العراقي وإجباره بالتعامل مع بعض الشركات الكردية مثل شركة آسيا وغيرها لتقسيم الارباح، والسماح للكرد بالإستفادة من كمارك إبراهيم الخليل لمرور النفط عبر تركيا خارج إطار النسبة المقررة من قبل الأمم المتحدة. وبذلك إستفاد الحكم في كردستان من هذا الوضع، وحصل على ملايين الدولارات لتقوية نفوذه ، واستخدام هذه الأموال في الإعلام ودفع الرواتب وفتح المشاريع الإقتصادية.

العوامل الداخلية والخارجية لتدويل القضية الكردية

تمكنت التنظيمات الكردستانية في كردستان العراق مرحليا ان تلتقي على الأسس الأولية للتعاون مع بعضها البعض، أولا من خلال جبهات قومية، مثل جبهة جوقد أي "الجبهة القومية الوطنية الديمقراطية العراقية" بين الإتحاد الوطني الكردستاني وستة تنظيمات سياسية عراقية أخرى في 12 نوفمبر عام 1980، وانتهت عمليا في عام 1983. وفي نفس الوقت، وتحديدا في 28 نوفمبر 1980 تأسست جبهة اخرى وهي "الجبهة الكردستانية العراقية" والتي تضمنت الحزب الديمقراطي الكردستاني، الحزب الإشتراكي الكردستاني، الحزب الشيوعي العراقي، حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني، الحزب الإشتراكي الكردي-باسوك، الحزب الإشتراكي العراقي والتجمع الديمقراطي العراقي. وبعدها بثماني سنين، وتحديدا في 2 أيار/مايو عام 1988 تأسست جبهة خاصة بالأحزاب الكردستانية وهي "الجبهة الكردستانية العراقية"، وتضمنت الحزب الديمقراطي الكردستاني، الإتحاد الوطني الكردستاني، الحزب الإشتراكي الكردستاني، حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني والحزب الإشتراكي الكردي-باسوك.

بدأت ثورة الشعوب الإيرانية في شباط عام 1979. وفي 22 أيلول/سبتمبر عام 1980 شنت القوات العراقية الحرب على إيران. وفي 17 سبتمبر 1980 ألغى نظام صدام حسين إتفاقية الجزائر لعام 1975 وهي الإتفاقية التي وُقعت بين الشاه الإيراني المقبور ونائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين، بحضور الرئيس الجزائري الأسبق هواري بومدين، وبدعم ومساندة كل من الأردن والولايات المتحدة الأمريكية ومصر، وبموجبها تنازل العراق عن أجزاء من أراضيه لإيران، ومرور خط الحدود في شط العرب بخط تالوب لصالح إيران، مقابل سحب إيران والولايات المتحدة دعمهما العسكري والمالي من الثورة الكردية التي كان يقودها الراحل الملا مصطفى البارزاني، مما ادى إلى إنهيار الثورة، ولو مرحليا، حيث تمكنت من النهوض من جديد في 26 أيار عام 1976، وهذه المرة بمشاركة الإتحاد الوطني الكردستاني وجلال الطالباني إلى جانب الحزب الديمقراطي الكردستاني والبارزاني رغم الخلافات بينهما.

الحرب العراقية الإيرانية دامت ثماني سنين، ووافق كل من العراق وإيران على قرار مجلس الأمن الدولي بوقف إطلاق النار، وذلك في عام 1988. وخلال هذه الحرب الظالمة تمكن كلا النظامين العراقي والإيراني بتصفية معارضيهما في الداخل، وضرب الحركة التحررية الكردية في كل من كردستان إيران والعراق. وبهذا دخلت القضية الكردية مرحلة جديدة في اللعبة الدولية على المستويات العراقية والأقليمية والدولية.

العوامل الداخلية والخارجية لتدويل القضية الكردية نموذج كردستان العراق

من الصعب تحديد جميع العوامل الداخلية والخارجية في بحث مقتضب كهذا الذي بين أيدينا لعموم كردستان والتي تحكمها، إن صح القول، العلاقات الإستعمارية ضمن حدود الدول السورية

والتركية والإيرانية والعراقية. لذلك نركز هنا على كردستان العراق بإعتبارها قضية الساعة وما لها من دور محوري في القضية العراقية تحرير /احتلال القوات الأمريكية للعراق. وعليه يمكن الإشارة باختصار إلى أهم العوامل العراقية والأقليمية والدولية المؤثرة في تدويل القضية الكردية، وذلك بالشكل الآتي:

- دعم المجتمع الدولي للنظام العراقي سياسيا ودوليا أثناء الحرب العراقية الإيرانية مما جعله كبرميل من البارود لا يحتمل إستيعاب المعادلة العسكرية وحجم القضية الكردستانية ونظام العلاقات الدولية.

- البدء بعمليات الأنفال وشن حملة إبادة للشعب الكردي وخاصة بين أعوام 1987-1988، وقتل حوالي مئتي الف كردي وحرق حوالي أربع آلاف قرية كردستانية.

- إستخدام النظام العراقي للأسلحة الكيمياوية بحق المواطنين العراقيين، وخاصة في مدينة حلبجة الكردستانية في مارس عام 1988، وقتل حوالي خمسة آلاف كردي وجرح آلاف آخرين، مما أقنع المجتمع الدولي بعدوانية النظام البعثي العراقي وتهديده للأمن والسلم الدوليين في المنطقة.

- دعم جامعة الدول العربية والمؤتمر الإسلامي للسياسات العراقية الظالمة بحق الشعب الكردي في العراق، بما فيها إستخدام النظام العراق للسلاح الكيمياوي في حلبجة، مما جعل الكرد يشعر بخيبة أمل من هذه الدوائر القومية تحت واجهات دينية وأقليمية، وفقدان الأمل من هذه العقليات العاجزة عن الإعتراف بحق الآخرين في الحرية. وهذا ما شجع القيادات الكردستانية بضرورة التوجه إلى الساحة الدولية، وتكوين علاقات مع الغرب، لدعم القضية الكردية على أساس المصالح المشتركة.

- فشل الإتفاقيات الأمنية العراقية الإيرانية التركية الموقعة منذ عام 1978، بسبب الحرب العراقيةالإيرانية، ووقوف سوريا إلى الجانب الإيراني.

- تسفير أكثر من نصف مليون كري فيلي من العراق إلى إيران وتجريدهم من الجنسية العراقية. ومن المعروف أن الكرد الفيليين هم مسلمون شيعة، ويعتبرون خط الدفاع الأول للحركة التحررية الكردية بإعتبارهم كانوا من أكبر الأغنياء في العاصمة العراقية بغداد، وكانوا يسيطرون على الإقتصاد في العاصمة، إضافة إلى أن عددا كبيرا من الشخصيات الكردية من أصحاب النفوذ السياسي والفكري من الفيليين الشيعة، وكانوا يمولون الثورة الكردية بالفكر والعمل والمال. فتسفيرهم وتجريدهم من ممتلكاتهم وأموالهم كانت ضربة كبيرة للقضية الكردية. وتعرض هؤلاء الفيليون لمضايقات في إيران أيضا، إلى درجة أنه حُرم عليهم الزواج من فتيات إيرانيات وهذا مخالف لقواعد الشرع الإسلامي بتحريم الزواج بين المسلم والمسلمة. لكن جمهورية إيران الإسلامية بالمعنى الكبير للكلمة آثرت المصلحة القومية الفارسية على الشرع الإسلامي. وطبيعي كان لهذا العمل صداه في المستوى الدولي. حيث نجح

الكرد الفيليون من تنظيم أنفسهم، والتحرك بوعي على جميع المستويات الوطنية والدولية، ونجحوا نسبيا في إيصال صوتهم إلى بعض مراكز صنع القرار العالمي.

- غزو القوات العراقية لدولة الكويت واحتلالها وتهديد المصالح الدولية في عام 1990.

- هزيمة العراق أمام قوات الحلفاء إثر عاصفة الصحراء، أيقظت الوعي الإجتماعي لدى الشعب العراقي عربا وكردا وأقليات.

- الإنتفاضة الكردستانية في كردستان العراق في آذار1991، والإنتفاضة العراقية في الجنوب، أعطت للجماهير الكردستانية والعربية ثقة بالنفس، وأعطت المجتمع الدولي قناعة بضرورة التغيير في العراق من قبل الشعب العراقي نفسه لكي تعطي شرعية ديمقراطية للحالة الراهنة.

تحرير الكويت، وشمولية إنتفاضة مارس 1991 رسخت الممارسات العدوانية في عقلية حاكم العراق، فشن حرب إبادة شاملة ضد الشعب الكردي في كردستان وضد الشيعة في الجنوب، مما اقنع المعارضة العراقية والمجتمع الدولي بأهمية إستخدام الورقة العراقية لترسيخ النفوذ الأمريكي والغربي، وضرورة إيجاد حل لقضايا منطقة الشرق الأوسط، ومنها القضيتان الفلسطينية والكردية في إطار المعادلة الدولية بمصالح الكبار في العالم.

- الصحوة الكردية العارمة بدأت من خلال إنتفاضة الجماهير الكردستانية، والتي مكنت التنظيمات الكردستانية المتمثلة بالجبهة الكردستانية العراقية الكسولة حينذاك، من إعادة تنظيم نفسها وتنظيم الجماهير. ووافقت قيادة الجبهة بإرسال وفد رفيع المستوى إلى بغداد، تضمن السادة نيجيرفان بارزاني، سامي عبد الرحمن، رسول مامند، برئاسة جلال الطالباني، وتبادلوا القبلات مع دكتاتور العراق، مما خلق خيبة أمل لدى الأطراف الشعبية والدولية بعدم قدرة القيادات الكردستانية مواجهة التطورات الداخلية والاقليمية والدولية بتلك السرعة. ولكن من ناحية أخرى إستفاد الكرد من ذلك اللقاء الذي فشل كليا، وذلك بإعطاء حجة أخرى للنظامين الأقليمي والدولي بإستحالة التفاهم مع نظام صدام حسين حتى بعد هزيمته العسكرية والسياسية في الكويت.

- تشكيل منطقة آمنة في كردستان العراق "الملاذ الآمن Safe Haven " شمال خط العرض 36 بقرار من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

- قرار مجلس الأمن المرقم 688 في 5 نيسان/أبريل عام 1991 عزز الموقف الكردي دوليا وأخذ القضية الكردية في كردستان العراق إلى الساحة الدولية من أوسع ابوابها، حيث قضى القرار بوقف ملاحقة الكرد ووضع حد لقمعهم، وضرورة تسهيل إمدادهم بالمعونة الإنسانية.

- قرار مجلس الأمن الدولي المرقم 986 في 14 نيسان/أبريل عام 1996 دعم القضية الكردية من الناحيتين الإقتصادية والمالية للتحرك على مستويات عديدة، حيث أصبحت للكرد حصة من مبيعات النفط العراقي بنسبة 13٪.

- نجحت المنظمات الكردستانية بتشكيل إدارة محلية عام 1991 وذلك بعد حصار النظام العراقي على كردستان العراق، وسحب الإدارات المحلية والمؤسسات القانونية وعدم صرف الرواتب لموظفي الدولة. وبعد ذلك بسنة وتحديدا في 2 أيار 1992 اجريت الإنتخابات البرلمانية وتشكيل حكومة كردستانية برعاية المنظمات الإنسانية الأوربية ولجان بعض البرلمانات الغربية، مما أضفى نوع من الشرعية الدولية والدعم السياسي والإنساني من الغرب على الحكم في كردستان.

- سماح الولايات المتحدة والدول الأوربية بمرور آلاف شاحنات النفط العراقية إلى تركيا عبر نقطة كمارك إبراهيم الخليل، وبموافقة الأمم المتحدة ضمنيا، رغم قرار منع تصدير النفط خارج إطار الحدود المقررة من قبل مجلس الأمن. وقد أوردت عائدات الكمارك إلى الخزينة الكردية ملايين الدولارات مما عزز الإقتصاد الكردي بالتحرك الدبلوماسي والإعلامي ، وتكثيف الإتصالات الدولية، والتعامل مع اللجان العالمية ومؤسسات الدفاع عن حقوق الإنسان، وحل مشاكل المواطنين المتواجدين ضمن حدود المناطق الكردية المحررة، والتعامل التجاري المكثف مع تركيا وسوريا وإيران، وإشباع الحاجيات المادية للمواطنين لكسب ثقتهم بالحكومة الكردستانية الأقليمية المنتخبة.

- شجع التعاطف الدولي الكبير والحملات الإعلامية الغربية لصالح الكرد، المهاجرين الكرد بالعودة إلى ديارهم في المناطق الآمنة، كما شجعهم على تنظيم انفسهم بضرورة الخروج من المأزق النفسي والسياسي والإقتصادي، خاصة بعد الحصار الدولي على العراق، والحصار العراقي على كردستان العراق.

- دخول التنظيم الكردستاني لكرد كردستان تركيا (ب ك ك) في المعادلة الدولية بدعم من الأنظمة العراقية والسورية والإيرانية، وخاصة بعد تدخله في كردستان العراق، وشن هجمات عسكرية على قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني تارة ، وقوات الإتحاد الوطني الكردستاني تارة أخرى.

- تدخل القوات التركية في الأراضي العراقية لضرب مواقع (ب ك ك) في المناطق الجبلية الكردستانية، مما أحدث قلقلا عراقيا ودوليا. وفي هذا نجح الكرد العراقيون أن يلعبوا على هذا الوتر بالتفاهم أحيانا مع الأتراك لإضعاف قوة (ب ك ك).

- تنشيط الأدوار التركية والسورية والإيرانية في اللعبة، بأسم "مشروع دمشق" وإزدياد المخاوف الأمريكية من تشكيل جبهة إيرانية سورية عراقية. ودخول هذه الدول في نشاطات الأحزاب الكردستانية وتعميق الخلافات بينها وتمويلها بالسلاح والقوة العسكرية والمعلوماتية، لضرب بعضها البعض، مستهدفة بذلك إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بعدم جدوى التعاون مع القيادات الكردية. لكن الكرد إقتربوا من الولايات المتحدة ، وأبدوا رغبتهم في التعاون لإفشال هذه المؤامرات، بالتنسيق مع الغرب من أجل إستقرار المنطقة.

- إتفاقية التعاون العسكري التركي الإسرائيلي ساعدت بعض الأطراف الكردستانية بضرورة الدخول في المعادلة سياسيا وعسكريا، وذلك بالتعاون مع الأطراف العربية والتركية والفارسية والغربية.

- عدم معاداة المنظمات الكردستانية العراقية للتعاون التركي الإسرائيلي، رغم مشاركة إسرائيل المباشرة في خطف رئيس حزب (PKK) لصالح تركيا. كما نجح كرد كردستان العراق في كسب ود إسرائيل وما يتعرض له من قبل النظام البعثي العراقي. وسمح الكرد لليهود الذين هاجروا من كردستان إلى إسرائيل عام 1948 بزيارة المناطق والقرى التي كانوا يسكنونها قبل الهجرة، لغرض السياحة.

- العلاقات الكردية في كردستان العراق مع الدول المحيطة بها أقنعت المجتمع الدولي بقدرة الكرد على التعامل مع دول الجوار.

- نجاح المنظمات الكردستانية بالإبتعاد عن المنظمات الإرهابية الدولية، وذلك بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية بتصفية الخلايا الإرهابية الإسلاموية المتعاونة مع تنظيم القاعدة في المناطة الجبلية النائية على الحدود العراقية الإيرانية. وتمكن الجانبان الكردي والأمريكي بتبادل المعلومات في هذا المجال بالقضاء على تلك الخلايا التي كانت تتضمن عناصر كردية وعربية وأفغانية. وتمكنت القوات الكردية وضع يدها على كميات كبيرة من السلاح التي تسلمتها هذه العناصر من إيران، كما إعترف بعض الأسرى بالعلاقات الموجودة بين هذه الجماعات والنظامين العراقي والإيراني، مما ساعدت الولايات المتحدة أن تتدخل عسكريا في المنطقة لتصفية جيوب المقاومة هناك.

- اهمية عامل الإستقرار بشكل يؤدي إلى التوازن الأقليمي بين العرب والكرد وإسرائيل والدول الأخرى في المنطقة، لأنه يمكن للورقة الكردستانية أن تكون عامل إستقرار وتوازن في حالة إيجاد حل سلمي عادل وشامل للقضية الكردية في إطار نظام العلاقات الدولية.

- إتفاقية واشنطن التي سميت ب "إتفاقية المصالحة والسلام" في 17 أيلول/ سبتمبر عام 1998 والموقعة من قبل السادة مسعود البارزاني وجلال الطالباني وديفيد ويلش مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت آنذاك. وتضمن الإتفاق إدانة الإقتتال الداخلي، وإقامة حكومة اقليمية موحدة على أساس نتائج إنتخابات عام 1992 وتوحيد الإدارتين في كردستان وإسترجاع الإيرادات الكمركية إلى خزينة حكومة الأقليم، وتهيئة الأجواء لإجراء إنتخابات حرة في منتصف عام 1999.

- مؤتمر الإشتراكية الدولية الحادي والعشرين في 8-10 نوفمبر عام 1999 والذي حضره ممثلون من الحزبين الكردستانيين الديمقراطي والوطني، أكد بأن السلام الحقيقي لن يتحقق في الشرق الأوسط بدون إيجاد حل عادل للقضية الكردية.

- إجتماع المعارضة العراقية في نيويورك في 29 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1999. حيث ساهم الموقف الأمريكي في بلورة المشروع الفدرالي الديمقراطي التعددي البرلماني للعراق بموافقة المعارضة العراقية. وهذا التطور أقنع قيادتي الأخوين البارزاني والطالباني بضرورة حل خلافاتهما، وتوحيد خطابهما السياسي على جميع المستويات.

- أكد مؤتمر المعارضة العراقية المنعقد في لندن بين 14-17 ديسمبر عام 2002 تحت رعاية أمريكية، وتحت شعار (عراق ما بعد صدام) ، على الهدف المنشود، عراق ديمقراطي تعددي برلماني فدرالي، مما عزز من دور الكرد في المعادلة العراقية والأقليمية. وتمكنت القيادات الكردستانية من تنسيق مواقفها بوضوح، والتأثير في المؤتمر بشكل إيجابي لمصلحة الشعب العراقي ككل.

- تأكيد المعارضة العراقية في مؤتمر صلاح الدين المنعقد في مارس من هذا العام (2003) وبحضور زلماي زادة ممثل الرئيس الأمريكي جورج بوش الإبن ، على قرارات مؤتمر لندن، وضرورة إستفتاء شعبي على الدستور الفدرالي المقترح للعراق الديمقراطي التعددي البرلماني الفدرالي.

- نجاح القيادات الكردية بكسب ود أمريكا، والتعاون معها وبالتنسيق مع أطراف المعارضة العراقية، وذلك بإسقاط النظام البعثي العراقي. كما نجحت أمريكا بالضغط على الحكومة التركية بعدم التدخل العسكري في كردستان العراق، خاصة بعد الإصرار الكردي بمقاومة أي تدخل عسكري تركي محتمل.

- تحول تحرير العراق إلى عملية إحتلال، وإستقبال الكرد للحاكم العسكري الأمريكي غارنر في أربيل والحاكم المدني الأمريكي بريمر في بغداد، وإعطاء دور للأقليات القومية وخاصة التركمان لتهدئة المخاوف التركية، وتثبيت الدور الكردي بإحتفاظهم بسلاحهم لمواجهة حالة الطوارئ.

الأنفال : نتاج آيديولوجيا البعث و نظامه الشمولي

د.جبار قادر

تعتبر حملات الأنفال التي نفذها نظام صدام حسين بحق المدنيين الكرد خلال الفترة (من 23 شباط 1988 و حتى السادس من أيلول من نفس العام) واحدة من أكثر صفحات القمع الحكومي قسوة و عنفا في تأريخ النظام البعثي في العراق . فأثناء هذه الحملات و نتيجة لها قتل عشرات الآلاف من السكان المدنيين بعد أن نهبت ممتلكاتهم و دمرت آلاف القرى الكردية . شاركت في تنفيذ هذه المسالخ البشرية فيالق الجيش النظامي (الفيلقان الأول والخامس) و القوات الخاصة و الحرس الجمهوري والقوة الجوية العراقية و صنوف الحرب الكيمياوية و البيولوجية و كذلك المليشيات الحزبية (الجيش الشعبي) و قوات المرتزقة من الكرد (أفواج الدفاع الوطني و المفارز الخاصة) و دوائر الأمن و المخابرات و الاستخبارات العسكرية . كما سخر النظام جميع مؤسسات الدولة المدنية للمساعدة في تنفيذ تلك الحملات بدءا بدوائر الاحصاء (التي حددت الجماعة المستهدفة من خلال إحصاء عام 1987) و إنتهاء بدوائر الأحوال المدنية و الطابو و المرور و الزراعة و المواصلات و غيرها.

لم تعد التفاصيل المتعلقة بالأنفال ومراحلها الثماني و المناطق الجغرافية التي شملتها و خطط واسلوب تنفيذها مخفية على الكثيرين من المهتمين والمتابعين . ويعود الفضل في ذلك الى التحقيقات الواسعة التي قامت بها منظمة (رصد حقوق الانسان) بعد إنتفاضة آذار عام 1991 في كوردستان العراق، حيث دققت في جرائم الأنفال و آثارها في كوردستان و إستمعت الى شهادات الناجين من جحيمها و عدد كبير من أقارب الضحايا و ذويهم. كما أنها درست و على مدى ثمانية عشر شهرا أطنانا من الوثائق الرسمية الحكومية المتعلقة بالأنفال التي وقعت بأيدي المنتفضين . أصدرت المنظمة بعد تحقيقاتها تلك دراسة موثقة باللغة الأنجليزية تحت عنوان (Genocide In Iraq - The Anfal Campaign)

Against The Kurds , Middle East Watch , A division of Human Rights Watch, New York 1993 و ترجم الكتاب الى العربية و الكردية أيضا) .
وجاء إختيار المنظمة للعنوان (الإبادة الجماعية في العراق - حملة الأنفال ضد الكرد) لتشير بذلك الى طبيعة حملات الأنفال و تعتبرها عملا من أعمال الجينوسايد . وتظهر دراسة الوثائق الرسمية الحكومية تلك الآليات البيروقراطية التي إعتمدتها دوائر الدولة المختلفة و التنسيق الدقيق فيما بينها لتحديد دور كل منها في حملات الأنفال . كما تشير و بوضوح الى الوسائل التي إعتمدتها الحكومة العراقية للتخطيط و لتنفيذ تلك الحملات والأساليب التي لجأت إليها الأجهزة الأمنية والمخابراتية و الأجهزة الخاصة للحفاظ على سريتها وإخفاء كل ما يتعلق بها عن أنظار الرأي العام العراقي و العالمي. وتؤكد هذه الدراسة كما الدراسات المكملة الأخرى التي أجريت خلال العقد الماضي، أن حملات الأنفال لم تختلف عن غيرها من عمليات الإبادة الجماعية التي جرت في التاريخ و بخاصة في القرن العشرين، من حيث التخطيط لها و مراحل تنفيذها: تحديد الجماعة/ الهدف و طريقة جمعهم و من ثم التخلص منهم و محو آثارهم . من هنا فإن الحديث عن الأنفال هو حديث عن عملية إبادة جماعية بكل المعايير.

تتطابق فقرات المادة الثانية من مواد (معاهدة منع عمليات الإبادة الجماعية و معاقبة مرتكبيها) و التي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في 9 كانون الأول عام 1948 بطريقة كبيرة مع ما قامت به حكومة البعث أثناء حملات الأنفال وكأنها كانت تسعى تماما لتنفيذ جميع الجرائم الواردة في تلك المادة . فقد أشارت المادة الثانية في المعاهدة المشار اليها الى أن (الإبادة الجماعية تشمل جميع الإجراءات التالية التي تنفذ بهدف الإبادة الكاملة أو الجزئية لجماعة قومية، اثنية، عرقية أو دينية:: 1. قتل أفراد الجماعة. 2. إلحاق الأضرار الجسدية أو النفسية الخطيرة بأعضاء تلك الجماعة. 3. وضع أفراد الجماعة و عن قصد في ظل ظروف تؤدي الى موت كل أفرادها أو جزء منها. 4. منع التكاثر بين أفراد الجماعة 5. تفريق الأطفال عن ذويهم و نقلهم الى العيش في وسط مجموعة بشرية أخرى). لقد قامت حكومة البعث و مؤسساتها الرسمية و أجهزتها العسكرية و الأمنية بجميع الجرائم التي وردت في المادة المذكورة أعلاه ضد الكرد خلال حملات الأنفال . ومن هنا جاءت توصيفات جمعيات حقوق الانسان و منظمات مناهضة الجينوسايد لحملات الأنفال التي قامت بها الحكومة العراقية عام 1988 كعمل من أعمال الإبادة الجماعية. كما ان منهج تنفيذ الأنفال جاء مطابقا مع المخطط الذي اعتمد في عمليات الجينوسايد الأخرى في القرن العشرين و التي وضع تفصيلاتها راول هيلبيرك في كتابه (Raul Hilberg, The Destruction of The European Jews, New York.1985). لقد ألقت دراسة منظمة (رصد حقوق الأنسان) الأضواء على هذه الجوانب من حملات الأنفال، لذلك لا أرى ضرورة في

التفصيل فيها و أحيل كل من يريد الأطلاع على المزيد من التفاصيل بشأنها الى تلك الدراسة .

في ظل أجواء العنف السائدة في العراق الآن ووجود افكار و تيارات شمولية يمكن أن تعيد إنتاج عمليات الإبادة الجماعية تحت مسميات و شعارات مختلفة عن تلك التي إختفى وراءها البعث، وجب علينا إيلاء إهتمام أكبر بالأفكار و الايديولوجيات التي أفرزت الأنفال و حملات الإبادة الجماعية الأخرى التي قام بها البعث. وستبقى بعض الأسئلة تفرض نفسها على الدوام : كيف جرى تنفيذ مثل تلك الجريمة الكبرى في أواخر القرن العشرين؟. ترى ما هي الأفكار التي دفعت بفئة من المتسلطين للتنكيل بإخوان لهم في الوطن و الانسانية بكل هذه الهمجية؟. ماهي الآليات التي جرى تجريبها لايصال المجتمع العراقي الى تلك الحالة من الخوف و الفزع والعجز الذي لم يعد بالامكان معه أن يبدي اي إعتراض أو رد فعل إزاء تلك الجريمة التي إقترفها البعث بحق المدنيين الكرد؟. و أخيرا و ليس آخرا ، هل هناك إمكانية لتكرار الأنفالات ولو بصيغ أخرى و في مناطق أخرى من العراق؟

سيحتاج المجتمع العراقي سنينا طويلة لكي يتعافى و يوفر الفرص الضرورية لإجراء الدراسات و التدقيقات الموضوعية لتكوين صورة واضحة عما قام به البعث خلال ثلاثة عقود ونصف من حكمه الدموي بحق العراقيين . يبدو ان مثل هذا الأمرا لا يمكن أن يجري في ظل الظروف الحالية . ففي ظل الصراع من أجل البقاء لا يستطيع الانسان أن يهتم كثيرا بما جرى بل يركز على الحدث اليومي الساخن . ولكن من الجائز بعد مرور فترة من الزمن وتهدئة المشاعر و إستقرار الأوضاع النفسية و السياسية والاجتماعية و الاقتصادية سيكون العراقي بحاجة الى معرفة حقيقة الذي جرى و كيف و لماذا جرى ؟. حتى الكرد ورغم مرور أكثر من عقد من الزمن على تحرر جزء مهم منهم من تسلط النظام لم يتمكنوا من إجراء تدقيقات موسعة لما جرى وذلك بسبب سيف صدام المسلط على رقابهم و صراعاتهم الداخلية و إمكانيات تكرار ما جرى على يد نظام المقابر الجماعية في بغداد حتى زواله النهائي في التاسع من نيسان 2003 .

تمتد أسباب الأنفال و غيرها من عمليات الإبادة الجماعية التي جرت في العراق الى طبيعة الدولة العراقية و عناصر تشكيلها و أزمة الهوية التي عانت منها و مازالت و فشلها الذريع في خلق أمة و هوية وحلم و ثقافة .....الخ عراقية موحدة . لم ينل هذا الموضوع نصيبه من الدراسة الموضوعية . ويبدو لي أن مثل هذه الدراسة لن تتسم بأية موضوعية او مصداقية إذا لم تأخذ بنظر الاعتبار و قبل كل شيء الفروقات و الهويات المختلفة للعراقيين والاعتراف بها وصولا الى وضع الأسس السليمة لخلق المشتركات إذا أريد للعراقيين أن يتعايشوا مع بعض ويبقوا موحدين .

البعث كنظام شمولي لأقلية تؤمن بالقوة و العنف من أجل الهيمنة المطلقة على السلطة و الثروة وكفئة متآمرة و بعيدة عن رغبات الأكثرية

الساحقة من سكان العراق، كان لابد أن يلجأ الى اشد وسائل التنكيل و الفتك لفرض منظومة الخوف والرعب على المجتمع العراقي للاستمرار في الحكم والتصرف اللاعقلاني بالثروة . لقد كان جو الرعب والارهاب و بث الشك و الريبة و عدم الثقة بين الناس الى حد الهوس وراء خلق مجتمع مريض ومنغلق على نفسه ، وهي بيئة مثالية لتنفيذ أية عملية إبادة جماعية دون أن يستطيع المجتمع من إبداء أية مقاومة أو ردود فعل مؤثرة .

لم تكن الدولة قبل مجيء البعث الى السلطة تتدخل كثيرا في شؤون الناس ، و لكن مع حكم البعث توسعت مهامها بطريقة مفزعة . فبعد سيطرتها الكاملة على المجتمع و إبتلاعها لجميع زوايا المجتمع المدني ، أخذت تتدخل في أدق خصوصيات الناس و غطت من خلال شبكة دوائرها الأمنية و الحزبية حتى الزوايا البعيدة و المنسية من الصحاري و الجبال و لم يعد بالامكان البقاء خارج دائرة مراقبة و تدخل الدولة. كما وفرت الامكانيات المالية و العسكرية الهائلة و تنظيمات البعث و الأمن و المخابرات و المرتزقة و (المنظمات المهنية و الجماهيرية!!) فضلا عن التقنية الحديثة كل العوامل التي سهلت مهمة البعث في إخضاع المجتمع لسيطرته الكاملة . مع كل ذلك و مع هذه الهيمنة المطلقة على المجتمع العراقي كان البعث لا يزال يشعر بضعف سطوته على الكرد بل هناك من يتمرد عليه و يحمل السلاح بوجهه من بين هؤلاء. ولم يكن بإمكان البعث و بخاصة بعد سنوات الحرب الطويلة مع إيران و بعد إمتلاكه للأسلحة الكيمياوية أن يتعايش مع هذه الحالة. فكانت الأنفال رسالة النظام للجميع تخيرهم بين خيارين لا ثالث لهما إما الخضوع التام للبعث أو الموت الزؤام على يديه.

و شكلت ثقافة العنف التي سادت الساحة السياسية العراقية منذ الخمسينيات و ساهمت فيها كل الأطراف السياسية و لو بدرجات متفاوتة عاملا إضافيا لتبرير اللجوء الى العنف و القوة لحسم الصراعات. لقد تبنى البعث عمليات الاغتيال و المؤامرات و العنف في العمل السياسي حتى قبل وصوله الى السلطة. ولم يقتصر إستخدامه للعنف ضد المنافسين السياسيين فقط بل جرى إعتماده حتى في حسم الصراعات الداخلية في صفوف أعضاء الحزب أنفسهم.

كان من الصعب جدا تنفيذ عملية إبادة جماعية بحجم الأنفال لو لم تكن الدولة تعتنق آيديولوجية تبيح ذلك . لقد أكدت شعارات البعث وأوهامه على كونه الحزب الطليعي للأمة العربية والمعبر الحقيقي عن طموحاتها و أهدافها القومية ولذلك يتحمل هو دون غيره مهمة تحقيق وحدتها وإيصال رسالتها الخالدة الى الدنيا. و كانت الوحدة العربية في خطاب البعث مقرونة أيضا بالحرية وتحقيق نوع من الاشتراكية العربية. وقد تجسد كل ذلك في شعارات البعث الرئيسة (الوحدة و الحرية والاشتراكية) و (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). كما ان إستغلال البعث للقضية الفلسطينية

في خطابه السياسي و رفعه لشعارات مقارعة الأمبريالية و مؤامراتها و تحرير الثروة الوطنية والقومية غيرها من المفردات التي كانت ترددها الماكنة الدعائية البعثية خلال العقود الماضية ، يفرض توفير المبررات لكل ما يقوم به الحزب على طريق تنفيذ تلك الشعارات و الأحلام و الفنطازيات الكبيرة. كما إفترضت هذه الحالة إزالة أية عقبة على هذا الطريق. آمن البعث بأن تحقيق هذه الأوهام يبرر قيام نظامه بالقضاء على أية فئة أو مجموعة بشرية، قومية كانت أو مذهبية أو حتى سياسية، يمكن وصمها بأنها تشكل عائقا على طريق تنفيذ تلك الشعارات و تهدد (الأمن القومي العربي) الذي توسع البعث في مفهومه الى مديات غير محدودة. وبعد قمعه للقوى السياسية العراقية وجد البعث في الحركة الكردية الجهة التي يجب أن يحملها المسؤولية في تعثر خططه و برامجه و عدم تحقق نبوءاته وفنطازياته الكبيرة . ولم يختلف خطاب البعث في هذا المجال عن خطاب الحركات و الأنظمة المماثلة التي نفذت عمليات الإبادة الجماعية في القرن العشرين . و شكلت إتهامات حزب البعث للحركة القومية الكردية الأطار الأيديولوجي لطريقة التعامل معها، فهذه الحركة شكلت وفق توصيفات البعث (خطرا على الأمة العربية و أمنها القومي، وخنجرا مسموما في خاصرة العراق، و وسيلة لأشغال الجيش العراقي عن أداء واجباته القومية على جبهة الصراع العربي الأسرائيلي، بل ومحاولة لأقامة إسرائيل ثانية في شمال الوطن الحبيب و جيب عميل مرة و إدلاء خيانة مرة أخرى... الخ) والمعروفة لدى الرأي العام العراقي و العربي و التي مازالت ترددها بعض الأوساط السياسية المتبنية للخطاب البعثي ولو بمسميات أخرى. من هذا المنطلق كان لا بد من التعامل مع الحركة الكردية وكل من يتعاطف معها دون رحمة . كانت هذه الاتهامات بالنسبة للعديد من العراقيين و العرب كافية لتبرير إجراءات الحكومة ضد الكرد أو السكوت عنها و عدم الاكتراث بما كان يجري في كوردستان . ومع تنامي ظاهرة العنف و القسوة و توسع البعث في تحديد مفهوم أفراد الحركة ، إذ لم يعد المقاتلون وأعضاء الأحزاب و التجمعات السياسية الكوردستانية فقط مستهدفين بإجراءات البعث القمعية، بل شملت كذلك كل من كان يتهم بالتعاون أو التعاطف أو حتى العيش في المناطق التي كانت تخضع لسيطرة قوات الأنصار أو تلك التي لا تشعر الحكومة بأنها تتحكم بها كليا . و أصبح من الجائز في عرف البعث أن يجري التخلص من هؤلاء جميعا. ويشير العريف (المارشال!) علي كيمياوي الى هذا الموضوع بوضوح في إجتماع سجلت وقائعه على شريط وقع بأيدي المنتفضين في آذار عام 1991، إذ يقول ما معناه: لم يكن جميع الذين رحلناهم أو تخلصنا منهم من (المخربين) بل كانوا يعيشون في مناطق كان لهولاء نفوذ فيها. و على أساس القاعدة البعثية في فرز الأعداء من الأصدقاء (خندق واحد أم خندقان، أو من ليس منا فهو ضدنا) فقد كانت الخيارات محدودة أمام الكرد . فهم إما مع الحركة القومية

الكردية أو مع البعث .أما المنطقة الرمادية فكانت مليئة بالشك و المخاطر و المنغصات. و بإستثناء عدد صغير من الأفاقين و الوصوليين و العلوج الكرد كان الجميع موضع الشك الدائم و المراقبة الشديدة.

ومن هنا بدأت عملية إخضاع الكرد بالقوة الغاشمة كما بدأ البعث يعبث بالجغرافيا الكوردستانية. وتركز معظم خططه على تغيير التركيبة السكانية في كركوك و المناطق الكوردستانية الأخرى التي تعرضت الى سياسات التعريب و التطهير العرقي . فقد قام البعث بتهجير و ترحيل السكان الكرد من هذه المناطق و جلب الآلاف من العرب الوافدين لاسكانهم فيها فضلا عن فصل الوحدات الادارية التابعة لها و ربطها بمحافظات أخرى بهدف خلق عوائق أمام بقاء الكرد كمجموعة بشرية متميزة تعيش في منطقة جغرافية محددة. و كل هذا بهدف قطع الطريق على الكرد في تقرير مصيرهم في المستقبل. وقد واجهت مشاريع البعث على هذا الصعيد مقاومة شرسة من لدن الكرد.

لقد كان مجيء البعث الى السلطة متزامنا مع حالة الانكسار التي نجمت عن هزيمة الأنظمة العربية في حرب حزيران 1967 . وعمل البعث جاهدا أن يقنع الناس بأنه سيخرج الأمة العربية من حالة الانكسار و الهزيمة . وكان شعار البعث المحبب و المبرر لقفزه الى دست الحكم انه جاء كرد ثوري على حالة الهزيمة و بأنه سيعمل على إزالة اثار النكسة. حاولت هذه الأيديولوجيا أن تتحول الى إطار فكري لتفسير أسباب النكسة و رسم صورة فنطازية عن الماضي للعبور الى مستقبل زاهٍ يزيل كابوس الواقع المتردي الحالي. وشكلت حالة الهزيمة خزينا فكريا للبعث في حملاته لقمع و إبادة أعدائه. ولم يكن البعث في موقفه هذا و استغلاله للانكسار النفسي و الأوضاع المتردية في البلدان العربية مثالا إستثنائيا، بل سبقته في ذلك أحزاب و حركات سياسية شمولية أخرى، إستغلت ظروف الهزيمة العسكرية و الأزمات الاقتصادية لتقفز الى السلطة وتوزع الوعود بأنها جاءت لتصلح الأوضاع و تحرر الناس من حالة الهزيمة و الانكسار. وكان البعث بحاجة الى كبش فداء ليحمله أسباب الهزيمة والأوضاع البائسة. ومن هذا المنطلق بدأ بسياسة تصفية أعدائه السياسيين الذين حملهم أسباب الهزيمة . وتوسع في ذلك ليشمل كل من لم يوافق على شموليته. لقد حاول البعث أن يبيع أوهامه وفنطازياته الى المجتمع كحقائق واقعية و قانونية على الأرض. وبدأت عملية تلميع صورة الزعيم واستخدمت جميع الأساطير و الأوهام لايهام الناس بأن صدام هو منقذ الأمة من الحالة التي تعاني منها.

ومن هذا المنطلق بدأت أيضا محاولة البعث العبث بالتاريخ لاعطاء الشرعية لنفسه للسيادة على الآخرين. وقد قام البعث بهذه العملية من خلال كذبة كبرى سميت بـ(إعادة كتابة التاريخ). وكان البعث مقلدا في هذا الأمر أيضا لأن العبث بالتأريخ كان سمة مشتركة بين جميع الأنظمة و الحركات الشمولية. البعث كايديولوجيا قومية متطرفة كان

يبحث على الدوام في التاريخ عما يبرر طروحاته وأوهامه و يصنف الأحداث التاريخية من خلال إنتقائية مخلة لدعم وجهة نظره. وكان يحاول من خلال طروحاته أن يميز العرب عن الأمم الأخرى بطريقة عنصرية. وكان الهدف من ذلك كله إيهام الناس بأن مستقبل الأمة السعيد سيتحقق فقط في حالة الايمان بنظرية البعث و السير وراءه و الانصياع لرغبات قيادته الملهمة!. وتضمنت الأطروحة البعثية هذه بطبيعة الحال قمع أية محاولة تعيق هذه الحركة و بقسوة لأن تحقيق الأهداف الكبرى، بمنطق البعث و جميع الحركات التوتاليتارية، يبرر القيام بأي شيء حتى لو كان مذابح أو جرائم كبرى بحق أولئك الذين يشكلون خطرا على آمال و طموحات الملايين!.

ركزت آيديولوجيا البعث على التاريخ و أحداثه الى حد الهوس. وكان تمسك البعث بالماضي التليد للأمة العربية و تصنيفه المخل للأحداث التاريخية نوعا من الهروب من الواقع الرديء بحجة عدم القبول به . حالة الواقع لم تكن وفق منظور البعث نتاجا لذلك التاريخ الذي أعاد البعث كتابته و كان يرغب في فرضه على المجتمع . فهو كان يريد تغيير مسار التاريخ و وضعه على السكة التي تتفق مع طروحاته و تحليلاته و رؤيته للحياة و العالم . لذلك حاول البعث هدم الواقع بجميع ما بناه من أجل فرض نموذج سياسي إجتماعي من نمط آخر على المجتمع العراقي أولا وصولا الى فرضه على جميع المجتمعات العربية .

وهكذا عندما تستحوذ فئة صغيرة على سلطة مطلقة و تهمين على ثروات البلاد و لديها القوة التي تمكنها من السيطرة على المجتمع و تعتنق آيديولوجية شمولية تصبح معها الابادة الجماعية لفئة من السكان وسيلة لتحقيق الأهداف. توفرت هذه العناصر جميعها في ظل البعث. وشكلت الحرب القاسية مع إيران و مهمة (الحفاظ على الأمن الوطني بوجه الخطر الخارجي) و تمرد الكرد على النظام غطاء مثاليا للقيام بحملات الأنفال . وعندما شعر البعث كأية حركة شمولية بأن حكمها في خطر او أن هناك فئات تقف حجر عثرة على طريق بقائها في السلطة و إستحواذها على الثروة أو توسيع سلطاتها لم تتوان من اللجوء الى عمليات الإبادة الجماعية . وكانت الأنفال إحدى أخطر حلقاتها .

الأنظمة و الحركات السياسية القادرة على القيام بعمليات القتل الجماعي هي تلك التي تؤمن بالقوة والعنف كوسائل لتحقيق أهدافها. وقلما وجد حزب يماثل البعث في تبني العنف و تقديس القوة والقسوة في الممارسة السياسية. ويزخر تاريخ البعث بعمليات العنف و الاغتيالات السياسية و البلطجة. وتلجأ الأحزاب و الحركات التي تشبه البعث في حالات الاحتقان السياسي و الأزمات الاقتصادية والتوتر الاجتماعي الى القمع و الإبادة الجماعية للتخلص من اعدائها. رغم زوال حكم البعث إلا أن ثقافة القمع البعثية تلقي بظلالها القاتمة على الساحة السياسية العراقية. وهناك في عراق اليوم كم كبير من

الحركات و المجموعات السياسية و القومية والمذهبية التي تتبنى المفاهيم البعثية و تنحو قياداتها منحى شموليا و هي مؤهلة للقيام بعمليات القتل و الإبادة الجماعية، في حالة توافر الظروف و الامكانيات المطلوبة، ضد من تعتقد بأنهم يشكلون منافسين لها. وتساهم حالات الاحتقان السياسي و القومي والطائفي و غياب الأمن و السلطة المركزية و تأزم الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في تهيئة الأجواء المناسبة لتنامي شعبية الحركات و الأفكار المتطرفة و صعود نجم الزعماء المتهورين و المتطرفين. ومن الجدير بالذكر أن زوال الدولة المركزية و تمزق نسيج المجتمع العراقي على أيدي البعث و إنهيار منظومة القيم الاجتماعية و وجود حركات وقيادات ذات ميول شمولية واضحة، مؤشرات تثير مخاوف الناس وقلقهم على مستقبل العملية السياسية في البلاد.

و تفتقر الحكومة الحالية الى الصلاحيات والامكانيات اللازمة لادارة البلاد بكفاءة. كما ان وجود إدارة مدنية للاحتلال الى جانب قوات إحتلال ينتقص من هيبة و شرعية هذه الحكومة، الأمر الذي يدفع بالكثيرين الى التشكيك في الاجراءات التي تتخذها. ولا تستطيع أية حكومة في ظل مثل هذه الظروف ان تفرض هيبتها على الناس و تحد من عنف و تسلط المليشيات المسلحة و الحركات المتطرفة. وفي هذه الحالات بالذات تظهر حركات العنف وتتقدم على غيرها لأنها تختلق الأعداء وتشخصهم بسرعة. و تلجأ هذه الحركات الى أحداث التاريخ لتبرير وجودها و محاربة أعدائها و تحول ذلك الى جزء من خطابه السياسي. ويجري تحميل الأعداء عادة أسباب المآسي و الصعوبات التي يعاني منها الناس. الغريب أن لدى هذه القوى تأثيراً معنوياً في الناس لأنها تحول العواطف و الذكريات الأليمة الى نوع من الخطاب السياسي اللاعقلاني. ويردد جميع افراد هذه الحركة أو الجماعة نفس المفاهيم و التعبيرات و التحليلات لتفسير المشاكل وحلولها و يجري الدفاع عنها وفق آليات منها إنكار الحقائق أو تزييفها. ولكل مجموعة في ظل هذه الأوضاع أشياؤها الخاصة و أفكارها التي تقدسها وزعماؤها الذين تجلهم الى حد التقديس و شهداؤها الذين يعتبرون الأكرم و الأشجع بين جميع الشهداء. ويجري التركيز على تقديس هذه الأوهام و التمسك بها للحفاظ على وحدة الجماعة. وتلعب هذه الآراء والطروحات وظيفة كبيرة داخل الجماعة. و تظهر التجارب و تجربة العراق بالذات ان فاعلية الطروحات اللامنطقية على أنصار هذه الحركات والجماعات أكبر و أقوى من الأفكار و الطروحات العقلانية. و يبدو ان بساطة تلك الآراء و التحليلات تجعل منها أسهل على الفهم و النقل و الترديد بين أفراد الجماعة كما لا تأخذها الأطراف الأخرى على محمل الجد و يكون رد فعلها بطيئا إزاءها، الأمر الذي يسهل عملية إنتشارها و إعتناقها من قبل الناس وكأنها وقائع من الحياة. هناك إعتقاد خاطئ مفاده أن الأناس العاديين لا يدعمون أفكارا لا تستند الى الحقائق، ولكن التاريخ الانساني يثبت العكس

تماما، فقد إعتنقت مجتمعات بأسرها أفكارا وآيديولوجيات تقوم على أشد الأكاذيب و الأوهام بعدا عن الحقيقة، وجرت تعبئة الناس على أساسها للقيام بحملات الإبادة الجماعية ضد الأعداء المفترضين. وتحتل القوة و العنف عادة مكانة متميزة لدى أفراد هذه الجماعات لأن ممارستها تؤدي الى ترسيخ الوحدة الداخلية بين أفرادها. ومن خلال هذا التشكل الأيديولوجي يتقدم عاملا القوة و الأفكار الى المقدمة عندما يتجمع الأفراد وينغلقون على أنفسهم و تعمل بيئة العنف السلبية على توثيق إرتباطهم ووحدتهم.

و تختزن الذاكرة العراقية كما كبيرا من العنف والصراع الدموي بين التيارات السياسية المختلفة. وهناك في عراق اليوم جماعات يصعب حتى حصرها و هي مؤهلة كلها للقيام بالمجازر و عمليات الإبادة الجماعية بحق بعضها لولا وجود قوات الاحتلال. لذلك فإن فهم آلية تنفيذ حملات الأنفال و عمليات الإبادة الجماعية الأخرى في عراق البعث يبقى عملا مطلوبا.

جرى إعداد القتلة في ظل نظام البعث وفق عملية معقدة. فقد جرى إشراكهم في الطلائع والأشبال و لبسوا اليونيفورمات الخاصة التي ميزتهم عن الآخرين كما دربوا ومنذ سن مبكرة على إستخدام الأسلحة و مناظر القتل. كما جرى زرع أفكار فاشية و معادية للانسانية في أذهانهم. وشاركوا في المظاهرات و المهرجانات الصاخبة وإنخرطوا في صفوف الأجهزة الأمنية و القوات الخاصة و قوات الطوارئ و غيرها من الأجهزة القمعية. واستخدم معهم أسلوبي الثواب و العقاب. فخلال عملية الاعداد للقتل كان يجري التعامل مع الذين إنضموا الى الجماعة وفق أسلوبي: الأغراء و التهديد. إذ كان يجري تكريم الذين ينفذون الأوامر دون مناقشة و بدم بارد من خلال إغداق الهدايا والمكرمات عليهم، أما الذين كانوا يرفضون السير في طريق العنف و الجريمة فقد تعرضوا للتهديد والإرهاب بل حتى الاعدام. وكان المشرفون على إعداد القتلة يقسمون الناس جميعا الى فئتين: فئة صالحة و صاحبة رسالة يمثلونها هم و الذين يقفون معهم، وفئة أخرى تمثل الشر و كانت تصور دائما كفئة صغيرة يجب التخلص منها باسم الحفاظ على الوحدة الوطنية و مستقبل الأمة.

عمليات الإبادة الجماعية رديفة للحركات والأنظمة السياسية الشمولية. ويجري تنفيذ مثل هذه الجرائم دائما في ظل الأنظمة الدكتاتورية وتقوم بها الحركات و الجماعات المتطرفة. النظام الذي ينفذ الإبادة الجماعية هو نظام توتاليتاري يفرض قوانينه على المجتمع و يمتلك قوات عسكرية كبيرة و أجهزة أمن مرعبة يفرض من خلالها السيطرة المطلقة على الجميع . وكان نظام البعث في ظل نظام صدام حسين تجسيدا لهذا النظام التوتاليتاري. جرى إعداد الناس لعمليات الإبادة الجماعية عبر إخضاع المجتمع العراقي كليا لسيطرة البعث . وحتى مع عدم دعم فئات واسعة من الناس لحملات الإبادة الجماعية إلا أنهم لم يستطيعوا أن

يبدوا أية مقاومة بسبب حالة الفزع و الرعب التي كانت تسيطر على المجتمع . لذلك آثر الناس إختيار طريق السلامة و اللامبالاة و عدم الاهتمام بما يجري في كوردستان لكي لا يتعرضوا الى غضب السلطة . ومثل هذه الأجواء هي البيئة المثالية التي تنفذ فيها عمليات الإبادة الجماعية عادة .

و الإبادة الجماعية في نهاية الأمر هي سوء إستخدام للسلطة من قبل نخب سياسية أو عسكرية أو نظام سياسي. وهي شكل من أشكال السيطرة الاجتماعية و لكن في أشد نماذجها تطرفا و التي يمكن تنفيذها في ظل الدولة التوتاليتارية حصرا. لا ينفي هذا بطبيعة الحال حقيقة أن عمليات إبادة جماعية نفذت في ظل غياب السلطة المركزية كما جرى للسكان الأصليين في أمريكا. خلاصة القول ان عمليات الإبادة الجماعية هي ستراتيجية النظام التوتاليتاري الفريدة.

وفق هذه المواصفات كان نظام البعث نظاما للابادة و القبور الجماعية . بعد خروج النظام من حربه مع إيران غير مهزوم، الهزيمة في مفهوم البعث كانت مرادفة لزوال حكمه وكل ما عدا ذلك يعتبر نصرا مؤزرا، إلا أن الضائقة الاقتصادية و حالة الاحتقان السياسي دفعت بصدام للبحث عن كبش الفداء. فكان الكرد المدنيون (وفيما بعد دولة الكويت الصغيرة) الهدف الأسهل و الأضعف على طريق تكريس شمولية النظام البعثي المطلقة وإرسال رسالة تحذير الى المجتمع العراقي بأن الإبادة ستكون مصير كل من يفكر بالخروج على إرادة الزعيم و طروحاته.

يبقى التبرير الأيديولوجي لتنفيذ عملية الإبادة أمرا ضروريا. و التاريخ الانساني مليء بالأمثلة على ذلك. وليس بالضرورة أن يسبق خلق التبريرات عمليات الإبادة بل يمكن للنظام الشمولي أن يختلقها فيما بعد حتى بعد إنجاز المهمة. كما أن المجموعة المنفذة لعمليات الإبادة الجماعية لا تجد نفسها ملزمة لتبرير فعلتها أمام الآخرين إما إستهانة بهم أو خروجا على قيمهم. لم يجد البعث نفسه ملزما أن يقوم بتبرير قيامه بحملات الأنفال لسيطرته المطلقة على المجتمع العراقي وعدم تجرؤ احد على مساءلته. التبرير ضروري في حالات الإبادة الجماعية لكي لا يذهب الناس بعيدا عن النظام، لأنهم بطبعهم لا يميلون الى تبرير قتل و إبادة أبناء جنسهم.

هناك من تبرع لتبرير حملات الإبادة الجماعية التي قام بها النظام حتى بعد سقوطه. ووصل الأمر بهؤلاء الى التشكيك في المقابر الجماعية و إنكار قيام النظام بها أو تبرير قيامه بها بحجة حماية وحدة البلاد أمام العدوان الخارجي. الغريب أن هؤلاء لا يتوانون من الزعم بأنهم يقفون الى جانب الشعب العراقي ضد أعدائه. هذه القوى التي تبرر حملات الإبادة الجماعية و ضرب السكان المدنيين بالأسلحة الكيمياوية هي تلك المؤهلة للقيام بعمليات الإبادة الجماعية ضد كل من يختلف معها في الرأي والتوجهات.

كان البعث يعتقد بأنه حر في أن يفعل

بالعراقيين ما يشاء. وإعتبر ذلك حقا لا يجوز أن ينازعه عليه أحد. فقد تعجب علي الكيمياوي من الإعتراضات التي أبداها الرأي العام الأوربي و العالمي على قصف مدينة حلبجة بالأسلحة الكيمياوية في 16 آذار عام 1988، إذ قال بتعابيره الجلفية ما ترجمته (ما دخل المجتمع الدولي بما نقوم به مع مواطنين عراقيين؟. سأفعل بالمجتمع الدولي وكل من يستمع اليه. هؤلاء مواطنونا نقتلهم، نذبحهم، نسجنهم. ما دخل المجتمع الدولي بهذا الأمر؟). وحتى صدام بعد إعتقاله و عندما زاره عدد من أعضاء مجلس الحكم و سألوه عن سبب قتله للبعثيين تعجب من الأمر وقال لهم (هؤلاء بعثيون ما دخلكم أنتم بهم؟).

جرائم الإبادة الجماعية في العادة ليست نتيجة لأفعال محسوبة و مدروسة بل هي نتيجة للتعامل مع الأوهام و الفنطازيات التي تعد بحل جميع المشاكل التي يعاني منها الناس. وكان البعث ومنذ وصوله الى السلطة يعد الناس بالعمل على إزالة آثار الهزيمة و الانكسار و الأنتقال بالأمة الى حيث المجد و الانتصارات. كما كان يردد دائما بأنه سيطهر البلاد من الأعداء الذين يجسدون الشر الكامل.

تضع الايديولوجيا الشمولية فئتان من الناس مقابل بعضها. الجماعة المتسلطة و صاحبة الطرح الأيديولوجي و الجماعة المعادية التي تصبح في النهاية هدفا لعملية الإبادة. وعمل البعث كغيره من الأحزاب و الحركات الشمولية في هذا المجال على عاملين رئيسين وهما فكرة الفئة المختارة و الجرح القومي. الخطاب البعثي مليء بشعارات الأمة المصطفاة من قبل الارادة الإلهية. وطبعا لا يفرق البعث في خطابه هذا بين الأمة و بين الحزب، فكل ما يقوله بحق الأمة يقصد به البعث و قيادته. وبذلك فالفئة التي يمثلها البعث هنا هي فئة مختارة و مجبولة على حكم الآخرين و ما على الآخرين الا الانصياع لرغباتها و إلا فإن الإبادة ستنتظرها. ومن خلال خلط عنصري المخاوف و الشعور بالتسامي على الآخرين جرى تصديق الأوهام و الفنطازيات. وتضع الجماعة المتسلطة هذه المخاوف في هويتها وتعمل على نقل عدائها التاريخي للاخر الى الأجيال الجديدة.

والايديولوجية البعثية صورت المجموعة/ الهدف بأنها فئة صغيرة متآمرة ومعزولة عن الجماهير وتقف على الضد من إرادة المجموع في خلق اليوتوبيا البعثية. ويتجسد هذا بوضوح في سلسلة الاتهامات التي كان البعث يوجهها للحركة القومية الكردية والكرد عموما. فقد جرى تصويرهم على أنهم العائق أمام خلق المجتمع اليوتوبي البعثي الذي سينعم العرب في ظله بالوحدة و الحرية و الاشتراكية. وقد ناقض البعث بطروحاته السياسية الجديدة حول القضية الكردية حتى أفكاره المبكرة عن القضية الكردية والتي كان يتشدق بها حتى منتصف السبعينيات.

إعتمد البعث على ماكنة إعلامية هائلة وحملات دعائية قائمة على الأوهام . وجرى إختلاق هذه الأوهام للتنفيس عن مشاعر التوتر و الاحتقان و

الخوف و الفشل و تدني الروح المعنوية. إعتبر البعث بأن القضاء على الأقليات المتآمرة، وهذا لا يشمل الكرد فقط بل يتعداهم الى كل الجماعات غير العربية التي تعيش مع العرب في العراق و السودان ودول شمال أفريقيا و غيرها، سيخلص العرب من المخاطر و المؤامرات. وهذا يتطابق مع الهدف المعلن لجميع عمليات الإبادة الأيديولوجية التي كانت تختفي دوما وراء شعارات محاولة إنقاذ الأمة من الأخطار المحدقة بها من أقليات تتربص بها و تحاول الأضرار بمصالحها العليا . ولم يكن البعث غريبا عن تبني هذا الخطاب ليس بحق الكرد فقط بل بحق كل من حاول الحد من دكتاتوريته المطلقة. أرادت دولة البعث أن توجه نقمة قطعانه العسكرية و تدهور أوضاعهم المعاشية بعد حربها المجنونة مع إيران نحو مجموعة إعتبرتها سببا للمشاكل بل للحرب أيضا. أشار بعض وزراء صدام بأنه كثيرا ما كان يردد في إجتماعاته معهم أو مع أعضاء ماكان يسمى بمجلس قيادة الثورة أن الحركة المسلحة الكردية هي السبب في إندلاع الحرب بين العراق و إيران. طبعا كزعيم شمولي لم يكن مستعدا أن يقر بسياساته الخاطئة في التعامل مع القضية الكردية، فبدلا من التجاوب مع تطلعات الكرد القومية المشروعة إتفق مع شاه إيران في 6 آذار عام 1975 ليتخلص من تلك الحركة. ولكن الحركة الكردية سرعان ما بدأت من جديد و سقط نظام الشاه، و بدلا من الأستفادة من التجربة مزق الأتفاقية و أعلن الحرب على إيران. إعتقد بأنه سيتمكن من تحقيق نصر عسكري كاسح و سريع على إيران و سيتحول بين عشية و ضحاها الى زعيم للعرب من المحيط الى الخليج.

سبقت حملات الأنفال عملية التهميش السياسي والإقتصادي والإجتماعي للمجموعة / الهدف وجرى ترحيل جزء منها قسريا . ساعدت تلك الاجراءات القسرية على تسهيل مهمة التخلص من أفراد المجموعة . و هناك في عراق اليوم من يحاول القفز على تلك الحقائق من خلال ترديد بعض الشعارات الجوفاء التي تهدف الى إقناع الضحايا للرضوخ لواقعهم والتعايش مع آثار تلك الجرائم الكبرى دون ابداء الاعتراض. وهذا تفسير خاطئ لمبادئ التسامح و المصالحة الوطنية.

لقد مرت عملية إعداد القتلة الذين قاموا بتنفيذ عمليات الإبادة الجماعية بعدة مراحل . لقد كانت تجربة (مكتب العلاقات العامة)، وهو اسم أختاره صدام حسين للمخابرات بسبب كراهية العراقيين لتسميات الأمن و المخابرات، نموذجا لما ساد العراق فيما بعد. وكانت لصدام تجربة في التحقيق مع الشيوعيين و تعذيبهم بعد إنقلاب شباط عام 1963. جند لهذا المكتب عددا من القتلة و الشقاوات و المجرمين المستعدين لتنفيذ أوامره دون تردد ماداموا يحصلون على الامتيازات و فرص ممارسة العنف و القسوة مع الأخرين. تحولت تلك التجربة الى نموذج غطى العراق من أقصاه الى أقصاه و أصبح ضابط الأمن عنصرا مهما في أية دائرة من دوائر البلاد مهما كانت صغيرة و تافهة.

جرى إعداد أفراد القوى التي قامت بجرائم

الأنفال وفق برامج خاصة. وإعتقدوا بأنهم بقيامهم بهذه الجرائم انما ينفذون أعمالا مهمة و يقدمون خدمات جليلة للزعيم و الحزب والدولة والأمة. لقد جرى قتل الأحاسيس الانسانية لدى هؤلاء. فالتعاطف الانساني مع آلام الناس اعتبر ضعفا وعدم خضوع لرغبات الزعيم و نقص في الايمان المطلق بالأيديولوجيا. لذلك وجب على أفراد هذه المجاميع أن يظهروا القسوة و الخشونة و أن يتصرفوا كالحيوانات المفترسة فيأكلون الحيايا و ويلقى بهم في الأوحال و المياه القذرة و ينفذون أوامر قادتهم دون تردد و أن يكونوا مستعدين دوما للتضحية بالنفس على طريق تنفيذ رغبات الزعيم. كما أنهم شاركوا في حملات الاعدام الجماعية بحق السياسيين المناهضين لحكم البعث أو الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية. وتمثل هذه القوات جماعة تقوم بين أفرادها أخوة الدم و تقربهم الجرائم المشتركة التي يقومون بتنفيذها من بعضهم.

ولكن ورغم أن النظام البعثي جند خلال سني حكمه عددا هائلا من الأفراد في مؤسساته القمعية وقواته الخاصة، إلا أن جريمة كبيرة بحجم الأنفال لم يكن بالامكان أن تنفذ دون مشاركة فئات أخرى من المجتمع العراقي مثل الجيش الشعبي، أفواج الدفاع الوطني و المفارز الخاصة. وكان أفراد هذه القوات في الظروف الاعتيادية أناسا عاديين و يمارسون حياة مدنية طبيعية. و يشكل مثل هذا التطور الجانب المرعب من المسألة عندما يزج بعشرات الآلاف من البشر دون إرادتهم في دائرة الجريمة.

وفي الأنفال كما في اية عملية ابادة كانت هناك ثلاث فئات من الناس: الفعلة أي القائمون بالعملية و الشاهدون الذين يلعبون من خلال موقفهم السلبي دورهم فيها و الضحايا أو هدف العملية. ويخطأ من يعتقد بأن القتلة أناس ساديون أصلا و يمارسون القتل لأسباب و إعتبارات نفسية خاصة بهم. الحقيقة أن هؤلاء أناس عاديون دربوا على القيام بهذه الأعمال عبر عملية إعداد طويلة وجرى إنتقاؤهم من بين أكثر الجماعات إخلاصا للزعيم والدائرة القريبة منه. لقد توسعت دائرة القتلة في العراق الى مديات مرعبة بسبب الحروب الكثيرة وحملات القمع المستمرة و تنامي وتيرة العنف والقسوة الى حدود يصعب تصورها.

وهناك مسألة في غاية الأهمية في اية عملية إبادة جماعية و تتعلق بالجماعة/ الهدف، ألا وهي نزع الصفة الانسانية عن أفرادها . ويشير الكتاب والباحثون المهتمون بقضايا الإبادة الجماعية الى ضرورة توفر هذا الشرط لتنفيذ عملية الإبادة الجماعية بنجاح. تعمل السلطة الشمولية من خلال ماكنتها الاعلامية على الحط من مكانة الفئة المستهدفة و تصويرها على أنها فئة صغيرة ومتآمرة و يبرر تحقيق الأهداف الكبرى القضاء عليها. وتستطيع الدولة من خلال مؤسساتها الدعائية وبخاصة في ظل الأنظمة الشمولية المطلقة والمجتمعات المنغلقة أن تفرض الصورة التي تريدها على المجتمع. فعلى مدى العقود الثمانية الماضية صور الاعلام الحكومي الكرد على أنهم متمردون

وخارجون عن القانون، يشكلون مشكلة للعراق. وأصبحت نعوت الخونة، المتخلفون و العملاء و غير ذلك من الصور السلبية تلاحق الكردي أينما حل. ومازالت هذه الصورة مغروسة في عقول نسبة من العراقيين و عدد أكبر من العرب غير العراقيين. وهناك من بين الاعلاميين العرب من يعتقد بأن الحديث عن حلبجة و الأنفال هو محاولة لهولوكوستة القضية الكردية. وصور الاعلام الدعائي البعثي الحركة الكردية على أنها خطر على مصالح العراق العليا و معيقة لطموحات الأمة العربية في الوحدة القومية و محاولة لتجميد دور الجيش العراقي في محاربة إسرائيل. كما كانت قيادات الحركة الكردية في الخطاب البعثي الرسمي خونة، جيب عميل، خناجر مسمومة في خاصرة العراق و الأمة العربية أو في أحسن الأحوال مغرر بهم.

ووصل الأمر في المرحلة التالية الى تشبيه أفراد المجموعة/ المستهدفة بالحيوانات أو كائنات تافهة لا تفيد البشرية في شيء بل أن وجودها خطر عليها لذلك فإن التخلص منها هو أمر لصالح البشرية. كما جرى تشبيه هؤلاء بالأمراض الخبيثة كورم السرطان الذي يجب استئصاله قبل أن يستفحل خطره ويدمر خلايا الجسم كله. وتعتبر المفردات التي أطلقها علي كيمياوي على الكرد نموذجا صارخا لذلك الفكر العنصري. فقد شبه الكرد بالماعز الذين يعيشون في الجبال و الحمير الذين لا يفهمون شيئا والكلاب وما الى ذلك. لقد قال ما نصه: (ماذا أفعل بهؤلاء المعيز؟ كيف أتخلص من هؤلاء المخربين؟ سأدفنهم بالبلدوزرات و أفتح شوارع على مدافنهم. هل هم هؤلاء الذين تخافون منهم؟ من يعترض على ما نقوم به ،المجتمع الدولي؟ سافعل بالمجتمع الدولي و بكل أولئك الذين يستمعون اليه. لن أضربهم بالكيمياوي ليوم واحد بل سأضربهم 15 يوما متتاليا... سأجعلهم مثل الدجاجة التي تجمع فراخها تحت جناحيها... لماذا أدعهم يعيشون مثل الحمير هناك لا يفهمون شيئا... لا أريد قمحهم وزراعتهم و طماطتهم و باميـاهم و خيارهم... طلبنا من الموصل أن ترحل الكرد الى الجبال لعيشوا كالماعز... إفعلوا بنسائهم... سأهشم رؤوسهم هؤلاء الكلاب... سأقطعهم مثل الخيار... كنت أقول يمكن أن يكون بينهم بعض الجيدين لأنهم شعبنا أيضا ولكنني لم أعثر على إنسان جيد بينهم أبدا). الغريب أن صاحب هذه الكلمات يقول في نفس الموقف بأنه بكى بسبب مشهد تراجيدي في فلم سينمائي على حد زعمه ، ولكنه لا يبدي أي ندم على قتله لعشرات الآلاف من الأطفال و النساء والشيوخ الكرد أثناء الأنفال ، بل يؤكد على صحة ما قام به خلال الأنفال إذ يقول (أنا مصر على أن ما قمت به هو العمل الصحيح وكان لا بد أن أقوم به). ما الذي أوصل هذا الرجل الى هذه الحالة من تخشب المشاعر الانسانية أمام قتل عشرات الآلاف من الأطفال و النساء و الشيوخ ، في حين يبكي على إمرأة فقدت الطريق في فلم سينمائي؟. الحط من قيمة المجموعة التي يراد إبادتها مسألة في غاية الأهمية للتمهيد لعملية الإبادة الجماعية. يستخدم

عادة في هذا الباب حتى الموروث الشعبي و النكات التي تحط من كرامة الآخر وتظهره بأنه اقل شأنا من المجموعة المهيمنة. لذلك تمنع الدول المتحضرة قانونيا النكات التي تحط من قيمة مجموعة بشرية سواء كانت قومية او دينية أو فئة إجتماعية . في حين يزخر الفولكلور الشرقي بأمثال غارقة في العنصرية بحق الشعوب الآخرى ويجري إستخدامها بصورة مفرطة في الاساءة الى الآخرين.

هذه العملية أي نزع الصفة الانسانية عن الضحايا (عملية اللاأنسنة أو حيونة الضحايا) تضعهم خارج المجتمع الأنساني و وظائفه. كما تساعد على إزالة العقبات الأخلاقية على طريق التخلص منهم وتقتل اي تعاطف إنساني لدى القتلة تجاه الضحايا، لأنهم يعتبرونهم اقل درجة من البشر. العوائق الأخلاقية التي تقف بوجه قتل الانسان لأخيه الأنسان من القوة لا يمكن معها تنفيذ عمليات القتل و الإبادة الجماعية بسهولة و بطريقة لا تخلف تأنيبا للضمير لدى القتلة إلا بعد نزع الصفة الانسانية عن الضحايا. ان عملية اللاانسنة تخلق جوا لتقبل الآخر بغير صورته الانسانية بل يتحول الى رقم أو سلعة أو عنصر يمكن تعويضه في لعبة الأرقام. و كثيرا ما يتردد على ألسنة ضحايا العنف البعثي بأنهم كانوا يعطون أرقاما و يمنعون من ذكر اسمائهم بأي شكل من الأشكال. ورغم إرتباط ذلك بمسألة الحفاظ على سرية القمع البعثي إلا أن الأمر لا يخلو أيضا من هدف تحويل الضحية الى مجرد رقم لازالة أي عائق أخلاقي على طريق التخلص منه. حتى في الجيش العراقي الذي كان تسود علاقات قريبة من العبودية بين الضباط والجنود فيه، كان التعامل يجري عادة على أساس الأرقام. يمكن فهم هذه الحالة خلال الحروب و لكن من الصعب تبريره في حالات السلم و في ظل الظروف الطبيعية. يبدو ان الهدف هو خلق قطيع مسلوب الارادة و الكرامة الانسانية. وهكذا فإن عملية اللاانسنة لا تشعر القاتل في هذه الحالة بأي ذنب أو تأنيب ضمير لأنه يقتل كائنات أقل درجة من الأنسان و يقوم بعمل ضروري لبقاء النظام التوتاليتاري. بل يمكن أن يثير القتل شعورا بالمتعة و النصر لأنه يمثل في هذه السيطرة المطلقة على الآخر/ العدو.

هناك قصص كثيرة عن تعامل و قسوة حراس معسكرات الموت البعثية و السجانين مع ضحايا الكرد تعطي صورا لأناس يصعب تصنيفهم ضمن البشر بدءا من رمي جثث الموتى للكلاب السائبة والاعتداء على النساء أمام آبائهن و أطفالهن. و تظهر هذه الصور نجاح البعث في تحويل أنصاره الى كائنات خرافية تفتقر الى أية مشاعر أو قيم إنسانية. وقد أورد بعضا من شاهد من بعيد عمليات القتل الجماعية أو أجبر على حفر المقابر الجماعية أو تمكن من الهرب من حفلات الموت الجماعي قصصا مرعبة عن أولئك الكائنات. وتجسد هذه القصص صورا لأناس يشبهون تماما ما نقرأه عن حراس وجلادي معسكرات الموت النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.

وتخلق عملية نزيع الانسانية من أفراد المجموعة المستهدفة مسافة ضرورية بين القتلة و الضحايا. فالحط من قيمتهم ووضعهم خارج عالم الواجبات وتجويعهم و تركهم في أوضاع قذرة سرعان ما يفقدون معها الشعور بها ويصبح من المستحيل الحفاظ على النظافة. و بذلك تظهر بيئة مناسبة لانتشار مختلف الأوبئة التي تحصد حياة الآلاف منهم. وقد جرى ذلك بالضبط لضحايا الأنفال في معسكرات طوبزاوة و نقرة السلمان و غيرها. ومات الآلاف من الأطفال و الشيوخ حتى قبل أن تبدأ قوات الموت بحصد أرواحهم. وتعتبر هذه الأساليب أدوات فعالة للحط من قدر و مكانة الضحايا و تجعلهم في وضع يتمنون الموت و يجدون فيه الخلاص ولذلك يستسلمون له و يتقبلونه دون ابداء أية مقاومة.

ولعب المشاهدون بموقفهم السلبي دورا كبيرا في عملية الإبادة الجماعية. لقد تسامح الجمهور العراقي مع ما قام به البعث الى الحد الذي أصبح من الصعب بعد ذلك الوقوف بوجهه. و يبدو أن عامل الخوف كان وراء صمت المجتمع العراقي إزاء مذابح الأنفال. لقد أوصل نظام البعث الناس الى درجة من الخوف و الفزع لم يعد أحد يجرؤ على السؤال عن الآلاف الذين يؤخذون و لا يعود منهم أحد. وعندما يصل أي مجتمع الى هذه الحالة من الخوف و الرعب يصبح من السهل القيام بحملات الإبادة الجماعية. وهناك فئة من العراقيين تحاول أن تتهرب من تحمل أية مسؤولية عن الذي جرى في العراق، فبدلا من أن تعترف بحالة الرعب التي سادت المجتمع العراقي تحاول أن تبحث عن مبررات لجرائم النظام و تغطية الموقف السلبي لهذه الفئات الواسعة من المجتمع. ولا يريد أفراد هذه الفئة أن يعترفوا بأن مقاومة العراقيين لحكم البعث تعود الى سنين طويلة قبل دخول النظام في مسلسل الحروب الخارجية. وشاركت فئات واسعة من السكان العاديين من خلال الجيشين النظامي و الشعبي و الدوائر الأمنية و المجهود الحربي في عمليات الإبادة الجماعية ولو بصورة غير مباشرة. وحتى الذين إمتنعوا عن المشاركة فيها لم يعملوا شيئا من أجل منع حدوثها. كان على الفعلة إما أن يشاركوا أو أن يصبحوا هم بأنفسهم هدفا لأفعال القمع و الإبادة. لم تعد قصص الأطباء مع جرائم قطع آذان الهاربين و وشم جباههم و أفراد الجيش الشعبي في عمليات إعدام الهاربين من الخدمة العسكرية خافية على العراقيين.

لم يكن بالامكان أن تتخذ الأنفال هذا الحجم المرعب لولا إمكانيات البعث المادية و العسكرية والتقنية الى جانب الجهاز البيروقراطي الحكومي والشبكة الأمنية و الحزبية. وفي كل الأحوال تستطيع جماعة صغيرة منظمة و مسلحة بصورة جيدة أن تنفذ عملية إبادة بحق جماعة كبيرة غير منظمة و غير مسلحة . كرس البعث التكنولوجيا الحديثة و منجزات التحديث للقيام بحملات الأنفال و عمليات الإبادة الجماعية الأخرى . لقد وسعت هذه الامكانيات من حدود عمليات الإبادة أكثر من السابق. فالذي أصبح بإمكان السلاح الكيمياوي

والطائرات الحديثة و الجيش المتطور أن تقوم به في الثمانينيات لا يمكن مقارنتها بامكانيات الدولة العراقية قبل ذلك بعقدين أو حتى عقد واحد من الزمن. كما أن مؤسسات الدولة الحديثة وفرت جميع متطلبات و خطط الأنفال. إذ أصبح بالامكان تحديد الفئة/ الهدف بكل دقة، كما قدمت مؤسسات الدولة جميع الأجهزة و الوسائل الضرورية للقيام بالمهمة على أكمل وجه . وقامت أجهزة الأمن المرعبة والوحدات الخاصة بمهمة الحفاظ على سرية العملية و محو آثارها كلما كان ذلك ممكنا. لقد إستفاد البعث من تطور التقنيات العسكرية و توفر موارد النفط الهائلة و شبكة الأمن و المخابرات و الجيش والحزب و علاقاته الدولية الواسعة بأبشع صورة من أجل إبادة مئات الآلاف من المدنيين الكرد و غيرهم دون أن يحرك المجتمع الدولي ساكنا. ليست التكنولوجيا و الحداثة بذاتهما مذنبتين في إستخدامهما من قبل أنظمة و حركات توتاليتارية بهذا الشكل السيء.

كما لعبت عملية نهب ثروات و ممتلكات الضحايا أيضا دورها في حملات الأنفال. و ربما تشير تسمية الحملات بالأنفال الى هذا الجانب، فالأنفال تعني غنائم الحرب. و على أية حال فالكلمات ليست مسؤولة عن المعاني التي نحاول تضمينها. الذين ساهموا في تنفيذ الأنفال كان لهم نصيبهم من المواشي و الممتلكات و حتى الجواري و الموالي. هناك قصص كثيرة يصعب التحقق منها عن أخذ الأطفال و توزيعهم على عوائل موالية للنظام ، فضلا عن بيع أعداد من الفتيات الكرديات داخل و خارج العراق. وثقافة الفرهود البعثية و آثارها المدمرة على المجتمع العراقي بحاجة الى دراسات معمقة. يكفي أن نشير بأن نظام البعث جعل منها جزءا من ثقافة الدولة الرسمية سواء من خلال نهب ممتلكات السكان الكرد و بخاصة في الريف لمدة ثلاثة عقود كاملة ، أو نهب المدن الايرانية الحدودية أو فرهود الكويت الذي تجاوز كل حدود عندما قامت المؤسسات و الوزارات العراقية و زعماء المافيا الحكومية بنهب ممتلكات دولة الكويت، ليجري نهبها على أيدي الحواسم يوم سقوط النظام.

في المجتمعات المتعددة الاثنيات كالعراق و التي تسيطر فيها فئة صغيرة على الفئات الأخرى تزداد إمكانيات الإبادة الجماعية. ويشكل العنف أداة قانونية بيد المسكين بالسلطة لخلق الفروقات بين الناس و تعميقها، ويجري دعم هذه الظاهرة بأحداث التاريخ المليئة بالعنف في هذه المجتمعات. كثيرا ما يشار خطأ الى أن البعث كان في حرب مع الكرد لذلك قام بتلك الجرائم. ولكن طبيعة النظام البعثي الشمولي تؤشر حقيقة مهمة وهي أن النظام كان سيقوم بقمع الكرد و إبادتهم حتى لو لم يقوموا بمقاومته أو التمرد على سلطته، لأن مجرد تمسكهم بثقافتهم و ممانعتهم الانصهار و الانصياع لدكتاتوريته و الاندماج الكلي بالمجتمع الذي أراد البعث خلقه كان وفق منظور البعث مبررا كافيا للقيام بابادتهم. إذ كان البعث ينظر الى هذه الجماعة على أنها عقبة أمام النموذج الذي يريد أن

يخلقه (مجتمع عربي موحد وحـر و إشـتراكي!!). وكان ينظر الى امر الإبادة على انـه إزالـة لتـهديد حقيقي أو رمزي على طريـق بنـاء النمـوذج البعثي .والضحيـة في هـذه الحـالات عـادة أقليـة قوميـة أو ثقافية متميزة عن الأكثرية السائدة في البلاد و التي تعتبرهـا الدولـة الشـمولية عائقـا أمـام توسـعها أو تتخوف من رغبة تلك الأقلية في إقامة كيان مسـتقل و البحث عن إعتراف دولي بها.

و تـتزايد إحتمـالات الإبـادة لـدى الحكومـات ذات النخب السياسـية أو الأنظمـة الجديـدة. وهـي عـادة دول معزولة عن العالم الخارجي و ذات تأريخ مليء بالقمع والاضطهاد. تعاني هذه المجتمعات مـن تـاريخ طويـل مـن الصـراع الداخلـي السياسـي و القومـي. وتستخدم السلطة فيها لتكريـم المجموعـات الموالية. ويتسبب إنتقـال السلطة في إنـدلاع أعمـال الإبـادة في حالة وجود أيديولوجيـات تحـط مـن قيمـة جماعـة معينة. و الجماعات التي لم تندمـج كليـا في المجتمع أكثر تعرضا لمثل هذه الأعمال . كما تزداد إحتمـالات الإبـادة الجماعيـة عنـد حصـول الهزيمـة العسـكرية، ضعف السلطة، نشوب الصـراع الداخلي ، مـع وجـود أحـزاب مسيطرة و أخـرى تشـعر بأنـها مهمشـة أو معزولـة و قيـادات توتاليتاريـة فضـلا عـن إعتمـاد الناس على القوة العسكرية لحماية أنفسهم.

الابادات الجماعيـة تحـدث في المجتمعـات المتعـددة الاثنيـات، حيـث الجماعـات الدينيـة و القوميـة والسياسية تشـعر بفروقـات عميقـة و بمظلوميـة. ويمكن ملاحظة هذه الخلافات في المشاركة السياسية أو الامكانيـات الاقتصاديـة و الاجتماعيـة. و تـزداد إمكانيات الإبادة عندما يتصارع طرفـان لمدة طويلة و يتطابق التمييز الاقتصادي و الاجتماعي مع حالة التـهميش السياسي. و الشـرط الأساسي للابـادة هـو تحديـد المجموعـة المستهدفة بحيث يمكـن تميـيزهم عن المجموعة السائدة.

بعكـس الأنظمـة الشـمولية لا تمتلـك النخـب الديموقراطية سلطات واسعة تمكنها من إبادة مجموعة مـن النـاس، لأن الثقافـة الديموقراطيـة تضـع نفسـها في مقاومة مثل هذه الظاهرة. لذلك فإن حجم السلطة و تبني أو عدم تبني الديموقراطية يشكلان العوامل التي تحـدد إمكانيـة قيـام نظـام سياسـي بعمليـات الإبـادة الجماعيـة مـن عدمها. وبعكـس المجتمعـات المنغلقـة لا يمكـن أن تحـدث عمليـات الإبـادة أبـدا في المجتمعـات المنفتحة والديموقراطيـة. النظام الديموقراطي لا يـدع أي مجال لعمليات الإبادة الجماعيـة. و تجري عمليـات الجينوسايد دائما بصورة سـرية و يبـذل القتلـة جهودا كبيرة لابقاء أخبارها في الظلام كما يستخدمون الارهاب للحفـاظ على سـرية الجرائـم. ولكن ولحسن الحـظ و على الضد من رغبـات القتلـة لا تبقى أعمـال الإبـادة في السر لاماد طويلة بـل يجري كشفها، لأن عمليـات بـهذا الحجم يشارك فيها عادة أناس كثيرون و تصل اخبارهـا الى الآخرين بوسائل مختلفة.

* (قدمت الأفكار الأساسية الواردة في مقالنا هذا في نـدوة عن الأنفال نظمت في مدينة لاهاي بهولندا في شهر نيسان من هذا العام (2004).

ذاكرة الأنفال.. مساحة من الاختفاء والصراخ والحصار

خالد سليمان

تشير كلمة "حامية" في كردستان العراق إلى معنى واحد، هو الخوف من التجول في المدينة أو الخروج منها والدخول ضمنا. وكانت الحامية في عهد حكم صدام شكلاً من أشكال العمارة العنفية ويرتسم في دهاليزها نموذج "الرجل الصغير" المدجن. ففي داخل كل مدينة وفضائها الخارجي المتصل بالمدن الأخرى كانت هناك قلاع وحاميات مدججة بوسائل العنف والسيطرة والفضائح دون أن يعرف عنها أحد شيئا. ولا يفهم أي كردي بالتالي معنى "الحامية" بوصفها القلعة المحصنة ضد الأخطار الخارجية التي تهدد البلاد، بل بوصفها مكاناً للاختفاء واللاعودة، مكاناً للاعتداء على الجسد وسحله في كل زاوية منه. ولكي لا ندخل في وصف الحامية وأبعادها المتعددة التي دخلت حياة الناس الأدبية والثقافية والسياسية عنوة نختصر الكلام عنها ونضع رموزها في سياق الحديث عن الأنفال وذاكرة بقايا المؤنفلين التي ترتطم بالألم دوما. لكننا نلجأ لها كمقدمة ضرورية وباب واسع للولوج في حياة الناس وشوارع المدن الكردية التي تقف في الطرف الآخر من الحروب الفلوجية والصدرية.

بعد غياب طال عشرة أعوام عدت إلى مدينتي (كلار) مرورا بالموصل وكركوك، وكان وصولي ارتطاماً قوياً بالحامية الأولى التي تقع جنوب بيتنا ببضعة أمتار محدودة. قلت لأخي طه هذا هو "اللواء" أي الحامية، انه مكان مناسب لمتحف للأنفال. وما كان من زوجتي التي ترى كردستان للمرة الأولى إلا أن ازدادت استغراباً من تعابيرنا التي كانت الأنفال والحاميات والمجمعات القسرية عناصر أساسية منها. بدأ هذا الاستغراب في "الربيعة" على الحدود السورية العراقية عندما عرّفتها على "حسن محمود" أحد أقاربي الذين جاءوا مع إخوتي لإستقبالنا وقلت لها هذا حسن لم يبق من عائلته

سواه وراحت البقية في الأنفال. أما في تخوم البيت فأصبح الاستغراب أيقونة مستطيلة تفوح منها رائحة الألم وظهرت حامية اللواء كإشارة واضحة للاقتراب من المنزل.

كنت مجبرا على تأجيل الحديث عن ذلك المكان في تلك اللحظة وإبعاد الحزن عن اللقاء مع العائلة، لكن حفلة التعارف زادت قسوة وعنفاً وبدت الوجوه التي كانت حاضرة في المنزل لاستقبال الابن العائد وعائلته كهوامش تراكمت فيها نقوش وأحزان نهايات القرن السابق.

ليل كامل من الاستعداد لتذكر ما حصل من الاختفاء والإفناء عبر "اللواء" ولتذكر وجوه جيل الأنفال الذي ولد وكبر في السجون والمجمعات ولم ير من الوطن سوى الألوية المحمية بالانتظار والتآكل الدائمين. غدا يأتي غير "حسن" ويحمل معه ذات الحكايات التي جرّدت الجميع من الآباء والأمهات والأولاد، وكانت الخالة "جيهان" واحدة من تلك الوجوه التي لا تروي من الأنفال سوى الأشياء التي تتعلق بالصمت واختفاء أبنائها الثلاثة (طاهر، باهر، شكر). وانتظرت الخالة جيهان مثل باقي الكرديات أبناءها وزوجاتهم وأولادهم سنين طويلة، لكن ظهور المقابر الجماعية طوى صفحة الانتظار المليئة بالخطوط والإشارات وحولها إلى فضاءات لحكايات قاتمة عما جرى في ربيع وصيف عام 1988. تعيش الخالة مع أولاد ابنها الثاني باهر الذين كانوا صغارا في زمن الأنفال ونجوا بالصدفة مع أمهم، لأنهم كانوا في بلدة "دوزخورماتو" وقتذاك واختفوا في مقبرتها يومين. تقول "ريزاو" أم أحفاد السيدة جيهان: لو لم نبق يوما آخر في البلدة ولو عدنا إلى القرية لاختفينا نحن أيضاً واختفت العائلة من الوجود. والآن يعيش الجميع بالقرب من الحامية التي كانت مقرا للواء "بارق عبد الله الحاج حنطة" أحد قواد قوات عمليات الأنفال. كبر أولاد ريزاو وشكلوا جزءا من جيل ما بعد الأنفال.

هناك بالقرب من مدينة كلار وحاميتها "اللواء" وآثار السيد حنطة من القتل، حامية أخرى أوسع وأكبر تتجسد في بيوت مرمية على أجنحة الظلام. تسمى هذه الحامية "الصمود" وهي مجمع قسري أسسه البعث عام 1987 وزج فيه آلاف من الذين نجوا من المقابر والكمائن، بالإضافة إلى مجموعات كثيرة عادت من سجون نقرة السلمان الواقعة في الجنوب العراقي. وبين حامية اللواء والصمود مشتركات ومفترقات كثيرة، ففي الأولى كان يتم تحديد القلاع المناسبة لإخفاء كل تلك المجموعات البشرية عن أنظارنا، ولم يستطع أحد الاقتراب منها. أما في الثانية فكان يختفي الناجون والهاربون من عمليات التجميع ويقوم فيها المرتزقة وعناصر الأمن والاستخبارات العسكرية باصطياد الواصلين الجدد والبحث عن رأس يصلح للقطع وتقديمه للدوائر العليا المسؤولة عن الأنفال.

الآن وبعد مرور ستة عشر عاماً على تلك العملية الاستئصالية تعيش مجموعات كثيرة من بقايا الأنفال في مجمع "الصمود" القسري الذي كان الحامية الأوسع في عهد النظام الدكتاتوري السابق.

ولم يعد بإمكان هذه المجموعات العودة إلى قراها وأماكن سكناها السابقة، لأنها تفتقر إلى شروط حياتية ومعيشية وعائلية كثيرة ولا تتوافر لديها إمكانية تأسيس الملاءمة الحياتية بين الماضي المستأصل والحاضر المقيد المتمثل في إعلان مفاجئ عن ذوي المؤنفلين. فسقوط النظام المؤنفل أدى إلى كسر انتظار روتيني من خلال المقابر الجماعية التي أعلنت حدادا عاما داخل المجتمع المؤنفل. وأصبح الانتظار بالتالي شكلاً من أشكال التأقلم مع المأساة وحكاياتها المتعددة والمتجددة دوماً.

آمنة خورشيد واحدة من بطلات حكايات تلك المأساة، رأت زوجها للمرة الأخيرة في القرية في شهر نيسان عام 1988 وتم نفيها مع أولادها وبناتها إلى سجن نقرة سلمان الواقع على الحدود العراقية السعودية ومات اثنان من أولادها في العام ذاته وفي السجن ذاته أيضاً وهما سعاد وبيستون، وأما ابنتها الصغيرة "هيرو" التي كانت تبلغ من العمر عاماً ونصفاً فلا تذكر شيئاً عما ترويه الأم من الحكايات. أما كبرى بناتها "آوات" فهي تتذكر كل شيء وتنظم حكايات شعرية عما رأته من الذل رغم أنها لا تقرأ ولا تكتب. عندما رأيت آوات في المرة الأخيرة عام 1983 كانت في الحادية عشرة من عمرها وهي الآن متزوجة من رجل نجا من الأنفال عن طريق الصدفة ويعيشان داخل بيت من الطين في المجمع المذكور.

تفضل آوات الحديث عن أيام نقرة سلمان من خلال الحكايات الشعرية التي نظمتها في الحاميات والسجون. فقبل وصولها إلى صحارى نقرة السلمان وفي حامية أو قلعة "توبزاوا" بتاريخ 1988/4 نظمت هذه الكلمات :

يداي مقيدتان بشجرة كاليبتوز

عيناي مربوطتان بصناع الأبواب

أبواب تستند إلى الفولاذ

افتحها

يفتحها العدو بابتسامات هازئة

أخاف الموت في هذه الغربة

لأني وحيدة هنا

تقول الأم "آمنة": في نقرة سلمان كانت الحياة جحيماً ووصل طعم الإهانة إلى عظامنا وكان مدير سجننا يسمى الملازم حجاز ومنعني من دفن ابني وابنتي الصغيرين وأخذ جثتهما مني مع الحراس الآخرين وقال نحن ندفنهما. بقيت في الغرفة وبكيت وانهارت أعصابي. حسب رواية آمنة خورشيد فإن الطعام في ذلك السجن كان عبارة عن طحن الخبز العسكري "الصمون" وخبزه للمرة الثانية على "الصاج". لأن الصمون كان قاسيا، تفوح منه رائحة الغاز كما تقول السيدة خورشيد والعائدات الأخريات من ذلك السجن. كان يعاقبنا كيفما يشاء، بعد منتصف الليل وفي الظهريات أو صباحاً إذا أراد، أتذكر الآن كيف ضربني بالسوط "الكيبل" لأنني تجرأت وذهبت مع نساء أخريات إلى قاووش الشيوخ المسنين وتكلمنا معهم حول ما إذا كانوا يعرفون شيئا عن مصيرنا. وربط في ذلك اليوم ست نساء تحت أشعة الشمس لمدة ساعات لذات السبب ومنع

الجميع من الاقتراب منهن. وكان هنـاك شخص آخـر في السجن يسمى الملازم أحمد، لم تكن قساوته مثل قساوة حجاز وكان يرحمنا أحياناً بكلمة واحدة وهي "خلاص" بما معنى انتهت "الفلقة" لذا كنا نسميه "عمو خلاص".

هنـاك عائلـة أخرى كـانت تعيـش مـع السـيدة خورشيد وهي عائلة آفتاو صالح بك وأولادها وبناتها (نشـميل وليلـى وبخشـان وسـتابة ونجيـب ودارا وحسيب). يتذكر أفـراد هـذه العائلـة كـل التفـاصيل المتعلقة بدهاليز نقرة السلمان وأساليب الملازمين حجاز وأحمـد "خـلاص" في التعذيـب والفلقـة، باسـتثناء حسيب الذي كان صغيرا في ذلك الوقت فلم تساعده ذاكرته في رواية الأشياء. عندما طرحت عليهم سؤالاً حول أوضاعهم آنذاك سارع الجميع للحديث عن الملازم حجاز وتلك الظهريات الصيفية التي كان يعاقبهم فيها وبشكل خاص عن عقاب "النساء الست" اللواتي كانت نشميل واحدة منهن. سألت حسيب أصغر أفراد العائلة وكان عمره ثلاث سنوات في السجن، سألته عما إن كان يتذكر شيئاً عن تلك الأيام، فقال لي إنه لا يتذكر إلا صورة الملازم حجاز: (كنت أخاف منه كثيرا والتجئ إلى أمي كلما ضرب واحدا منا) أما ليلى وبخشان فتتذكران كل شيء ولكن تفضلان تذكر الأيام الخوالي، أي أزمنة ما قبل الأنفال وقصص الطفولة الكرميانية التي كانت تحصل بيننـا. تعيش عائلة آفتاو صالح بك اليـوم في الصمود بالقرب من بيت آمنة خورشيد وابنتها آوات كما كانوا معاً في القريـة وفي نقرة سلمان ويشتركون في رحلة الآلام.

الأنفال... التي لا تزال تسرد خفاياها

كل حكاية عن الأنفال تبدأ من "مله سوره"، ذلك المكان الذي فصل بين التصفية والتجميع، بين الحياة والموت، المدن والقـرى وبين الانتظار والمقابر الجماعية أيضا. في مله سوره الذي يقع في منطقة كرميـان "المنـاطق الحـارة أو بـلاد الشـمس" في كردستان العراق جمع الآلاف من البشر عام 1988 ومن ثم نقلوا إلى قلاع كانت المقدمات الضرورية للقتل. كان مله سوره بدايات القصص ونهاياتها، فقد فيه الكثير شروط الحياة وامتلك فيه الكثير أيضاً مقاسات قسرية للحياة، إذ وجدوا أنفسهم داخل دوائر متداخلة من المذلة.

حسب شهادات الناجين الذين تزاحمهم روايات قيامـة مله سـوره كـانت النجـاة مـن خطـة الاسـتئصال البعثيـة الـتي تجسـدت في القتـل الروتيـني نوعـا مـن الخطأ أو الصدفـة خلقتـهما ظروف القيامة تلك. وإذا سألت اي شخص عن مله سور في تلك الأيام أي في شـهر نيسان 1988 يقول لك: كـانت القيامـة، ثـم يبـدأ بروايـة الأشـياء ويتركك في مساحات ذاكرة مليئة بالخوف والصراخ والجوع والعطش والبرد والحصار. ولم ينـج أحد سوى بالصدفة أو الضياع والاختفاء الفجائي. هذا ما حصل مع حسن محمود الذي كان ينـاهز 12 عاماً آنذاك إذ قال له خاله جبار حميد: انزل من التراكتور واذهب إلى خالك فاتح وساعده في إيصال الماشية إلى مجمع "الصمـود" ونحن نسبقكم مـع خالاتك وجدتك، وكان والداه في التراكتور ذاته. لم

ينزل حسن وعاند خاله الذي اضطر إلى إنزاله بالقوة وملاحقته بين الجموع. ابتعد حسن بالتالي واختفى بين الناس كي يهدأ الخال ويعود للقافلة، ولكن العودة كانت صدمة كبيرة بالنسبة له إذ لم يجدهم وتركوه وحيدا تحت المطر.

لحق حسن بخاله الصغير فاتح الذي كان يبعد عن مله سوره بضعة كيلومترات وكان يتضور جوعا. (طلبت الخبز والشاي يقول حسن ولم اعرف أن خالي يقتات بالحليب فقط، إذ لا يملك حتى كبريتاً لغليه). بعدما يسأله الخال عن الأهل واطمأن الى انهم سبقوهما إلى المدينة احضر الكثير من الحليب لحسن وبقيا على تلك الحال لمدة اسبوع كامل. ولما وصلا المجمع بعد رحلة شاقة من بين ربايا عسكرية ونقاط تفتيش متعددة لاذا بأول بيت وصلا إليه في "الصمود" واختفيا لمدة أسبوع آخر كي تمر عاصفة التجميع. واختفى الخال جبار والعائلة للأبد.

لا يشرب حسن منذ ذلك الوقت الحليب ويتقيأ منه كلما رآه أمامه وهو يعيش الآن في مدينة كلار مع عائلته الجديدة بعد نجاته من المقابر الجماعية المنتظرة صدفة. أما فاتح فتزوج أيضاً وتعيش معه أمه التي عادت من سجن "نقرة السلمان".

عادت أم فاتح شمس محمد علي من"نقرة السلمان" بعد أن قضت فيها صيف 1988 على أمل لقاء أولادها وأحفادها في كلار أو الصمود، ولم تر غير فاتح وحفيدها حسن وأصبحت الآمال جزءا من رمال الجنوب. ومن جانب آخر من كرميان نجت "حبيبة" إحدى بنات أم فاتح مع ولديها مريوان وجنار اللذين كانا صغيرين في ذلك الوقت ولم يفهما من الأنفال واختفاء الأب شيئا. عادت حبيبة إلى منطقة كلار التي يقع فيها مجمع الصمود القسري كي تعيش حياة الانتظار مع الكرميانيات والكرميانيين.

الناجون

لدى كل واحد نجا من هذه العائلة من عمليات الأنفال قصص كثيرة ومأساوية عما حدث ولا يريد احد التذكر، لأن التذكر لما جرى يعني الدموع والبكاء والولوج في حكايات لا تحمل سوى معاني الموت. مريوان وجنار ولدا "حبيبة" نسيا وجه الأب وأصبحا شابين يعيشان في قرية فقدت بالإضافة إلى ابنائها الأشجار والآبار والجامع ولا تعيش فيها الآن سوى عائلات أو بقايا عائلات، أعلنت المقابر الجماعية التي ظهرت بعد سقوط أصنام بغداد مصائرها وأصبح معنى الانتظار تراكماً من أنفال الحكايات وحطاماً للذاكرة الأليمة.

لا تختلف قصة رزكار منصور وأخته هرمييه عما حصل لحسن وعائلته، كان قريباً من قيامة مله سوره ويتبع حركة العائلة المكونة من ثلاثة بنين وأربع بنات داخل تراكتور معبأ بالناس. قال لأبيه: لا يمكنني إيصال الماشية للمدينة وحدي، لماذا لا ينزل أحدكم لمساعدتي. وما كان من الأب الا أن ينزل ابنته هرمييه، لأن الابن الكبير ناظم كان في تراكتور آخر. ثم تابع رزكار السير مع هرمييه وسبقتهما العائلة للمدينة كما فهم الجميع في ذلك اليوم. (كنا نأكل الخبيزة في مله سوره، لأن الأكل

نفد وحاصرتنا القوات الحكومية والجحوش. لقد تحولت المجموعات إلى قطعان وامتزج البكاء والصراخ والهلع مع صوت الدبابات والناقلات وطائرات الهليكوبتر). لم ير رزكار منذ ذلك اليوم أثرا للعائلة بعد أن أنقذت الصدفة حياته وحياة أخته من الموت. وتقول "لميعة عباس" التي عادت من سجون دوبز إن أم رزكار "خيرية" ورضيعتها بين ذراعيها، كانت تبكي على مصير ابنها وابنتها في وقت كانوا ينقلونها مع تلك الطفلة "آواز" ضمن مجموعات أخرى إلى المجهول.

جاءت زيارتي لقرية "قلعة جرملة" أو "التلة البيضاء" التي عشت فيها طفولتي بعد مرور 16 عاماً على حدث الأنفال بمناسبة عودتي للديار واستعادة بعض ما بقي من الطفولة وحفريات يومية كنت انقشها على الصخور المحيطة بالقرية وأبين قدرتي على كتابة أرقام تثبت معاني الحياة بعيدا عن العالم. لأننا كنا فعلاً بعيدين عن العالم ولا نعرف عنه سوى القرى المحيطة بنا. (1980، 1981، 1982، 1983، 1984) كنت انقش هذه التواريخ على الصخور مع اسمي واسم القرية وكأن هناك عاماً آتياً يفني ما جمعناه من عناصر الحياة في تلك القرية البعيدة، وكانت تلك السنوات فاصلة حقيقية بين الحياة والموت.

* جريدة السفير اللبنانية 2004/6/4.

مختارات من مذكرات صالح الحيدري





صدر في الاونة الاخيرة كتاب (مختارات من مذكرات صالح الحيدري) و هو عبارة عن مختارات من مذكرات الفقيد الوطني الراحل صالح الحيدري. يقول الكاتب ممتاز حيدري في مقدمة الكتاب انه "ليس مذكرات الفقيد بكاملها بل ثمة فصول ومواضيع اخرى تنتظر مجيء زمن ارسال دعائم الديمقراطية الحقيقية في العراق"، و "اود ان اشكر الاخ الفاضل مام جلال على مبادرته القيمة في طبع قسم من مذكرات الفقيد الوطني والكاتب السياسي المعروف صالح الحيدري عسى ان يكون مصدرا مهماً في مسيرة النضال التحرري الكردستاني نحو اقامة دولة كردستان الديمقراطية".

ولد السياسي الوطني الكردي المعروف صالح الحيدري في عام 1922 باربيل و هو منظم اول خلية ماركسية في اربيل عام 1942 و في عام 1956-1957 اصبح عضو احتياط في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي.

حسن البنا وبداية التشكيك في المجتمع

فريد اسسرد*

ان طريقة تفكير حسن البنا، مؤسس جمعية الاخوان المسلمين، يسودها قسط من الغموض لأن اسلوبه و سلوكه في العمل تضمن نوعاً من البرغماتية حثه في احيان كثيرة على تغليب مقتضيات السياسة على مقتضيات الدين، كما يتضح ذلك من مواقفه من حزب الوفد ودستور عام 1923 و الملكية. كما انه لدوافع تتعلق بالطريقة التي تم بها تقييم الوضع العام، فضل عدم الافصاح عن افكاره بصراحة ووضوح، على ان ذلك لا ينفي ان تفكيره الديني كان طاغياً على تفكيره السياسي بوضوح كما ان البنا صار في اواخر ايامه اكثر ميلاً الى تغليب المقتضيات الدينية على المقتضيات السياسية.

ويلوح ان البنا رأى في تأسيس الاخوان المسلمين وكأنها فجر عهد جديد وتصر معظم المصادر على ان البنا لم تكن له توجهات سياسية في بداية تأسيس الجمعية وانه ابتغى من وراء ذلك ان تكون الجمعية اداة لحماية الدين في ظروف لم تكن مؤاتية للدين. ان البنا مثل كل مجتهدي عصره رأى ان تقدم الغرب الحضاري وتخلف المسلمين لايغير شيئا من حقيقة ان الاسلام رغم كل شيء هو الارقى روحياً. ومن نافل القول ان البنا كونه مسلماً متحمساً رأى من حقه وواجبه ان يعمل شيئاً من شأنه انقاذ وحماية القيم الدينية. ووفق هذا، يبرز المفهوم القاضي بأن الاهداف الاولية التي تأسست من اجلها جمعية الاخوان المسلمين اقتصرت على الاهداف الدينية ولم تتعدها الى الاهداف السياسية.

انشأ حسن النبا جمعية الاخوان المسلمين في عام 1928 بعد اربع سنوات فقط من الغاء الخلافة العثمانية في تركيا. ويبدو ان معاصري الغاء الخلافة العثمانية من المسلمين المتدينين جزعوا اشد الجزع من ذلك الحدث الجلل اكثر بكثير من الاجيال اللاحقة وهالهم ان يغدو العالم الاسلامي بلا خليفة. ورغم ان السلاطين العثمانيين لم يتخذوا لقب الخليفة الا لاحكام سيطرتهم على الشرق الاسلامي ولدوافع تتعلق بصراعهم مع ايران واوربا، الا ان

المزاج العام في الشرق الاسلامي فهم الخلافة كجزء لايتجزأ من الدين واسبغ عليها القداسة.

ويكشف الجو الذي ساد السنوات الاربع ما بعد الغاء الخلافة، شعورا عاما بالحزن واليأس والاضطراب. وكان البنا واحدا من الوف الناس الذين رأوا انه يجب عمل شيء. وقد نظر الى المسألة من زاوية ان اوربا المسيحية تقف وراء الغاء الخلافة المقدسة وترك المسلمين بلا خليفة. ان الاحساس بالفراغ ساد الشرق الاسلامي كله وفي هذا الخضم برزت دعوات تدعو الى احياء الخلافة بين العرب. ومن الجلي ان التيار الديني السلفي كان يرى في الخلافة ضمانة لدمج السلطتين المدنية والدينية والاستغناء عن القوانين الوضعية. ويدل على ذلك ان محمد رشيد رضا رفض في عام 1923 في كتابه ((الخلافة او الامامة العظمى)) ان تكون الخلافة قاصرة على ادارة الشؤون الدينية كما كان الايطاليون قد فعلوا بتركهم الشؤون الدينية لبابا الفاتيكان وكما قلدهم في ذلك لاحقاً الكماليون الذين هيمنوا على السلطة السياسية تاركين للخليفة عبدالمجيد السلطة الدينية.

واشد ما اثار القلق في السلفيين بعد الغاء الخلافة في تركيا هو فشل المسلمين في احياء نظام الخلافة التي ظلت في مخيلتهم رمزا لعصر تاريخي اعتبروه براقاً ويستحق الثناء. ومهما يكن من امر، فإن الغاء الخلافة في الوقت الذي اثار الماً شديدا للسلفيين، فإنه ايضاً حث على بروز تيار تنويري معتدل وعقلاني بين المسلمين، كما انه دفع مناهج البحث العلمي للجامعة المصرية اشواطاً كبيرة الى الامام. ومن الملاحظ ان كثيرا من تلك المناهج لم تتفق من كل الوجوه مع التعاليم التقليدية للدين. لاحقاً، في عامي 1925و 1926 اثار كتابان لعلي عبدالرازق وطه حسين ضجة كبيرة. اذ شكك علي عبدالرازق في كتابه (الاسلام واصول الحكم) في مضمون نظام الخلافة واعتبره مختلقاً ودنيوياً. وقام هيكل نظرية عبدالرازق اساساً على رؤية معتدلة ترى ان المسلمين يمكن ان يحافظوا على نقاء دينهم دون وجود خليفة. الا ان السلفية لم تستوعب افكاره رغم انه لم يقل شيئاً لا يتفق مع المفهوم العام للاسلام. بالنسبة للسلفية، جاءت طروحات عبدالرازق مخيفة لأن عبدالرازق لم يكن ليبرالياً مثقفاً مثل طه حسين وكتاب آخرين ولم يكن من خريجي الجامعات الاوربية، بل جاء من الازهر نفسه ومن المؤسسة الدينية. لاشك انه لايمكن انكار قلق المؤسسة الدينية من عبدالرازق اكثر من غيره. وهذا يعني ان المؤسسة الدينية والسلفيين احسوا ان الهجوم مكثف لدرجة انه صار يخرج من بين ظهراني المؤسسة الدينية اناس لا يتورعون عن الدعوة الى اسلام مختلف كل الاختلاف عن الاسلام السلفي ويقفون الى جانب المثقفين الليبراليين ضد السلفية والتراث الديني العريق لمصر.

بالنسبة لشعب يعي ضعفه، فإن اكثر السبل فعالية للدفاع عن النفس تكمن في الاصرار على التقاليد والثقافة المحلية والدين. وازاء الاحساس بتفوق العدو، شعر السلفيون انه لم تعد مظاهر

الحنق والاستياء تنفع وان الدفاع والصمود يتطلبان وسائل جديدة.

في هذا الجو المضطرب المفعم باليأس والاحباط، اسس حسن البنا منظمته. وليست ثمة ادلة كافية تفصح عن توجهاته السياسية في تلك المرحلة لكن المرجح هو ان البنا سعى باخلاص و حماس الى اغاثة الدين وتبديد المخاطر. وقد هاجم البنا علانية مظاهر الحضارة الغربية القادمة لتوها الى مصر دون تمييز بين ما هو جيد وسيئ منها. وليس من قبيل الصدفة ان البنا عكف قبل كل شيء على انشاء والحث على انشاء المساجد. وقد طالب بإلحاح بالعمل على زيادة عدد المساجد. ومن البديهي انه لا يعي اهمية المساجد ولا يستشف امكانية استخدامها لكسب الانصار الا متدين واعي وحساس ودقيق الرؤية. وما ان بدأ البنا الخطوة الاولى حتى تلاها بخطوات اراد منها اقناع الناس بأن المدارس العصرية المقامة على النمط الاوروبي غير قادرة على انشاء جيل مخلص لتاريخه وثقافة بلاده. ويفهم من اول خطبة للبنا في مسجد الاخوان بالاسماعيلية انه حاول عدم ترك أي دور للدولة في شؤون التعليم واشار بوضوح الى ان هدف منظمته من بناء المساجد ليس فقط التعبد فيها بل التعليم كذلك معتبرا ان المساجد ليست مجرد معابد بل كذلك مدارس، مشيرا الى ان خريجي المدارس العصرية لا يتخرجون منها الا (وقد تسممت عقولهم بالافكار الخبيثة الفرنجية، وحشيت ادمغتهم بالاراء الالحادية وشبوا على التقليد والاباحية)[1].

على ان الحركة تحولت تدريجيا الى حركة سياسية. ويمكن ان يستدل من ذلك على ان البنا عزم بجد ومثابرة ووفق برنامج دقيق على زج الدين في السياسة وشكل بناءً على ذلك منظمة دينية- سياسية تعتمد على الايديولوجيا الدينية من اجل السيطرة على المجتمع. ان السنوات العشر من 1928 و 1938 تفصح عن تطور في تفكير البنا السياسي وتشير الى ان البنا اقتنع في تلك الفترة بضرورة تحقيق الاهداف المقدسة.

ان السيرورة التي تمحورت فيها افكار البنا الدينية- السياسية لا تبدو واضحة المعالم. وسبب ذلك لا يعود الى ندرة المصادر، بل الى ان البنا اراد متعمدا اخفاء الكثير من اهدافه السياسية لأن الافصاح عنها كانت ستورطه في مشاكل كبيرة.

ورغم ان البنا آثر ان يستفيد من المناخ العام الذي كان الاخوان فيه يمارسون نشاطهم العلني، الا انه لم يتمكن من مقاومة الميل الى تعزيز حزبه بقوات شبه عسكرية. وقد نجم عن ذلك الميل ان الحزب بدأ بتشكيل فرق كشافة وميليشيات مسلحة و منظمة امنية عرفت بأسم التنظيم الخاص مهمتها حماية الحزب واغتيال الخصوم السياسيين. وساهمت في تدعيم هذا الميل حرب فلسطين التي شارك فيها اعضاء الاخوان المسلمين بفعالية. ورغم ان كثيرين يؤولون ميل البنا الى انشاء قوات الميليشيا

المسلحة كونه تأثر بأنماط العمل التي سارت عليها الفاشية في ايطاليا، الا ان هذا حتى لو صح، فإنه لا يلغي ان البنا كان واقعاً تحت تأثير اكبر هو تأثير مفهوم الجهاد المستمد من تراث الاسلام ذاته. ان مفهوم الجهاد عند البنا يتساوى مع الحرب. وقد ورثت كل منظمات الاسلام السياسي لاحقاً هذا المفهوم. ولم يستطع البنا لدواع ايديولوجية ان يفصل بين الجهاد والحرب رغم الجو الليبرالي السائد انذاك في مصر. ويعكس هذا الميل الى العسكرتاريا والترويج لمفهوم الجهاد بالشكل الذي صاغه البنا، ميلاً متزايدا الى تغيير المجتمع بالقوة طالما لم يكن ذلك ممكناً سلماً.

ان افكار البنا عن المجتمع غير واضحة. ولا يعني ذلك ان البنا لم تكن له رؤية خاصة للمجتمع بل يعني انه جهد لإخفاء افكاره وتصوراته. ويلاحظ بهذا الصدد ان الفكرة الاساسية في كل كتاباته تتمحور حول اصلاح المجتمع. ورغم ان تعبير (اصلاح المجتمع) يتضمن مايستشف منه ان البنا لم يكن مرتاحاً لمظاهر كثيرة في المجتمع الا ان طريقة تفكيره التي جعلته ينظر الى كل شيء من منظار الدين ويقيس كل المسائل بميزان المبررات الدينية، تروج للاعتقاد بأن البنا يقصد بإصلاح المجتمع اعادة القيم والتقاليد الدينية المفقودة الى المجتمع.

ان كتابات البنا وخطبه لاتتضمن بوضوح لا لبس فيه ما من شأنه ان يكون دليلاً على تكفير المجتمع والدولة. اما ان يكون البنا قد ادرك ان المفاهيم اللادينية الشائعة في المجتمع لا تتفق مع روح الدين، فذاك لاشك فيه اطلاقاً. لكن هذا لا ينفي ان البنا يكشف في مضامين بعض مقالاته وخطبه استياءً شديدا يكاد يصل الى حد تكفير المجتمع.

في عام 1938 اختار الاخوان اسم (النذير) اسما لمجلتهم الاسبوعية، وهذا الاسم يحمل في طياته معاني جمة، من بينها وهو اخطرها انه ورد في القرآن كتعبير عن رسالة الرب الى المجتمع الوثني للكف عن عبادة الاوثان والتوجه الى عبادة الله. ويؤكد هذا المغزى ان البنا قارن في احدى خطبه كفاح حزبه بكفاح النبي محمد معتبرا ان دعوة النبي محمد في القرن السابع الميلادي الى نبذ عبادة الاوثان هي((العهد الاول))وان كفاح الاخوان هو (عهدها الثاني)[2]. ولم يفرق البنا في هذه الخطبة بين المجتمع الذي عاش النبي محمد بين ظهرانيه وبين ذاك الذي مارس فيه الاخوان المسلمون نشاطهم السياسي.

وفي رسالة وجهها الى الاخوان وفي محاولة لإسباغ مسحة صوفية ارثودوكسية على جميع الذين التفوا حول حزبه، وصف اعضاء حزبه بانهم (روح جديدة، ونور جديد، وصوت داو)[3] وواصل في رسالة اخرى عنونها (الى الشباب) حث الشباب من اعضاء حزبه على نجدة العالم بأسم الله (فالجميع في انتظار المنقذ)[4]. وقد آثر البنا ان يترك تعبيراته تحفل بالكثير من الغموض فهو لم يوضح في رسالته المذكورة الاسباب التي تدعوه الى حث الشباب على نجدة العالم ولم يتطرق الى التهديدات التي تحيق

بالعالم، رغم انه يريد ان يفهم القارئ من خطابه ان ما يمكن ان يتوسم فيه القدرة على نجدة العالم وانقاذه من كل المساوئ فيه على الاطلاق، هو الاتجاه الذي يسير على دربه الاخوان المسلمون.

لقد تعمد البنا ان تكون افكاره العامة غامضة وقد ربط بين استمرار حزبه ومقتضيات السلامة والامن وعبر عن هذا بوضوح في رسالة في عام 1939 قال فيها (احب ان اصارحكم ان دعوتكم(يقصد بها حركة الاخوان المسلمين) مازالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها واهدافها، ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية)[5]. ويقر البنا في رسالته ان فهمه للاسلام يختلف عن فهم المتدينين و (العلماء الرسميين)[6]. لكنه حتى في هذه الرسالة التي تبدو اكثر وضوحاً من رسائله الاخرى، ليس مفهوماً بالضبط الطريقة التي فهم بها البنا الاسلام، كما ان الايماءات والاشارات ماتزال فيها غامضة وغير واضحة رغم الاشارة الى ان هذا الفهم مختلف عن فهم المتدينين. ومن الواضح ان البنا يتعمد التهرب من توضيح هذا الفهم وهو امر يحث على التشكك في نواياه.

وثمة جملة في الرسالة لم تسترع الانتباه بالشكل المطلوب اشار فيها البنا الى انه (سيقف جهل الشعب بحقيقة الاسلام عقبة في طريقكم)[7] وهي جملة بالغة الدلالة ويمكن ان تعد اول اقرار واضح وصريح في كتابات البنا بأن للاسلام حقيقتين، احداهما تلك التي يجهلها الشعب وثانيتهما تلك التي يعرفها الاخوان. على انه حتى هذه الجملة بالغة الدلالة تتضمن كماً كبيرا من الغموض. ويتضمن النص اشارة مجردة الى شعب جاهل. والجهل هو عكس المعرفة. والشعب الجاهل الذي لايعرف حقيقة الاسلام يعني الشعب الجاهل بالاصول الصحيحة للدين والذي يفتقد النقاء والطهارة. وهكذا ينتهي الامر الى ضرورة تبصير الشعب بدينه واعادة النقاء الروحي اليه. وليس من قبيل المصادفة ان تكون كلمتا (الجهل) و (الجاهلية) من الناحية اللغوية ذات اصول واحدة.

وما يؤخذ عليه البنا انه يساوي بين الايمان الديني والايمان بمنهاج حزبه. ويعني عكس ذلك ان الايمان الديني لايستقيم بدون الايمان بمنهاج الاخوان المسلمين. وهذه النظرية التي جاء ذكرها مرة واحدة فقط في كتابات البنا، وردت في احدى رسائله قائلاً (اننا نعلن في وضوح وصراحة ان كل مسلم لايؤمن بهذا المنهج (يقصد منهج الاخوان المسلمين) ولايعمل لتحقيقه لا حظ له في الاسلام، فليبحث له عن فكرة اخرى يدين بها ويعمل لها)[8]. وربما لم ينتبه البنا الى ان صياغة هذه الفقرة بالشكل الذي تم بها يتضمن تكفير المسلمين في جوهره وينتج عن ذلك ان كل المسلمين الذين لا يقرون اهداف الاخوان المسلمين ولا يعملون لتحقيقها(لا حظ لهم في الاسلام) اي انهم غير مسلمين. هذه الفكرة الواردة هنا، بالمقارنة مع ما ورد في الرسالة السابقة، تتضمن كماً اكبر من التشدد، حيث كان وصف المسلمين في الرسالة السابقة بأنهم سيكونون (آثمين) لو تقاعسوا عن بناء الدولة

الاسلامية[9]. والجلي ان القصد من تأثيم المسلمين هو اضفاء شرعية للاهداف التي عمل الاخوان على تحقيقها. ان ذلك تجديد للفكرة القديمة التي ترى ان الاثمين وحدهم لايرغبون في قيام حاكمية الله.

ولا يختلف البنا عن غيره من الراديكاليين في تقديسه للعنف ومحاولته بناء عالم جديد على انقاض عالم محطم. وتشكل هذه الفكرة المحور الرئيس لتفكيره السياسي. ومن الجلي ان البنا آمن ايمانا راسخا بأن العلاقات يجب ان تقوم على مبدأ القوة، ووفق ذلك صاغ سياسته على ميدايين متداخلين هما استغلال تسامح الدولة ازاء النشاطات السياسية العلنية للاخوان لتحويل الحزب الى قوة جماهيرية والعمل في الخفاء على تشكيل قوات مسلحة. هكذا يبدو ان منهج البنا قام اولاً على العمل من الاسفل، اي العمل على السيطرة على المجتمع بالدعاية والدين، تمهيدا للسيطرة على الدولة في وقت مناسب. وهذا الاسلوب هو نفس الاسلوب الذي اتبعه البلاشفة في روسيا والفاشيون في ايطاليا والنازيون في المانيا للسيطرة على المجتمع واحتكار السلطة السياسية. وتستوجب الضرورة هنا الاشارة الى ان هذا لايعني ان البنا حاول ان يستنسخ تجارب روسيا او ايطاليا او المانيا او انه كان واقعاً تحت تأثير بعضها. الا ان ذلك لاينفي ان يكون على المام بجوهر تلك الحركات واساليب عملها.

ويعكس اصرار البناء في سعيه لتثبيت البنيات الايديولوجية لحزبه، على مسألة الجهاد، ميلاً الى اساليب من شأنها ان تعزز القدرة المادية للاخوان. واستنادا الى البناء يستمد الجهاد شرعيته من كونه يشكل عماد الدين. وهو يعبر عن هذه الفكرة بوضوح في (رسالة الجهاد) بقوله ان الجهاد (فريضة لازمة جازمة لامناص منها ولا مفر)[10]. على ان هذه الرسالة رغم اهميتها لفهم طريقة تفكير البنا لا توضح نقطة جوهرية للغاية، وهي انه اذا كان الجهاد واجباً مقدسا، فمن هو العدو الذي يجب الجهاد ضده. لا ريب انه في مثل هذه الادبيات الايديولوجية يكتسب توضيح هذه المسألة اهمية خاصة، في حين ان البنا لا يوضح هذه النقطة ويترك للقارئ تحديد هوية العدو. ويبدو ان مغزى المقالة لايستقيم الا بمساواة الجهاد بالحرب. ولكي يعزز رأيه في ان الجهاد لا يعني غير الحرب، يشكك البنا في صحة حديث نبوي يعطي تفوقاً لـ(جهاد النفس) على الحرب الدينية. وحتى يثبت صحة رأيه، يرفض البنا ذلك الحديث النبوي الذي يروي ان النبي محمد اعتبر الحرب الدينية (الجهاد الاصغر) وان (جهاد القلب) اي جهاد المسلم مع نفسه هو (الجهاد الاكبر). ويعلل البنا رفضه صحة الحديث النبوي بدعوى عدم صحة الحديث وسنده الضعيف.

ويحاول البنا في الرسالة اثبات ان الحاجة الى القتل هي من مقتضيات الدين ويركز على ان اعظم ثواب للمسلم ليس التدين والتقوى واداء الفرائض بل هو (ان يقتل او يقتل في سبيل الله)[11] ودعا الى بناء امة (تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة)[12] حتى يرضى عنها الله.

صفوة القول، ان حسن البنا لأسباب عديدة تتعلق بأسلوبه في العمل وظروف كفاحه، لم ينظم افكاره بحيث يشكل منها نظرية متكاملة في اتخاذ موقف محدد من المجتمع والدولة لكن الاشارات والايماءات الواردة في تلك الافكار المبعثرة تشير الى ما يمكن ان يشكل اساساً لتكفير المجتمع والدولة. وقد عكست دعاية البنا وسياسته في محتواها ميلاً الى اسلمة المجتمع . لكن واقعية البنا ورؤيته الثاقبة للظروف السائدة و مراعاته للتوازنات السياسية لم تشجعه على الترويج لافكاره بوضوح وعلانية. ورغم ان الجيل التالي من الاخوان كان اكثر وضوحا من البنا الا انه كان اقل ميلاً الى الاحساس بخطورة التعبير عن ارائه. وفي حين ان البنا كان يخشى قذف المجتمع والدولة بتهمة التكفير علانية وبجلاء، فان الجيل التالي من الاخوان لم يتورع عن ذلك ابدا بسبب ضعف تجربته و تفاقم روح التطرف في داخله.

المصادر:

1-زهير مارديني، اللدودان الوفد والاخوان، الطبعة الثانية، دار اقرأ، القاهرة، 1986، ص38.

2-السيد يوسف، الاخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والارهاب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص131.

3- المصدر نفسه، ص 144.

4- المصدر نفسه، ص 147.

5- المصدر نفسه، ص146.

6- المصدر نفسه، ص146.

7- المصدر نفسه، ص146.

8- المصدر نفسه، ص148.

9-المصدر نفسه، ص158.

10-محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص و دوره في دعوة الاخوان المسلمين، دار الاعتصام، القاهرة، 1989، ص35.

11- المصدر نفسه، ص52.

12- المصدر نفسه، ص 52.

*مدير مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية في السليمانية و كاتب مهتم بدراسة الاسلام السياسي.

مشكلات الانهار الحدودية: دراسة لمنطقة التحضر الحدودية بين العراق و ايران

د. خليل اسماعيل محمد

المقدمة:

اخذت الانهار الحدودية، تحظى باهتمام متزايد لدى الباحثين و المتخصصين في العالم عموما، و في منطقة الشرق الاوسط على وجه الخصوص، وعقدت في ضوء ذلك، العديد من المؤتمرات العالمية والمحلية، لمعالجة ما يترتب على طرق استغلال مياه مثل تلك الانهار من نتائج اقتصادية و سياسية وديموغرافية.. من بينها: مؤتمر (ستكهولم) الذي جاء فيه: "ان المياه العذبة ستاخذ مكانها الى جانب مصادر الطاقة الاخرى، كقضية سياسية، اساسية، خلال العقد القادم، و ان منطقة الشرق الاوسط اكثر حساسية في هذا الامر"[1].

و من المعروف ان المنطقة المذكورة، و لا سيما خلال النصف الثاني من القرن الماضي، شهدت نقصا مستمرا في احتياجاتها الى المياه، في ظل النمو السريع لحجم سكانها، و عمليات التحول الحضري، و التوسع في استخدامات المياه الزراعية و الصناعية[2]. و جاء في تقرير لمركز الدراسات الاستراتيجية و الدولية في واشنطن (1987)، (انه و بحلول سنة (2000م) سيكون الماء و ليس النفط، وهو القضية الرئيسة في منطقة الشرق الاوسط[3]. كما اخذت الدراسات ذات العلاقة بالمياه، تحمل عناوين تعكس خطورة هذه المسألة، من بينها: (ازمة المياه في الشرق الاوسط)، (الصراع على المياه في الشرق الاوسط)، (حرب المياه في الشرق الاوسط)... حتى ان البنك الدولي اكد في تقريره الذي صدر مؤخرا، على (ان المياه العذبة ستصبح المورد الطبيعي، المسؤول عن اندلاع الحروب في القرن الحادي و العشرين)[4].

ان الخريطة المائية للعديد من بلدان العالم، اخذت تعكس خطوطا متشابكة التداخل في احواض انهارها، و في استثمار مواردها المائية، مما يترك فاعلية، و درجة هذا الاستثمار رهينة بالعلاقات

القائمة بين الدول المعنية، و التي تقوم اساسا على مبدأ (القوة) اولا، و مدى الاحترام المتبادل للاتفاقات القائمة بينها ثانيا[5].

و مع ان الاتراك، و العرب، و الايرانيين، و حتى الاسرائيليين.. يسعون بجدية للوصول الى (الامن المائي) في بلدانهم، الا ان الكرد، و هم اكثر شعوب المنطقة امتلاكا لمصادر المياه العذبة، و اقلهم اهتماما، و ابعدهم في التخطيط لها.

و في هذه الدراسة، محاولة لتحديد الانهار الحدودية في منطقة التخضر الحدودية بين العراق و ايران، و المشكلات التي تولدت بسبب استخدامات مياه تلك الانهار، و ما عكسته من نتائج اقتصادية و سياسية و ديموغرافية على سكان المنطقة.

الموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة:

تتمثل منطقة الدراسة في التقعر الحدودي بين العراق و ايران ابتداءً من جنوبي حلبجة في محافظة السليمانية، و انتهاءً بـ(بدرة) في محافظة واسط. لاحظ خريطة رقم (1). و تضم بذلك اقضية خانقين و مندلي (بلدروز حاليا)، و بدرة.

لقد ورث العراق حدوده الشرقية من الدولة العثمانية، عبر اتفاقيات و معاهدات و بروتوكولات، عديدة، امتدت لاكثر من اربعة قرون مع الايرانيين.. و مع كثرة هذه الاتفاقيات، و التطور في عمليات المسح، و في الآلات و الاجهزة المستخدمة في رسم الخرائط، الا ان ترسيم تلك الحدود، لا يزال يعاني من عدم الاستقرار، يتجلى ذلك في التجاوزات المستمرة على طرفي الحدود من جهة، و تصاعد الازمات بين البلدين من جهة اخرى، كانت حرب الثماني سنوات (1980-1988) من اهمها[6].

و لعل ابرز مظاهر ترسيم الحدود بين العراق وايران، هو ذلك التخضر الذي اتسمت به منطقة الدراسة، حيث تقترب الحدود كثيرا من العاصمة العراقية (بغداد)، فلا تزيد المسافة بينهما على (150كم)، و ذلك بعد الحاق منطقة (بدرة – جصان – مندلي – دارتنك - سرميل) و امتدادها الى مقاطعات شهرزور بالدولة العثمانية وفقا لمعاهدة (1639) و التي عدت اساسا للمعاهدات التالية لها[7].

و من نتائج ترسم تلك الحدود:

1-سيطرة ايران على معظم منابع الانهار الرئيسة في منطقة الدراسة، و روافدها.

2-هيمنة ايران (استراتيجيا) على المنطقة، من خلال اشرافها على السهول الممتدة باتجاه العاصمة العراقية (بغداد).

3-تقسيم (آبار النفط) على جانبي الحدود، حيث اصبحت آبار (نفطاه) في الجانب الايراني من الحدود، و آبار (النفطخانه) و (ضيا سورخ) في الجانب العراقي.

4-تجزئة الشعب الكردي بين الدولتين العراقية و الايرانية.

الانهار الحدودية:

نعني بـ(الانهار الحدودية)، المجاري المائية التي تمثل او جزء منها، حدودا بين الدولتين العراقية والايرانية. فمن المعروف ان عددا من المجاري المائية

التي تقع منابعها في الجانب الايراني، اتخذت اساسا لترسيم الحدود بين البلدين بحيث كانت تسير مع وسط النهر او مع احدى خفتيه، و قد تتقاطع معه..[8].

لقد اثارت، مثل تلك الانهار، و لا تزال، الكثير من الازمات بين البلدين الجارين، و مع انها كانت (اقتصادية) في ظاهرها، الا انها كانت تخفي ابعادا سياسية و امنية، الامر الذي جعل من (منطقة الدراسة) بؤرا لصراعات مستمرة، عكست نتائجها على سكان المنطقة بشكل مباشر او غير مباشر كما ستظهره هذه الدراسة.

مشكلات الأنهار الحدودية:

تمثل الانهار الحدودية في خرائط العالم السياسية، مواقع فاصلة بين الكثير من دول العالم. وقد خصصت لها المؤتمرات. و المؤسسات، و التجمعات المحلية و العالمية، حيزا واسعا من التشريعات و القوانين لتنظيم استغلال مياهها و حل مشكلاتها.. و يتجاوز عدد هذه الانهار الحدودية (215) نهرا دوليا رئيساً لايزال عدد كبير منها دون تنظيم قانوني شامل[29].

ان المسألة المائية في ضوء ما سبق، هي مسألة حدود بين دول تملك منابع مياه الانهار و مصادرها، و اخرى تجري فيها.. و هو صراع تصاعد اخيرا في ضوء المتطلبات المتزايدة للمياه، سواء بسبب ارتفاع وتائر نمو سكانها، او تنامي خطط استخدامات مياه الانهار.. ناهيك عن المبادىء التي تقوم عليها عمليات التوزيع و الاستهلاك، مما يعني ان قضية المياه العذبة باتت تحتل اهمية مركزية لدى شعوب المنطقة، و غدت تنذر بالانفجار بعد ان اصبحت وسائل (ضغط) سياسي لدى الدول المالكة لمنابعها[10].

و تنبع مشكلات الانهار الحدودية من[11]:

1-التغيير المستمر لمجرى النهر، او في كمية مياهه الجارية.

2-طبيعة التغيير في استغلال مياه الانهار الحدودية، من بينها اقامة السدود و انشاء القنوات..

3-بناء المنشآت السياحية كالبحيرات و منشات النقل.

4-ظهور التلوث في مياه الانهار.

و قد يبدو من الطبيعي ان تسير الحدود مع خطوط تقسيم المياه، بحيث تضمن لكل دولة حرية التصرف في منابع انهارها، بيد ان ثمة مشكلات قد تنشأ على هذا الاساس، من بينها: تعرض قمم الجبال للتعرية، و تغيير موضع امتداد خط الحدود، و عدم تمييز اعلى القمم و خطوط تقسيم المياه، ولاسيما في حالة وجود الوديان و الاحواض السهلية و الممرات المعترضة او بسبب سطوة الطرف الآخر في الاستحواذ على المناطق المرتفعة[12]. و هنا ينبغي الاشارة الى ان خط قمم الجبال او تقسيم المياه بصفة مطلقة، امر غير مرغوب فيه، بل من المهم الانتباه الى وحدة السكان على طرفي الحدود، وتركيبهم القومي او الديني و هو ما تجاوزته معاهدات ترسيم الحدود العراقية – الايرانية[13]، مما كان له دوره في تأجيج الصراع في منطقة الدراسة على وجه الخصوص.

و قد اختلف فقهاء القانون الدولي، بشان حقوق الدول في مثل هذه الانهار فمنهم من يرى ان للدولة حق السيادة المطلقة في التصرف في الجزء الذي يقع في اقليمها من مياه النهر دون الاخذ بنظر الاعتبار الدول المتشاطئة الاخرى، مستندا في رأيه هذا الى مبدأ (السيادة المطلقة). و لاشك ان هذا (الحق) يصار الى الضرر بحقوق الاخرين. و منهم من يرى وجوب تقييد حق السيادة، مستندا في ذلك الى ضرورة رعاية مبدأ حسن الجوار بطريقة تخدم مجموعة الدول المشتركة في النهر[14].

و من النظريات الخاصة بتنظيم استثمار موارد مياه الانهار الدولية:

1-نظرية السيادة الاقليمية: و تعطي هذه النظرية الحق المطلق للدولة في السيطرة الاقليمية على المياه التي تجري في اراضيها، دون اعتبار لحقوق الدول الاخرى.

2-نظرية الوحدة المطلقة: و تعتبر هذه النظرية حوض النهر من منبعه و حتى مصبه، وحدة اقليمية متكاملة بغض النظر عن الحدود السياسية. و للدول الحق في الانتفاع بمياه الجزء الذي يجري في اراضيها على ألا تضر بحقوق الدول الاخرى.

3-نظرية الملكية المشتركة: و يرى اصحاب هذه النظرية، ان النهر من منبعه و الى مصبه، هو ملك لجميع الدول المشتركة في حوضه حسب احتياجاتها بحيث تتساوى حقوقها فيه[15].

و مع كثرة التخريجات في هذا الصدد، فإن ثمة من يرى ضرورة وجود قاعدة اساسية تقضي بامتناع الدولة عن القيام باية اعمال من شانها الاجحاف بحقوق الدول المجاورة او الضرر بها[16].

و هكذا تباينت العلاقات بين الدول المتشاطئة للانهار، فمنها ما اقيم مستهديا بنصوص و احكام واتفاقيات و معاهدات تنظم استخدام المياه واستعمالاتها على اساس المؤازرة و التعاون و التفاهم المشترك، مراعاة لمصالح الدول المعنية، و منها ما قام على غير ذلك.. مما قد يتسبب في حدوث صراع وازمات قد تقود احيانا الى الحرب و القتال[17].

لقد نصت معظم الاتفاقيات الخاصة بالانهار الحدودية، و من بينها: قرارات الدورة الـ(48) لجمعية القانون الدولي لسنة 1991 في نيويورك التي جاءت توكيدا لقرارات مؤتمر (هلسنكي) لسنة 1966، على ما يأتي:

1-ان اية دولة ترغب في اجراء تعديلات في الافادة من نهر معين عن طريق تحويل مجراه او اقامة سد عليه، ينبغي لها الدخول في مفاوضات مع الدول الاخرى المعنية للحصول على موافقتها.

2-ان على الدول ذات العلاقة، ان تاخذ بنظر الاعتبار حاجات الدول المتشاطئة الاخرى عند عزمها على القيام باي عمل من شأنه ان يغير طبيعة مجرى النهر او كمية مياهه[18].

و ورد في التقرير الذي تقدم به خبراء دوليون الى لجنة القانون الدولي في جنيف بدورة (اديس ابابا) سنة 1990 مايأتي:

1-الاعتراف بحق كل دولة من دول الحوض التي يجري فيها النهر الدولي بالانتفاع المنصف من مياهه،

باعتباره حلا وسطا بين مفهوم الانتفاع الواسع والانتفاع الضيق (المحدود).

2-التعاون الايجابي بين دول الحوض بهدف تنمية استثمار المياه، و هذا يعني امتناع الدولة في اي تغيير لمجرى النهر او كمية مياهه دون علم الدول الاخرى[19].

و اضافت الامم المتحدة سنة 1991 عليه ما يأتي[20]:

1-تبادل المعلومات حول استفادة المياه بين الدول المشتركة.

2-حل مشكلات المياه بالطرق السلمية و الحوار.

و في سنة 1997، اكدت الامم المتحدة في اتفاقية جديدة حول استخدامات المجاري المائية الدولية (غير الملاحية) على مبدأ التقسيم العادل او النصف، و عدم التسبب في الضرر بالدول الاخرى، و التعاون فيما بينها و تبادل المعلومات على نحو منتظم[21].

و على اساس النظريات المذكورة آنفا، فان النظرية الاولى تعطي ايران الحق في استغلال مياهها الحدودية مما يعني الحاق الضرر بحقوق العراق المائية، فيما تعطي الثانية الحق في استثمار موارد مياه الانهار المشتركة بشكل يضمن مصالحه، و هذا يعني عدم التغيير في مجرى الانهار او استثمارها بشكل يضر بالعراق. و تقضي النظرية الثالثة بضرورة الاتفاق و التعاون بين البلدين في كيفية استثمار مياه تلك الانهار[22].

الأنهار الحدودية:

يبلغ عدد الانهار الحدودية على امتداد الحدود العراقية - الايرانية (25) نهرا، تتوزع على المحافظات الشرقية من العراق، بدءا من محافظة اربيل، و انتهاء بمحافظة البصرة. و تظهر اهمية هذه الانهار في انها:

1-تشكل في جزء او اكثر من مجاريها حدودا اساسية بين العراق و ايران.

2-تستغل في ارواء المحاصيل الزراعية و في تربية الحيوان.

3-تعد المورد الاساس للشرب و الاستعمالات المنزلية اليومية للسكان.

و تتباين اهمية الانهار الحدودية هذه، تبعا لكمية المياه التي تجري فيها، و خصلتها و نوع الاراضي التي تجري عليها، و طريق استغلالها و سرعة جريانها، و المناخ السائد بالاضافة الى نمط العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية على الحدود، ناهيك عن طبيعة الوضع الامني و السياسي بين البلدين.

و من اهم الانهار الحدودية في منطقة الدراسة هي:

1-نهر قورهتو:

ينبع هذا النهر من المرتفعات الايرانية المجاورة، و يمثل جزءا من الحدود العراقية - الايرانية مسافة 38كم قبل ان يدخل الاراضي العراقية في موضع (تنكي حمام)[23]. و يصب في نهر سيروان (ديالى) مقدم جدول بلاجو. و يسقي نهر قورهتو، البساتين و الاراضي الزراعية في ناحية قورهتو المتابعة لقضاء خانقين.

لقد جرى التعامل مع مياه النهر المذكور بين السكان على طرفي الحدود، في ضوء الاعراف الدولية

المعتمدة، و ذلك على اساس خمسة ايام للمزارعين في الجانب العراقي، و مثلها، للايرانيين[24]. و مثل هذه الاعراف جرى الاتفاق عليها و لسنوات طويلة دون ان يخل بها اي من الطرفين المتعاقدين، و قد اعتمدتها محكمة العدل الدولية كأساس للعمل[25].

2-نهر الوند:

يتسلم نهر الوند مياهه من مرتفعات (كرند) الايرانية و على ارتفاع (2000م) عن مستوى سطح البحر. و يتكون من التقاء رافدي (الوند) و (سوكرم)، و يدخل الاراضي العراقية على بعد (8كم) شرقي مدينة خانقين. و يصب في نهر سيروان شمالي قصبة جلولاء بقليل. يروي نهر الوند مساحات زراعية واسعة، و تتفرع على جانبيه مجموعة قنوات تزود المنطقة الممتدة بين الحدود العراقية – الايرانية و نهر ديالى بالمياه، و من هذه القنوات حاجي قره، قولاى، علياوه، و خانقين. و مع ذلك فإن ما يقارب من 80٪ من مساحة حوضه تقع في الجانب الايراني[26].

3-طلال كنكر:

تقع منابعه عند السفوح الغربية لمرتفعات زاكروس، شرقي بلده مندلي. و يدخل الاراضي العراقية عند مضيق كومهسنك. و بعد ان يجري في منطقة متموجة ترفده مجار قصيرة، يصب في هور الشويجه في محافظة واسط[27].

يتفرع من الطلال، عدد من القنوات لارواء حقول و بساتين مدينة مندلي و ما حولها، و هي: باغ، الجيزانى، السوق، جنى، فلشت، و الموالح[28].

4-اب نفت (وادى المنفط):

ينبع من السفوح الغربية لمرتفعات زاطروس جنوبي النفطخانة، و بعد وصوله الاراضي العراقية يتجه لسقي مقاطعتي النفط و طحماية الى الغرب من قصبة مندلي، و يصب في هور الشويجة. تجري فيه المياه وقت سقوط الامطار، و مياهه في الغالب مالحة. و يكون في قسم منه حدودا بين العراق وايران[29]. انظر خريطة رقم (2).

5-كنجان ضم:

ينبع هذا النهر من المرتفعات الايرانية المجاورة للحدود العراقية – الايرانية، و بشكل خط الحدود بين البلدين، حيث يسير في منتصف المجرى و لمسافة (13كم). يبلغ طوله من منبعه حتى ملتقاه بـ(كاني رود) حوالى 77كم[30]. و بعد التقائه رافده هذا، يسمى بـ(طلال بدرة). و يشكل الرافد المذكور في جزء منه ايضا حدودا بين العراق و ايران.

6-طلال بدرة:

سبقت الاشارة الى ان الطلال يتكون من التقاء كنجان ضم برافده (كاني رود)، و بعد (13كم) من هذا الالتقاء يجرى في سهل مهران قبل دخوله الاراضي العراقية ليروي سهل زرباطية في العراق، بعد ان يشكل حدودا بين العراق و ايران و يصب في هور الشويجة[31]. لاحظ خريطة رقم(3).

و يعد كلال بدرة، موردا حيويا للمنطقة السهلية من بدره – زرباطية – جصان، و يخرج من جانبيه (12) جدولا تسقي تلك المنطقة، بيد ان كميات مياهه تتسم بالتذبذب، كما انها مالحة و غير مستساغة للشرب[32].

تطورات المشكلة المائية في المنطقة:

يمر خط الحدود بين العراق و ايران عبر قمم جبلية و اراض وعرة، تعد المنابع الاساسية للعديد من الانهار التي تجري غربا باتجاه الاراضي العراقية، و من الملاحظ، انه لم تكن ثمة ازمة مياه بين الدولتين الجارتين قبل تأسيس الدولة العراقية، تقوم على طبيعة استثمار مياه تلك الانهار، لذلك فإن معظم المعاهدات بين البلدين، كانت تركز على حركة العشائر، و لاسيما الرعاة عبر الحدود و شؤون الحج و زيارة المراقد المقدسة و الضرائب..[33]، باستثناء مياه شط العرب..

ومن جهة اخرى، فان بروتوكولات طهران – القسطنطينية (1911-1914)، كانت قد حددت مياه نهر طنطير على اساس المناصفة بين منطقتي سومار الايرانية و مندلي العراقية. و يبدو ان التوسع في استخدام مياه الانهار الحدودية، جعل الحاجة الى المياه تزداد باستمرار، كما ان المواقف غير الودية بين البلدين، ولاسيما بعد تاسيس الدولة العراقية، دفع ايران الى (التحكم) بمنابع مياه الانهار الحدودية، كورقة ضغط في علاقاتها السياسية مع العراق، و من مظاهر ذلك:

1-القيام بتغيير مجرى عدد من الانهار الحدودية و الروافد التي يعتمد عليها سكان المراكز الحدودية في العراق.

2-اقامة الخزانات و السدود على مثل تلك الانهار و تحويل مياهها الى مناطق اخرى.

3-حجز المياه العذبة و ترك مياه المباذل تتجه الى الاراضي العراقية.

لقد احس سكان منطقة مندلي مع اقتراب نهاية العقد الاول من القرن الماضي، بنقص في كميات المياه الضرورية لهم و لحيواناتهم و مزارعهم.. و قدموا الى والي بغداد، اقتراحا بإنشاء خزان لجمع المياه، الا ان قيام الحرب العالمية الاولى، اعاق تنفيذ ذلك[34].

ومن بين المقترحات الاخرى المقدمة لحل ازمة مياه طلال طنطير.

1-ان تشتري الحكومة العثمانية او بلدية مندلي، وادي سومار، او

2-ان تشتري قسما من مياه النهر العائد للجانب الايراني في منطقة سومار، الا ان الايرانيين رفضوا هذه المقترحات[35].

و تصاعدت ازمة المياه خلال الفترة بين سنتي (1925-1926) بحيث انقطعت عنهم مياه طلال طنطير مرات عدة، و على فترات مختلفة، الامر الذي تسبب في تهديد الحقول و البساتين..[36] و في سنة 1931، تم طرح العديد من المشاريع من قبل ابناء المنطقة، من بينها شق قناة من نهر ديالى، او بناء خزان كبير على مدخل الطلال الا انها لم تلق آذانا صاغية، كما ان اجراءات السلطات العراقية لم تكن بمستوى الازمة. مما دفع السكان دفع (اتاوات) سنوية احيانا، للايرانيين بهدف استمرار جريان المياه في النهر، او يعهدون الى ذلك بالقوة[37].

و في منطقة (بدرة) لم تتبلور ازمة المياه فيها حتى العقد الثالث من القرن الماضي، و ذلك بعد ان سعت ايران الى التوسع في المساحات الزراعية بهدف استيطان القبائل الرحالة في منطقة (منصور اباد)،

و حفر قناة جديدة، و بناء سد في المنطقة، مما دفع العراقيين رفع القضية الى عصبة الامم سنة 1934[38]. و قد تسبب استثمار مياه كيخان ضم في حرمان سكان منطقة بدرة – زرباطية من حصتهم المائية المقررة، و ذلك على اساس 3/5 للجانب العراقي و 2/5 للايرانيين، وفقا لما جاء في محاضر جلسات توسيون الحدود لسنتي (1913 - 1914). الا ان ايران ردت على اعتراض العراقيين، في ان مواطنيها المقيمين على النهر هم اولى بالاستفادة من مياهه[39].

اما بالنسبة الى منطقة خانقين و التي يعتمد سكانها على نهر الوند في الزراعة و في استعمالاتهم اليومية، فان تحويل مياهه سنة 1953، و شق جدول قرب قصر شيرين باتجاه خسروي (مقابل مدينة خانقين). عرض المنطقة الى ازمات مائية حادة، و الحق الضرر بامزارعين. ولاسيما بداية العقد السادس من القرن الماضي[40]. كذلك الحال بالنسبة لنهر (قورقتو) شمالي خانقين، فمع ان العرف السائد يومها على تقاسيم مياهه على اساس خمسة ايام لكل طرف، الا ان اقامة سدود مؤقتة في الجانب الايراني من النهر، حالت دون وصول المياه الى منطقة قورقتو بالشكل المطلوب[41].

ان مثل هذه الظواهر، ذات العلاقة باساليب استغلال مياه الانهار الحدودية في منطقة الدراسة، سببت، ولاشك، الكثير من المعاناة لسكانها، ولاسيما في نتائجها الاقتصادية، الديموغرافية، و القومية مما يتطلب دراستها بالتفصيل.

النتائج الاقتصادية:

لقد هيا الموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة مجاورتها الحدود العراقية – الايرانية، و الاهمية المنسبية للانهار و المسيلات التي تجري فيها، ولاسيما في اثناء سقوط الامطار و بعد ذوبان الثلوج.. وخصوبة التربة، بالاضافة الى ظهور النفط فيها بكميات تجارية و مرور طريق (خراسان) الدولي عبر المنطقة، كل هذه العوامل، اوجدت فيها مراكز جذب للسكان بما ولدته من حركة تجارية متصاعدة، ونشاطات خدمية مختلفة، ولاسيما خلال الفترات التي تحسنت فيها الخلافات بين العراق و ايران. ولذلك فإن منطقة الدراسة شهدت خلال العقود الاولى – و قبل ان تتعقد ازمة المياه فيها – من القرن الماضي ارتفاعا في وتائر نمو سكانها، لاحظ خريطتي (4 و 5).

بيد ان هذا الموقع الجغرافي، و تلك المميزات، بالقدر الذي ساهم في ارتفاع نمو سكان منطقة الدراسة، كان له دور سلبي في توريط – سكانها في اتون مواجهات طويلة تعكس تردي العلاقات بين الدولتين من جهة و تطورات الوضع في اقليم كوردستان العراق من جهة اخرى و خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين[42].

ان التوسع في استغلال مياه الانهار الحدودية في منابعها الرئيسة، تسبب في تدمير الاقتصاد الزراعي – الحيواني في المنطقة، ففي ناحيتي مركز قضاء مندلي (قضاء بلدروز) حاليا، و قزانية، اختفت الزراعة الصيفية تماما و اقتصرت على الزراعة

الشتوية، و على الاخص محصولي الحنطة والشعير، كما انخفضت مساحة البساتين الى النصف بين عقدي الثلاثينيات و السبعينيات من القرن الماضي. فبينما بلغت مساحة الاراضي الزراعية في الناحيتين المذكورتين، و قبل انقطاع المياه عنهما، نحو (83) الف دونم في الاولى و (45.550) دونم في الثانية، و مساحة البساتين الحمضية اكثر من الفي دونم، و هي تعادل 10٪ من مساحة بساتين محافظة ديالى، و بلغ عدد الاشجار الحمضية نحو (131068) شجرة، اضافة الى الانتاج الواسع للفواكه الاخرى[43]. فان نقص المياه سرعان ما تسبب في تدهور ذلك الانتاج حين اخفضت مساحة البساتين الحمضية على نحو 87٪ معتمدة على العيون و الابار، كما قلت مساحة البساتين الاخرى بنسبة 75٪و التمور الى اقل من 28٪، والفواكه الى النصف[44].

و في منطقة (بدرة) فان اقامة السدود على نهر كنجان ضم، و شق القنوات لتحويل مياهه، ادى الى انخفاض المياه في طلال بدرة، مما ترك آثارا سلبية على الانتاج الزراعي، فبعد ان كان مجموع الاراضي المزروعة يتجاوز (100) الف دونم، انخفضت الى (15) الف دونم فقط، كما انخفضت المساحة المزروعة بالمحاصيل الحقلية من (32.500) دونم الى (22.37) دونم، و مساحة البساتين من (3390) الى (2980) دونما، واقتصرت على النخيل، بينما كانت تزرع بانواع المحاصيل من بينها الحمضيات[45].

النتائج الديموغرافية:

سبقت الاشارة الى ان منطقة الدراسة، كانت تضم مراكز جذب السكان، قبل ان تشتد ازمة المياه، و تعمل على تدمير الاراضي الزراعية و المزارع والبساتين، الامر الذي اضطر السكان الى البحيرة بحثا عن فرص افضل للعيش. فمدينة (خانقين) المجاورة للحدود العراقية – الايرانية، كانت حافلة بالحركة والنشاط التجاري، ولاسيما مع ايران و الباكستان والافغان.. كما كانت ذات اسواق منظمة و شوارع معبدة و واسعة منذ عهود مبكرة لدرجة كانت تنافس مدينة بعقوبة (مركز محافظة ديالى)، بل كانت (تضاهي مدن العراق الرئيسة)[46].

و قد عزز من اهمية هذه المدينة، ظهور النفط الى الشمال و الجنوب منها، فحقول النفط خانه تقع (40كم) جنوبها، كما ان حقول نفط (ضيا سورخ) تمتد الى الشمال بمسافة مقاربة. و قد تأسس الى الجوار منها اقدم مصفى للنفط في العراق و هو (مصفى الوند).

و تعد مواسم الحج و الزيارات الدينية للمراقد المقدسة في العراق و ايران، فرصا لنشاط الحركة التجارية في المدينة، حيث يمر منها طريق خراسان الذي يربط بغداد بطهران – كما ذكرنا – الامر الذي وفر فرص عمل متنوعة لسكانها[47].

اما مدينة (مندلي)، و التي تقع على بعد عدة كيلومترات من الحدود العراقية – الايرانية فقد ذكرها الحسني: بأنها كثيرة العيون و القدرات المتفجرة، و تنشر في اطرافها البساتين و الفواكه

والتمور المشهورة، ما جعلها ذات سمعة خاصة في العراق[48]، و يضيف الحسني بأنها كثيرة النفوس، و لا يقل حجم سكانها عن حجم سكان مدينة خانقين، كما ان لاهلها علاقات وثيقة مع سكان الطرف الآخر من الحدود. و قال عنها الكاتب (روذبياني): كانت تضم سوقا طويلة فيها (358) حانوتا موزعة على تيسريات عدة من بينها: آل النقيب، الوقف، آل المبندينجي، آل شكير[49].

و الى جانب الاهمية التأريخية لمدينة (بدرة) في محافظة واسط، فقد اشتهرت بمزارعها و بساتينها، و تمثل أحد المراكز التجارية، حيث تقع بالقرب من حمر يخترق جبال ششتكوة باتجاه كرمنشاه (بختران)، و اصفهان، كما كانت عامرة بالسكان.

بيد ان الاحوال في منطقة الدراسة، تغيرت كثيرا خلال العقود التالية ولاسيما في النصف الثاني من القرن الماضي، بعد ان اخذت و تاثر (ازمة المياه) تتصاعد في المنطقة، الى جانب الازمات السياسية بين العراق و ايران، الامر الذي اخذ يهدد مستقبل سكان المنطقة، حيث اضطر الالاف منهم الى الهجرة، الى جانب حملات (التسفير) التي طالت آلافا اخرى بحجة (التبعية الايرانية)، و ذلك كلما اشتدت الازمات السياسية او المناوشات العسكرية بين البلدين. و تشير الدراسات (ذات العلاقة)، الى ان عدد النازحين من مندلي خلال الفترة بين (1957-1965) بلغ (19.810) مهاجر، و ذلك بمعدل (2476) سنويا، و استمر هذا النزوح خلال السنوات التالية (1965-1970) و بمعدل قريب من ذلك[50].

و يكشف الجدول رقم (1) التباين في نسب الزيادة لسكان الوحدات الادارية لمنطقة الدراسة، فبينما اتسمت تلك النسب بالارتفاع في عموم محافظتي ديالى و واسط، الا انها كانت تميل الى الانخفاض بين سكان منطقة الدراسة. ففي جدول رقم (1)

سكان عدد من الوحدات الادارية في محافظتي ديالى و واسط بحسب نسب الزيادة السنوية (51)

الوحدة	1947-1970	1970-1987
مركز ق. خانقين	2.7	(0.4)-
مركز ق. مندلي	(1.1)-	(4.1)-
مركز ق. بدرة	(2.4)-	(3.2)-
قضاء خانقين	3.9	(0.3)-
قضاء مندلي	0.7	0.1
قضاء بدرة	(0.4)-	(2.4)-
محافظة ديالى	3.1	6.2
محافظة واسط	2.2	4.0

محافظة ديالى تجاوزت نسب الزيادة (3٪) سنويا بين (1947-1970) و ارتفعت الى اكثر من 6٪ للسنوات بين (1970-1987)، مثلما تميزت بذلك ايضا محافظة واسط، حيث تجاوزت في الفترة الاولى 2٪، و بلغت 4٪ سنويا في الفترة الثانية الا ان نسب الزيادة في الوحدات الادارية في منطقة الدراسة كانت تميل عموما الى الانخفاض، او انها كانت تقل عن المعدل العام في المحافظة التابعة لها. ففي قضاء خانقين كانت الزيادة تقل عن 4٪ سنويا خلال

الفترة الاولى (1947-1970) لكنها اخذت تنخفض في سنوات ما بين (1970-1987)، و في قضاء مندلي كان الانخفاض في حجم سكانه نحو 1٪ سنويا خلال الفترة الاولى، لكنه تجاوز (4٪) سنويا خلال الفترة التالية. مثلما كان الانخفاض في حجم سكان قضاء بدرة مستمرا على طول الفترتين، مما يعكس التباين الشديد في وتائر نمو السكان بين الوحدات الادارية لمنطقة الدراسة، و عموم محافظتي ديالى و واسط.

و من الملاحظ، ان المراكز الرئيسة لمنطقة الدراسة كانت ايضا، تعاني من انخفاض في حجم سكانها، ولاسيما خلال عقدي السبعينيات و الثمانينيات لاحظ جدول رقم (2). فمدينتا خانقين و مندلي كانتا في عقد الاربعينيات

جدول رقم (2)

سكان عدد من المراكز الحضرية في منطقة الدراسة

بحسب نسب الزيادة السنوية[52]

المدينة	1947-1970	1970-1987
خانقين	7.7	-(2.1)
مندلي	1.5	-(5.9)
بدرة	(0.3)	-(5.2)
جصان[*]	-(0.2)	1.5
زرباطية	-(0.6)	-
حضر العراق	8.8	7.0

[*] للفترة (1957-1970)

تتنافسان مدينة بعقوبة في حجم السكان، كما اشرنا، الا ان حجم سكان المدينة الاخيرة اخذ يزداد بسرعة حادة تجاوزت (30)٪ سنويا، خلال الفترة بين (1947-1987)، بينما كانت نسب الزيادة تقل عن 8٪ في مدينة خانقين خلال الفترة الاولى، ثم اخذت تميل الى الانخفاض في الفترة بين (1970-1987) مثلما كان الوضع في المراكز الحضرية الاخرى لمنطقة الدراسة. جدير ذكره، ان نسب الانخفاض كانت على اشدها في عقدي السبعينيات والثمانينيات، الامر الذي يعكس ليس مشكلة ازمة المياه في المنطقة حسب، بل ايضا ظروف عدم الاستقرار التي تمثلت بقيام ثورة ايلول سنة 1961، و الحرب العراقية – الايرانية التي استمرت في الفترة بين (1980-1988)، و كانت منطقة الدراسة احدى ابرز ساحاتها.

النتائج القومية

لقد كانت من نتائج الصراع بين الدولتين العثمانية و الايرانية، تجزئة الشعب الكردي بين الدولتين، و جاءت الاتفاقيات و المعاهدات التي عقدها الطرفان لترسخ هذه التجزئة، الامر الذي دفعهم الى الرفض المستمر، متمثلا في الانتفاضات والثورات الدائمة على طرفي الحدود. و كان الكرد الفيليون قد عانوا من تلك التجزئة، الكثيرة، و تؤكد الدراسات في هذا الصدد، على ان الكرد الفيليين في منطقة الدراسة كانوا يشكلون غالبية السكان حتى وقت قريب. و يشير (الحسني) الى ان معظم – سكان مندلي يتكلمون باللغتين الكردية و الفارسية[53].

وورد في الوثائق العثمانية (السالنامه لسنة 1911)، ان المدينة المذكورة كانت تضم ستة احياء، هي: قلعة جميل، قلعة بالي، النقيب، بوباقي، السوق الكبيرة، ومحلة قلم حاجي[54] و جاء في كتاب المرحوم (محمد امين زكي)[55]، ان في المدينة ثلاثة احياء، أحدهـا كردي باكمله، كما ان محلة (قلم حاجي) من اتباع ديانة كردية قديمة، و يتكلمون الكردية و قليلاً من الفارسية. و يذكر الكاتب (روذبياني): ان مندلي من البلدان الكردية القديمة، عاشت تحت حكم الامارات الكردية المختلفة: كالحسنوية و العيارية و الجاوانية، و الامارة البابانية، و كان اهلها يتكلمون اللغة الكردية[56]، لكن خضوعها للحكم العثماني، واستمرار زحف القبائل العربية اليها من الغرب والجنوب الغربي[57] اوجد مواقع للتركمان و العرب، حتى عدها صاحب (قاموس الاعلام) التركي بأن نصف سكانها كرد و نصفهم الآخر من العرب[58].

و من الملاحظ ان سكان مندلي، كانت تربطهم علاقات اجتماعية و اقتصادية بسكان الطرف الآخر من الحدود، كما كانوا يرسلون اطفالهم الى قرى مرتفعات بشتكوه الايرانية المجاورة، حتى اذا ماشبوا اعادوهم الى اهلهم[59]. و تشير الدراسات الى ان (70٪) من سكان المدينة كانوا من الكرد، فيما كان التركمان و العرب يمثلون النسبة الباقية[60]، و في ضوء نتائج احصاء السكان لسنة 1947، بلغت نسبة الكرد (50)٪ من مجموع سكان قضاء مندلي، فيما تجاوزت (80)٪ في قضاء خانقين[61]. و يقول الحسني: (ان معظم سكان قضاء مندلي يتكلمون اللغة الكردية، و يتكلم آخرون الفارسية او التركية، و قد يتفاهمون باللغة العربية، و لكن برطانة شديدة[62]. و اشار (لونكريك) الى ان (قصبة) بلدروز تقع على نهر الروز بين بعقوبة و مندلي، حيث يتخلى العرب الى اللر[63].

و عن قضاء (خانقين)، اكدت الدراسات في ان معظم سكانها من العشائر الكردية و في دراسة ميدانية قام بها الباحث سنة 1971، ظهر ان 88٪ من سكان مركز القضاء هم من الكرد و 8.5٪ من العرب، و فيهم 3.5٪ من التركمان[64].

اما قضاء (بدرة)، فقد كان يمثل و حتى عهد قريب، احد المراكز المهمة للكرد الفيليين، و جاء في دراسات – بهذا الصدد- ان بدرة، جصان، و زرباطيه من القرى التي يكثر فيها السكان اللآ حتى الآن[65].

من جهة اخرى، فإن المتغيرات التي اشرنا اليها، ما تعلق منها بأزمات المياه، و ما ولدته من نتائج سلبية على اقتصاديات سكان المنطقة، و دفعتهم الى البحيرة، او حملات التسفير التي كانت تتجدد من حين لآخر، ثم تشجيع السلطات العراقية، للاسر و العشائر العربية الاستقرار فيها، ادت الى تغيير التكوين القومي للسكان لصالح السكان العرب، ولاسيما بعد سعي الدولة الحثيث في العقود الاخيرة بانجاز العديد من مشاريع الارواء التي تلكات في القيام بها قبل ذلك.. و من هذه المشاريع:

1-قناة بلاجو – خانقين:

ازاء النقص المستمر في مياه نهر الوند القادم من ايران و الذي يغذي منطقة واسعة من قضاء

خانقين، قامت الحكومة العراقية بإنشاء قناة خانقين بطول (41كم) و توسيع جدول (بلاجو) المتصل به، ليأخذ مياهه من نهر سيروان (ديالى) جنوبي سد دربنديخان. كما اقيم شلال خرساني عند مصب القناة بنهر الوند لتنظيم انحدار المياه منه، و نصبت مضخات لرفع المياه من القناة لإرواء البساتين و الاراضي الزراعية على جانبيه[66].

2-مشروع ري مندلي:

و يتمثل هذا المشروع في قناة طولها (52 كم) تاخذ مياهها من نهر سيروان (ديالى) عند مرتفعات حمرين، و تمتد الى تلال كومةسنك بالقرب من الحدود العراقية – الايرانية، و يتولى تزويد المنطقة مندلي بالمياه عن طريق ضخ المياه من محطتين، وبواسطة عشر مضخات كهربائية. و قد تم تنفيذ المشروع سنة 1969[67].

3-مشروع ري بدرة:

و يقوم هذا المشروع على قناة تمتد (65 كم)، تتسلم مياه نهر دجلة قرب قرية (الدبوني). اقيمت عليها، عشر محطات لضخ المياه، و اربع لرفع مناسيبه، لإرواء المنطقة الممتدة بين بدرة - زرباطية – جصان و انتهى العمل فيه سنة 1979[68].

و تزامنا مع تخطيط و تنفيذ تلك المشاريع، سعت الحكومة العراقية الى تشجيع الاسر و العشائر العربية للاستيطان في منطقة الدراسة، و اقامت لهم الوحدات السكنية و وزعت عليهم الاراضي الزراعية، كما وفرت لهم مستلزمات العمل و الحماية فلا غرو ان تكشف نتائج تعدادات سكان العراق للسنوات التالية عن ارتفاع كبير للسكان العرب مع حساب سكانها الاصليين. و يشير الجدول رقم (3) الى ان نسب الكرد انخفضت في محافظة ديالى من 27 ٪ - الى اقل من 11٪ من مجموع سكانها خلال الفترة بين (1947-1977)، فيما ارتفعت نسب السكان العرب الى ما يقرب من 88٪، مثلما انخفضت نسبة السكان الكرد في محافظة واسط بحيث كانت تقل عن 1٪ فقط. و لا شك ان مثل هذا الانخفاض كان اكثر وضوحا في منطقة الدراسة، ففي قضاء خانقين، حيث كان الكرد يمثلون ما يزيد على 80٪ من مجموع سكانه سنة 1947، اشارت نتائج احصاء السكان لسنة 1977 بأنها لاتتجاوز 27٪. و في قضاء مندلي لم يتبق من سكانه الكرد سوى 1٪ فيما تجاوزت نسبة السكان العرب 98٪. و بينما كان قضاء بدرة.

جدول رقم (3)

سكان منطقة الدراسة و محافظتي ديالى و واسط بحسب القومية (٪)[69]

الوحدة	الكرد 1947	الكرد 1957	الكرد 1977	العرب 1977
قضاء خانقين	80.5	58.4	27.3	67.9
قضاء مندلي	50	16.7	1.4	98.4
قضاء بدرة	-	-	0.3	99.5
محافظة ديالى	(*)26.6	18.2	10.7	87.5
محافظة واسط	-	0.9	1.0	99

(*) فقط لقضائي خانقين و مندلي.

يمثل احد المراكز المهمة للكرد الفيليين في العراق، الا ان بيانات الحكومة العراقية تشير الى انهم

لم يعودوا يمثلون سوى اقل من 1٪ من مجموع السكان! فيما تجاوزت نسبة العرب (99 ٪)!! و لعل جدول رقم (4) يكشف بوضوح اكثر مظاهر التغيير القومي لسكان منطقة الدراسة، فما يغني عن التحليل.

جدول رقم (4)

السكان الكرد في منطقة الدراسة بحسب الوحدات الادارية (٪)[70]

الوحدة	1947	1977
ناحية ميدان	100	1.3
ناحية قورةتو	100	5.1
ناحية مركز خانقين	80	45
ناحية السعدية	50	5.1
ناحية مركز مندلي	50	0.6
ناحية بلدروز	50	2.7
ناحية مركز بدرة	-	0.5
ناحية زرباطية	-	0.1
ناحية جصان	-	0.1

الاستنتاجات و التوصيات:

في ضوء ما سبق يمكن لهذه الدراسة الخروج بالنتائج الآتية:

1-ان تصاعد (ازمة المياه) خلال القرن الماضي في منطقة الدراسة، و الاهمال المتعمد من قبل السلطات العراقية في العمل على ايجاد حلول جذرية لمشكلتهم، اديا الى نقص في المساحات المزروعة و تهديد للانسان و الحيوان.. و لم تكن الحلول الموقته من حفر بئر هنا و هناك، او نقل المياه بالتنكرات، الا مجرد تهدئة للسكان او تخفيفا لمعاناتهم. الامر الذي تسبب في استمرار تدفق المهاجرين الى خارج المنطقة.

2-ان نتائج احصاءات سكان العراق، ولاسيما الاخيرة منها، كشفت عن انخفاض مستمر في حجم سكان منطقة الدراسة، فيما اتسم حجم سكان المناطق المجاورة بالزيادة.

3-تزامنا مع تصاعد حركة هجرة السكان الى الخارج، سعت السلطات العراقية الى تشجيع العشائر و الاسر العربية للاستقرار في منطقة الدراسة، من خلال القيام (جديا) باقامة المشاريع الاروائية وتوزيع الارض او اقامة المستوطنات السكنية لهم.

4-لقد كان من نتائج تلك المتغيرات، ارتفاع نسبة السكان العرب في المنطقة على حساب سكانها الاصليين، كجزء من سياسة تعريب اقليم كردستان العراق.

التوصيات:

من المعروف ان معظم اجزاء منطقة الدراسة، تخضع في الوقت الحاضر الى سلطة الحكومة العراقية، الامر الذي تحدد توصياتنا على النحو الآتي:

1-زيادة الاهتمام الاعلامي بهذه المنطقة باعتبارها جزءا لا يتجزأ من اقليم كردستان العراق.

2-السعي الى عودة سكان المنطقة (المهجرين) و(المهاجرين) الى مناطقهم التي (اخرجوا منها)، في ظل اية اتفاقية مع الحكومة المركزية.

3-ان مشكلة سكان منطقة الدراسة، ليست في ندرة الموارد المائية، بقدر ما هي في اساليب

استغلال تلك الموارد، مما يتطلب من اصحاب القرار، الا تكون قراراتهم مجرد (رد فعل) لاحداث تفرض عليهم، بل من المهم، ايجاد استراتيجية لادارة و استغلال الموارد المائية، تاخذ بنظر الاعتبار جميع المتغيرات بما فيها السياسية.

هوامش الدراسة:

1-انظر: عبدالمالك خلف التميمي، المياه في المشرق العربي، مجلة عالم الفكر، م4، 1997، ص114.

2-دانا عبدالكريم، ازمة المياه في الشرق الاوسط، ملحق مجلة مركز الدراسات استراتيجية، العدد (1)/1999، السليمانية، ص 5.

3-انظر: محمود ابو زيد، المياه مصدر للتوتر في القرن (21)، القاهرة، 1998، ص 121. و ايضا زكريا السباهي، المياه في القانون الدولي، دمشق، 1994، ص 16.

4-عبدالمالك التميمي، المياه في المشرق العربي، المصدر السابق، ص 14، و ايضا عباس قاسم، الاطماع بالمياه العربية و ابعادها الجيوبولتيكية، المستقبل العربي، العدد 174 لسنة 1993 ص 16.

5-محمد ازهر السماك، الجغرافية السياسية، أسس وتطبيقات، الموصل، 1988، ص 149.

6-انظر: فلاح شاكر الاسود، الدود الشرقية للوطن العربي، مطبعة سلمى، بغداد، 1982 ص110.

7-عباس علي التميمي، طبيعة مشكلات الانهر الحدودية العراقية – الايرانية، مجلة الجامعة المستنصرية، ص15.

8-يراجع: محمد ازهر السماك، الجغرافية السياسية، المصدر السابق، ص 441 و ايضا عبدالرزاق عباس، الجغرافية السياسية، مطبعة اسعد، بغداد، 1976، ص 118، و محمد عبدالغني سعودي، الجغرافية و العلاقات السياسية الدولية، دار الرائد، الكويت، 1982 ص 162.

9-ابو زيد، المياه مصدر للتوتر في القرن 21، المصدر السابق، ص 122.

10-انظر عبدالمالك التميمي، المصدر السابق، ص 115، و ابو زيد، المصدر السابق، ص 130.

11-عباس علي التميمي، المصدر السابق، ص 372.

12-انظر: محمد ازهر السماك، المصدر السابق، ص 439، و ايضا: عبدالرزاق عباس، المصدر السابق، ص 113.

13-انظر المصدرين نفسيهما، ص 439 و ص 114 على التوالي.

14-خالد العزي، مشكلة الانهار الحدودية المشتركة بين العراق و ايران، مطبعة شفيق، بغداد، ص 54.

15-محمد جعفر السامرائي، الانهار الحدودية في محافظة واسط، رسالة ماجستير، جامعة بغداد 1985 ص 132.

16-خالد العزي، مشكلة الانهار الحدودية، المصدر السابق، ص 70.

17-انظر: زكريا السباهي، المياه في القانون الدولي، المصدر السابق، ص 765.

18-يراجع: عبدالمالك التميمي، المصدر السابق، ص 136-137 و ايضا: خالد العزي المصدر السابق ص 53.

19-زكريا السباهي، المياه في القانون الدولي، المصدر السابق، ص 81.

20-عبدالمالك التميمي، المصدر السابق، ص 138.

21-انظر: ابو زيد، المصدر السابق، ص 102-103.

22-محمد جعفر السامرائي، المصدر السابق، 136.

23-فلاح شاكر الاسود، المصدر السابق، ص 35.

24-المصدر نفسه، ص 35-36.

25-محمد جعفر السامرائي، المصدر السابق، ص 133.

26-انظر في ذلك: الحزب الديموقراطي الكوردستاني، مكتب الدراسات و البحوث المركزي، مياه كوردستان و آفاق المستقبل، (9) لسنة 1996 ص 13 و ايضا كاظم موسى، الموارد المائية في حوض نهر ديالى، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد/ 1986 ص 30.

27.انظر: خالده السعدون قليل اعوامل التي ترسم خط الحدود بين العراق و ايران، رسالة ماجستير، جامعة بغداد / 1970 ص 84.

28.عمران موسى البياتي، مندلي عبر العصور، منشورات وزارة الاعلام، د.ر الحرية، بغداد، 1985 ص 35. و ايضا عباس التميمي، المصدر السابق، ص 373-374.

29 مياه كردستان و افاقها المستقبلية، المصدر السابق، ص 28، و عمران المندلاوي، ص 155.

30.محمد جعفر السامرائي، المصدر السابق، ص 48.

31 المصدر نفسه، ص 48، و ايضا مياه كردستان و آفاقها المستقبلية ص 29.

32.سعد الربيعي، مورفوبوجية مدينتي بدرة و خانقين، رسالة ماجستير، 1985، ص 33 و عباس احسان البغدادي، المياه الجوفية في العراق، مطبعة الرابطة، بغداد، 1955، ص 145

33 عباس التميمي، المصدر السابق، ص 12 30.

34 انظر: عمران المندلاوي، المصدر السابق، ص 47.

35 خالد العزي، المصدر السابق، ص 26-27.

36 جابر الراوي، الحدود الدولية و مشكلة لحدود العراقية – الايرانية، (1970)، ص 339.

37 انظر: خالص الاشعب، مشكلة مياه مندلي، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية العدد/5 - 1969 بغداد ص 258.

38 جابر الراوي، المصدر السابق، من 400 و خالد العزي، ص 34.

39.محمد جعفر السامرائي، ص 126.

40 عباس التميمي، ص 375.

41 خالد العزي، ص 24.

42 انظر، خليل اسماعيل، منطقة التحضر الحدودية، اوفسيت كريستال، اربيل، 1997، ص11.

43.انظر. خالص الاشعب، مشكلة مياه مندلي المصدر السابق، ص 267 و ايضا: خالد العزي، ص 29 30.

44 خاص الاشعب، المصدر السابق، ص 264.

45.محمد جعفر السمرائي، ص 137 138.

46 خليل اسماعيل محمد، المصدر السابق، ص 10.

47.خليل اسماعيل محمد، قضاء خانقين دراسة في جغرافية السكان، مطبعة العاني، بغداد 1977، ص 35.

48 عبدالرزاق الحسني، العراق قديما و حديثا، مطبعة العرفان، صيدا، 1955 ص 182.

49محمد جميل روذبياني، بنونيجين (مندلي) في التأريخ، مجلة المجمع العلمي العراقي (الهيئة الكردية)م7/ 1980 ص 388.

50 اكرم زينل الصالحي، نمو السكان في العراق، اطروحة دكتوراه، ج2، جامعة بغداد، 1980 ص 771.

51 انظر. وزارة الشؤون الاجتماعية، مديرية النفوس العامة، احصاء السكان لسنة 1947، ج1

و: وزارة التخطيط، حصر السكان الاولى لسنة 1970، مطبعة الوزارة، بغداد 1973، محافظتي ديالى و واسط.

و ايضا وزارة التخطيط، نتائج احصاء السكان لسنة 1987، مطبعة الوزارة بغداد، 1988، محافظتي ديالى و واسط.

52 مصادر جدول رقم (1)، بالاضافة الى المجموعة الاحصائية لتسجيل عام 1957 (لوائي ديالى و الكوت)

53.عبدالرزاق الحسني، رحلتي الى العراق، 136.

54.عمران موسى البياتي، المصدر السابق، ص 382.

55محمد امين زكي، خلاصة تاريخ الكرد و كردستان، ترجمة محمد علي عوني، ط1، مطبعة صلاح الدين. بغداد، 1961، ص 30.

56 محمد الملا جميل روزبياني، المصدر السابق، ص 316 و ص 385

57 خليل اسماعيل محمد، الاستيطان العربي لمنطقة الكرد الفيليين، القسي في المؤتمر العلمي الاول لجامعة السليمانية، ايلول سنة 2000م.

58 محمد الملا جميل روز بياني، المصدر السابق، ص 395.

59 عبدالرزاق الحسني، العراق قديما و حديثا، المصدر السابق، ص 182.

60 محمد الملا جميل روزبياني، المصدر السابق، ص 383.

61 انظر: احمد فوزي، خناجر و جبال (قاسم و الاكراد)، بيروت 1961، ص 37 38.

62 عبدالرزاق الحسني، العراق قديما و حديثا، ص 193.

63 س. هـ. لونكريك، ربعة قرون من تاريخ العراق، ترجمة: جعفر الخياط، مطبعة اركان، بغداد، 1985 ص 15.

64-خليل اسماعيل محمد، منطقة التحسر الحدودية، المصدر السابق، ص 45.

65-لونكريك، اربعة قرون من تأريخ العراق، ص 17، و ايضا محمد امين زكي، ص 30.

66-انظر: احمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، مطبعة الاديب، بغدد، 1965 القسم الثالث، ص 915 و ايضا: سعد الربيعي، المصدر السابق، ص 40.

67-عمران المدلاوي، المصدر السابق، ص 76 و حالد العزي، ص 31.

68 مياه كردستان و افاقها المستقبلية، المصدر السبق، ص 21.

69انظر: احمد فوري خناجر و جبال المصدر السابق، ص 35.

و محمود الدرة، القضية الكردية. منشورات دار الطليعة بيروت، 1963، ص 209

و فيصل دباغ: الكرد و الاقليات القومية الأخرى في احصائية 1977، مطبعة (التربية) اربيل، 1993، ص 37، 40

70 احمد فوزي، المصدر السابق، ص 35 و ايضا: فيصل دباغ، المصدر السابق، ص: 37 55.

[كُرد ـ كورد] وليس [الاكراد]

يقال للكرد بالعربية (الكرد) و (الاكراد) كما يقال: الترك والاتراك، او العرب والاعراب. والاصح هو (الكرد: بضم الكاف واسكان الراء) وهو الاصل كما يقال فى الكردية وفى اللغات الاوروبية. واسم (الاكراد) ا و (الاتراك) بالعربية هو من جمع التكسير ويقصد به القلة من الناس، والمخصص للأسماء الأعجمية، فى حين ان اسم (الاعراب) يدل على اصول البداوة لدى العرب.

مقومات التنمية السياحية في اقليم كوردستان العراق

جزا توفيق طالب -مدرس - قسم الجغرافية

كلية العلوم الانسانية - جامعة السليمانية

المقدمة

تمثل السياحة في العديد من اقطار العالم، حلقة اساسية في حلقات الاقتصاد الوطني، و عاملاً فاعلاً في حركة التغيير الاجتماعي.. فلا غرو ان تستأثر بمساحة واسعة من اهتمامات الباحثين في مجال التخطيط والتنمية القومية، كما تعد وسيلة من وسائل التوجيه الفكري، و تبادل الثقافات بين الشعوب، ناهيك عن تأثيراتها في توفير فرص العمل لايجاد دخول جديدة و هي من الناحية الاجتماعية، وسيلة في الحصول على الراحة العقلية و الجسمية و المتعة النفسية[1].

ومن ثم فان السياحة قطاع اقتصادي، يشكل نسبة مهمة في تكوين الاقتصاد القومي، بالإضافة الى اهميته في تحسين البيئة، و توفير الراحة و الصحة العامة للمواطنين، الى جانب ذلك فانها، اسهام في تعزيز و ابراز الأوجه الحضارية للشعوب[2].

تهدف هذه الدراسة، الى الكشف عن مقومات التنمية السياحية في اقليم كوردستان العراق، وامكانية تجاوز معوقاتها. و تفترض:

1-ان للسياحة دورا فاعلاً في دعم الاقتصاد القومي في الاقليم.

2-ان كفاءة و نوعية الخدمات السياحية و حسن استثمارها، هما القاعدة التي يمكن ان تقوم عليها عمليات التنمية السياحية.

تناولت هذه الدراسة، البعد التاريخي للحركة السياحية في الاقليم، و المقومات السياحية التي يتميز بها، و ابعادها الاقتصادية، و الصعوبات التي تعترض عمليات التنمية السياحية وصولاً الى وضع افضل للقطاع السياحي في الاقليم.

و مع اهمية البيانات و المعلومات التي توفرت للباحث في هذا المجال، الا انها كانت دون المستوى

المطلوب، على الصعيدين الكمي و النوعي، ولاسيما للفترة بعد عام 1990، لكن ذلك لم يمنع في ان تكون هذه الدراسة محاولة تمهد لدراسات تالية اكثر عمقاً و شمولية.

السياحة و السائح

لما كانت السياحة نوعاً من النشاط الانساني، تتمثل بشكل خدمات تؤدي وحاجات تشبع، فأنها باتت – اليوم – احد متطلبات المجتمع بسبب المتغيرات الحياتية اليومية المتجددة.. و على الرغم من الاختلاف في تحديد مفهوم السياحة، الا ان الباحثين يشتركون في كونها تهدف الى ترفيه الانسان و راحته.

فبينما يرى فريق، انها مجموعة الظواهر والعلاقات التي تنشأ نتيجة سفر و اقامة شخص او عدد من الأشخاص، بصورة مؤقتة في بلده او في بلد اخر.. على ان لا تتحول الى اقامة دائمة او ترتبط بعمل مأجور[3]. يرى اخرون: انها مجموعة العلاقات التي تترتب على اقامة شخص غريب، بصورة مؤقتة، طالما لا تقوم على اساس الربح[4]. كما تعرف السياحة، ايضاً بأنها: (تعبير يطلق على الرحلات الترفيهية) و هي صناعة تتعاون على سد حاجات السائح، و تقوم بالتالي على تحرك (اشخاص)، لا (بضائع و منتجات و مواد)[5]. و يرسم اخرون، صور اوسع لمفهوم السياحة، فهي عندهم: (مجموعة النشاط الحضاري و الاقتصادي و التنظيمي الخاص، بانتقال الأفراد الى كل الظواهر ذات الطابع الاقتصادي بالدرجة الأولى، و التي تترتب على وصول المسافرين الى المنطقة المعينة[6].

و في ضوء ما سبق، فان للسياحة اكثر من تعريف، يختلف باختلاف الزاوية التي ينظر اليها الباحث . فيؤكد بعضهم على الجانب الاقتصادي، فيما يرى اخرون على انها صناعة (اعلامية)، وعند فرق اخرى، اجتماعية و حضارية.. و قد تكون السياحة لأغراض علمية او دينية.. او بقصد العلاج و الاستشفاء.. او الراحة و الاستجمام، و عليه فان السائح هو كل من:

1-سافر لطلب الراحة و الاستمتاع بمباهج المراكز السياحية، او لأسباب اجتماعية او صحية.

2-المسافرون لحضور مؤتمرات او ندوات او معارض..

3-المسافرون لانجاز اعمال تجارية.

و في دراسات متخصصة[7]، تم تعريف السائح بأنه: (اي شخص يزور بلداً غير بلده و لأكثر من 24 ساعة، سواء لغرض المتعة، او المعالجة، او حضور مؤتمر، او لأغراض التجارة او العمل.. و قد اضافت منظمة الاتحاد الدولي الخاصة بتنظيم السفر والسياحة، الطلبة الذين يعيشون خارج بلدانهم[8]، ولا يدخل ضمن هذا المفهوم:-

1-الأشخاص القادمون للبحث عن عمل.

2-الذين يرغبون الاستقرار نهائياً في البلد الذي يزورونه.

3-الطلبة و الشباب الموجودون في الاقسام الداخلية.

4-موظفو الحدود الذين ينتقلون بحكم عملهم بين موطنهم الأصلي و البلد المجاور له[9].

البعد التاريخي للسياحة في الاقليم:

اخذت حلقات النشاط السياحي تتجمع و تتصل في الاقليم، منذ الثلاثينيات من القرن الماضي. وتبلور هذا الاتجاه باختيار موقع على جبل (بيرمام)[10] في محافظة اربيل سنة 1940، كأول موقع سياحي، و تم تنفيذ عدد من المشاريع السكنية و فنادق و كازينوهات، و دار للسينما، وانتقل الاهتمام بعد ذلك الى مناطق اخرى، من بينها: سرسنك، حاجي عمران، شقلاوه، زاويته ومصيف سواره توكه فيما بعد، و مع ذلك فان نشاطات المؤسسات المعنية بالسياحة سواء في الأقليم او في عموم العراق كانت دون المستوى المطلوب لتطوير الحركة السياحية، فلم تكن المشاريع او المؤسسات الخدمية السياحية، قائمة على اساس تلبية حاجات السياح و رغباتهم، كما لم تكن هناك، قواعد او معايير لتحديد اولويات التنفيذ، بالاضافة الى عدم وجود خطة عمل معتمدة فعلاً.

و من الملاحظ، ان مهام المؤسسات السياحية، لم تكن تتجاوز حدود الخدمات السياحية، و في مواقع مبعثرة، كما كانت و لا تزال، تفتقر الى الكادر السياحي. و مع ذلك فثمة تطور رافق عقد السبعينيات، في مسيرة التنمية السياحية في الاقليم تمثل في وضع برنامج لتنشيط الحركة السياحية على اساس:

1 القيام بمشروع (المسح الشامل) للامكانات السياحة في الاقليم، ضمن عملية شملت المحافظات العراقية للفترة بين سنتي (1973-1974) بالاعتماد على الخبرة الفرنسية.

2-تحويل مصلحة السياحة الى مؤسسة (سنة 1977)، بهدف تنشيط الحركة السياحية عبر اقامة المنشآت و المشاريع السياحية او تطوير الخدمات والمرافق السياحية، و تجميل معالمها الحضارية، باعتبارها وظيفة اقتصادية و ثقافية و اعلامية.

المقومات السياحية في الاقليم

تتسم منطقة الدراسة، بمقومات سياحية (طبيعية) و اخرى (بشرية) من المفيد دراستها:

أ-المقومات الطبيعية:

و تتمثل بـ: الموقع الجغرافي، طبوغرافية الأرض، المناخ، الموارد المائية، و النبات الطبيعي، و سنتناول فقط اهمية هذه العناصر في تنشيط الحركة السياحية في الأقليم.

1-الموقع الجغرافي:

يحتل اقليم كوردستان الجزء الشمالي و الشمال الشرقي من العراق، يجاور بذلك كلاً من سوريا وتركيا و ايران (لاحظ الخريطة رقم (2)) مما جعل ثمة منافذ بين الاقليم و تلك الأقطار، يمكن ان تنشط حركة السياحة بينها اذا ما توفرت الظروف لذلك. كما تربط الاقليم بمحافظات العراق بشبكة واسعة من الطرق البرية، ساعدت على زيادة حركة التبادل الاقتصادي و الثقافي و الاجتماعي.

2-طبوغرافية الأرض:

تعد البنية الطبوغرافية للاقليم نموذجاً للسياحة[11]. حيث تتميز بتضرس الأرض، و تسود الجبال و المرتفعات العالية، و لاسيما بالاتجاه شمالاً وشرقاً.. بحيث تتجاوز ارتفاع الارض (3000م)° في

جهاته الحدودية مع تركيا و ايران، كما تنتشر الخوانق، و الوديان و الاخاديد، و الشلالات و العيون التي تمثل مراكز جذب للسياح.. فلا غرو ان تضم مثل هذه الجهات: ابرز المواقع الساحية في الاقليم، بل على مستوى العراق كله.

3-المناخ:

ان موقع الاقليم بين خطي (37.22-34.70)[12] الى جانب تضرس الأرض و ارتفاع الجبال، جعلا مناخه يميل الى الاعتدال صيفاً، حيث ترتفع درجات الحرارة في محافظات العراق الأخرى. كما يتسم بامطاره الشتوية وسقوط الثلوج. فمتوسط درجة الحرارة في الاقليم لا تزيد في احر الشهور على (30)مْ، فيما تقل عن (3)مْ في ابرد الشهور[13].. الأمر الذي ادى الى ان تستهوي السياح للإقامة في مثل هذه الأجواء و التمتع بظروفها المناخية الملائمة.

4-الموارد المائية:

و تتمثل بالموارد: السطحية و الجوفية، ان كثرة الامطار و سقوط الثلوج في منطقة الدراسة، جعلاها غنية بمثل هذه الموارد.

ولاشك، فان توفر الموارد المائية بصورها المختلفة، من متطلبات السياح الاساسية، لاسيما اذا كانت على شكل عيون او نافورات او على شكل شلالات و جنادل.. بالإضافة الى انتشار الجداول والسواقي على سطح الاقليم عموماً.

من جهة أخرى، فان وجود العيون ذات الخصائص العلاجية، كالعيون المعدنية والعيون الحارة.. تعزز اهمية الاقليم السياحية، حيث تنتشر في محافظات الاقليم، و خاصة، عيون منطقة (الكشاف) و عيون (حمام جاب) و (حاجي عمران) و (خورمال) و (سولاف) و (سواره توكه) و في "(زاخو) و (كاني ماسي)[14]".

5-الغطاء النباتي: ان الخصائص الطبيعية، المذكورة آنفاً، اكسبت الاقليم، غطاءً كثيفاً من النباتات الطبيعية، تزداد كثافة بالاتجاه نحو المراكز الجبلية المضرسة حيث تتحول الى اشجار و غابات، تكسي الأرض خضرة و ظلالاً، مما يتيح، مع توفر المياه، وتضريس الأرض، مناظر طبيعية تجذب السياح اليها.

ب-المقومات البشرية

على الرغم من ان النشاط السياحي، يرتبط اساساً بالعناصر الطبيعية، الا ان ارتباطه بالمتغيرات البشرية لا يقل عن ذلك اهمية، و تعد المظاهر التاريخية، و الاثارية في اقليم كوردستان العراق، رموزا حضارية يمكن ان تتحول الى مراكز جذب سياحي متميزة، فعلى ارضه قامت اقدم المستوطنات الزراعية و توطنت بذور الحضارات الانسانية الأولى كما كانت معبرا لعديد من الموجات البشرية بين الشرق و الغرب، و لعل في ربط هذه الاصالة الحضارية بالمتغيرات الحاضرة يضيف اسلوباً جديدا يفتقر اليه المناخ السياسي التقليدي للاقليم و من ابرز تلك المظاهر جسر زاخو (الحجري)، قلعة ارمشت، قلعة زعفران الحجرية، باب القلعة، باب بهدينال، منارة العمادية في محافظة دهوك و قلعة اربيل و كهف شانيدر و قلا مورتكا، و توبزاوا في

محافظة اربيل، و مدينة السليمانية ذات الموقع الجغرافي - التجاري، و كهوف زرزى و هزارميرد وتعكس الصناعات و الحرف اليدوية، و الفلكلورية التي تتسم بها منطقة الدراسة، صورا حضارية اخرى، تغني الاقليم بالعناصر السياحية التي يمكن ان تتجلى في المناسبات القومية و الوطنية والدينية..

التنمية السياحية في الاقليم

لاشك ان للقطاع السياحي اهمية في خطط التنمية الاقتصادية، وثمة ارتباط في زيادة الطلب على الخدمات السياحية، و ظروف الانتعاش الاقتصادي فيها تظهر الحروب و الأزمات السياسية والاقتصادية، و عدم الاستقرار.. اثارا سلبية على النشاط السياحي[15].

و تتصل السياحة، بقطاع النشاط الصناعي مباشرة، مادام يضم عناصر الصناعة الأساسية، وهي المادة الخام، رأس المال، و العمل[16]. و تتمثل (المادة الخام) في الامكانات الطبيعية او البشرية للاقليم، اما (رأس المال) فهو العنصر الذي لابد منه في خدمة القطاع السياحي و تطويره، سواء ما يتصل بالاعلام و الدعاية، او في توسيع البنى التحتية للمراكز السياحية. و يشمل (العمل): القوى العاملة في تلك المراكز السياحية ماكان منها في المكاتب المركزية او العاملة في شركات النقل و المؤسسات الفندقية[17].

و تتوقف درجة نجاح (صناعة) السياحة في الاقليم، على اساس توافر عنصري العرض و الطلب السياحيين، و بمعنى آخر، وجود الرغبة السياحية التي تعزز دواعي الرحلة في مجالات الراحة و العلاج او سواهما.. فالسائح يبحث عن المراكز السياحية التي توفر الراحة او الفائدة، مقابل ما تنفقه خلال مدة اقامته، و من ثم فقد اصبحت للمراكز السياحية، مواصفات محددة لابد من توافرها، كي تصبح قادرة على دخول المنافسة[18].

و من الملاحظ، بان ما يضخه السائح في المركز السياحي، كأجور النقل و السكن و الاطعام، و وسائل التسلية، ينتقل من موقع لآخر، مما يعني ان هذه الموارد لا تستثمر في جانب ما، او في حقل معين، بل تنحسب على قطاعات اقتصادية متنوعة، مما يعكس اثرا ايجابيا في تسريع حركة التنمية الاقتصادية، يضاف الى ذلك، ان السائح ينفق في بدء اقامته في الموقع السياحي، اكثر مما ينفق في محل اقامته الأصلية، مما يساهم في دعم ميزات المدفوعات القومية.. كما يكون السائح مستهلكاً، يصار الى زيادة الطلب على سلع كثيرة و خدمات غير مباشرة في السوق السياحية، الأمر الذي يشكل دعماً مباشرا للدورة الاقتصادية للمراكز السياحية[19].

و يؤكد العديد من الباحثين، بأن كل انفاق من قبل السياح داخل المنطقة السياحية يعد انفاقاً سياحياً، سواء كان ذلك على المشتريات، الاقامة، الطعام، او على وسائل النقل المختلفة[20]. و من هنا كان من الضروري، تشجيع القطاع الخاص ليأخذ دوره في خطط التنمية السياحية. ممثلاً بالقروض و التسهيلات التي يقدمها المسؤولون للقطاعين (الخاص) و (المختلط). و كذلك في التشريعات

والقرارات ذات العلاقة بدعم و اسناد القطاعين في توسيع النشاط السياحي.. و قد سبق ان تم اصدار عدد من القرارات في هذا الاتجاه منها[21].

1-تمليك الأراضي في عدد من محافظات الاقليم، بدون بدل، لاقامة فنادق او كازينوهات و دور سياحية و مطاعم، و اعفائهم عن ضريبة العقار لمدة ثلاث سنوات.

2-تسليف المصرف العقاري مبلغاً قدره (250) الف دينار للمشاريع السياحية العائدة للقطاع الخاص.

3-منح اجازات استيراد مستلزمات العمل السياحي من الخارج.

ومما يلاحظ خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، ارتفاع عدد الفنادق التابعة للقطاع الخاص و بنسبة تزيد على 5٪ سنوياً مقابل 3٪ في القطاع العام.

مؤشرات الحركة السياحية في الاقليم

لعل اكثر ما تعانيه مثل هذه الدراسات، قلة المعلومات و البيانات، ذات العلاقة بعدد السياح و متطلباتهم الميدانية. كما تجد ذلك في نتائج تعدادات السكان الشاملة، و اصدار المجموعات السنوية لوزارة التخطيط تعاني هي ايضاً نقصاً في الشمولية و ضعفاً في التنسيق و التبويب.

و يمكن القول بأن منطقة الدراسة، اكثر تخلفاً في هذا المجال، بسبب ظروف عدم الاستقرار التي عانتها، و الحصار الاقتصادي و الأمني، و ما افرزته الحرب العراقية – الايرانية من مظاهر سلبية على العراق عموماً و اقليم كوردستان على وجه الخصوص.. الأمر الذي اضطرنا اتخاذ الفترة بين عامي (1975-1986) سقفاً زمنياً لغرض التحليل و المقارنة.

جدول رقم (1)

نزلاء الفنادق في محافظات اقليم كوردستان بحسب نسبة التغيير السنوي (٪)[22]

المحافظة	1975 1980	1980 1986	1975 1986
دهوك	27.4	7.2	1.4
اربيل	29	2.5	15.6
السليمانية	6.1	-9.2	4.5
كركوك	-0.8	-0.6	0.7
العراق	-3.5	0.5	-1.2

و من الملاحظ على الجدول رقم (1) ان ثمة تذبذباً حقيقياً في حجم السياح خلال فترة الدراسة فبينما اتسمت السنوات بين عامي (1975-1980) بارتفاع متميز في حجم السياح بحيث تجاوزت 27٪ سنوياً في محافظة دهوك و 29٪ في محافظة اربيل و6٪ في محافظة السليمانية، فانها عانت انخفاضاً حاداً خلال الفترة التالية (1980-1986) و بلغت نسبة الانخفاض 7٪ في محافظة دهوك، و اكثر من 9٪ في محافظة السليمانية و نحو 3٪ في محافظة اربيل.

ولاشك فان الظروف الأمنية، كانت تقف في مقدمة الاسباب في هذا التباين الزماني و المكاني لحركة السياحة في منطقة الدراسة، فبينما شهدت الفترة الأولى (1975-1980) نوعاً من الاستقرار النسبي في المنطقة، مع انتعاش الاقتصاد العراقي لاسيما بعد عمليات تأميم النفط سنة 1972

واعتماد مدينة اربيل مركزا للحكم الذاتي لمنطقة كوردستان العراق، فان الفترة التالية (1980-1986) عانت من حركة عدم استقرار امني و سياسي، بسبب عودة الثورة الكوردية الى العمل من جديد، وقيام الحرب العراقية – الايرانية بين عامي (1980-1988)، مما عكست اثارا سلبية على حركة السياحة في العراق عموماً، و في منطقة الدراسة على وجه الخصوص.

من جهة اخرى، فان الفترتين المذكورتين كشفتا عن تباين ايضاً في تقديم الخدمات السياحية لاسيما، في حركة بناء الفنادق و البيوت السياحية، حيث شهدت الفترة الاولى (1974-1980) زيادة في عدد الفنادق في محافظة دهوك بلغت (78٪) سنوياً، و في محافظة اربيل نحو (26٪)، و في محافظة السليمانية (10٪)، مقابل (11٪) سنوياً في عموم العراق، انظر الجدول رقم (2).

جدول رقم (2)

نسبة التغيير في فنادق محافظات اقليم كوردستان (٪ سنويا)[23]

المحافظة	1980-1974	1986-1980
دهوك	77.8	-5.0
اربيل	25.7	-4.2
السليمانية	10	-6.0
كركوك	صفر	+4.2
العراق	11.2	+2.7

بيد ان الفترة التالية (1980-1986) اتسمت بانخفاض حاد في عدد الفنادق، مما يعكس التدهور السياحي في الاقليم، و كانت نسبة الانخفاض 6٪ في محافظة السليمانية، و 5٪ في محافظة دهوك، جدير بالاشارة الى ان محافظة كركوك بقيت محافظة على عدد فنادقها خلال الفترة الأولى، مما يعني انها لن تتأثر كثيرا بحركة النشاط السياحي في الاقليم، الا ان الفترة الثانية، تميزت عن محافظات الاقليم بزيادة في عدد الفنادق و نسبة تجاوزت 4٪ سنوياً، ومعلوم ان المحافظة الاخيرة، كانت خلال تلك الفترة، مركز تجمع للقوات العسكرية المتوجهة الى ساحة العمليات الحربية سواء بالنسبة الى ايران او للحركة الكوردية مما يبرر هذه الزيادة في عدد الفنادق.

جدول رقم (3)

السياح في عدد من محافظات الاقليم بحسب الجنسية[24]

المحافظة	العرب			الأجانب		
	1975	1980	1986	1975	1980	1986
دهوك	0.4	13.9	10.8	0.6	3.4	0.9
اربيل	0.1	6.4	9.1	0.5	18.3	0.4
السليمانية	0.2	11.0	11.7	0.04	2.2	1.5
العراق	3.8	27.6	31.6	1.5	3.8	7.5

و في تحليلنا للجدول رقم (3)، يلاحظ ان ثمة انخفاضاً اتسم به عقد الثمانينيات في نسب السياح الاجانب في الاقليم مقارنة بعقد السبعينيات، ففي الوقت الذي شهد الاقليم ارتفاعاً واضحاً في تلك النسب بين سنتي (1975-1980) في محافظات دهوك، اربيل، السليمانية، بشكل يزيد كثيرا على مثيلاته في العراق، فان عقد الثمانينيات اتسم بانخفاض كبير في تلك النسب، ففي محافظة اربيل على سبيل المثال: نجد ان حجم السياح الاجانب قد تضاعف بنحو (37) مرة خلال تلك السنوات، حيث

الاستقرار النسبي في الاقليم، و الاهتمام الملحوظ في المشاريع السياحية.. بيد ان هذه النسب سرعان ما انخفضت خلال سنوات الحرب و عدم الاستقرار السياسي (1980-1986) و نسب مماثلة..

من جهة اخرى، فان الاقليم تميز بارتفاع في حجم السياح العرب طيلة فترة الدراسة. بمعنى اخر ان تيار السياح العرب، استمر يتدفق على الاقليم خلال سنوات الحرب.. و هو امر يعزي في الغالب الى اهتمام الدولة في تعويض النقص في الأيدي العاملة بالوافدين العرب، لاسيما من مصر، السودان، اليمن و المغرب.. و تعين الكثير منهم محل العمال و الموظفين الكورد الذين تم تهجيرهم بعيدا عن اوطانهم.. لذلك شهدت محافظة اربيل مثلاً، ارتفاع في نسب السياح العرب رغم تلك الظروف من (6.4٪-9.1٪) من مجموع السياح الكلي، بين عامي (1980-1986)، و في محافظة السليمانية من (11-12)٪، كما ان محافظة دهوك لم تتأثر كثيرا في نتائج تلك الأوضاع غير المستقرة، فبقيت نسب السياح العرب مرتفعة خلال تلك الفترة.

نتائج الدراسة

تؤكد الدراسات، اهمية السياحة في خلق فرص الاستخدام و التشغيل، سواء كان بشكل مباشر، ممثلاً بالفنادق، و المطاعم، و الكازينوهات، و التسهيلات السياحية الأخرى.. او بشكل غير مباشر، عن طريق البنوك، و المصارف، و شركات النقل و التأمين، والقطاعات الاقتصاد المختلفة.

و تتأثر حركة السياحة، عادة، بعوامل ابرزها: الأحوال الاقتصادية في منطقتي الانطلاق والاستقبال، الاستقرار السياسي و الأمني، توفر وسائل النقل، دور الاعلام السياحي.. من جانب آخر، فان حركة السياحة، تسهم في خلق انماط حضارية جديدة من خلال الانفتاح و التفاعل مع المجتمعات الأخرى.

و يمكن لهذه الدراسة، الخروج بالنتائج الآتية:

1-تتميز منطقة الدراسة، بالعديد من المقومات السياحية التي يمكن ان تسهم في تنمية و تطوير اقتصادها القومي.. و مع ذلك فان استثمار هذه المقومات لا يزال دون المستوى المطلوب. كما انه يتحدد بالعناصر المنظورة الى حد ما، كالفنادق والبيوت السياحية و المطاعم و الكازينوهات دون الاهتمام بالخدمات السياحية المكملة.. و المتمثلة بوسائل النقل، و الباركات، الصناعات الفلكلورية، الاسواق التجارية، الملاعب، السينمات.

2-ان تنفيذ المشاريع السياحية او تطورها، سيصار الى تنمية القطاعات الاقتصادية الأخرى، فالزيادة في حجم السياحة، يعني التوسع في الطلب على المواد الغذائية، المنسوجات و الأخشاب، الصناعات الشعبية، الى جانب الزيادة في فرص العمل المتنوعة.

3-ان للبيئة الطبيعية و الموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة، اهميتها في تطوير النشاط السياحي، مثلما للسياحة دور في اعادة تنظيم و تجميل هذه البيئة و الحفاظ عليها و استثمارها في التنمية القومية.

4-تعد الصادرات (غير المنظورة) دعماً للاقتصاد الوطني السياحي، و تتمثل بمصروفات السياح

الخاصة بـ(الفنادق، المطاعم، الهدايا، وسائل النقل..) مما يعزز القدرة الشرائية و يؤدي الى:

أ-زيادة مستوى العمالة.

ب-خلق سوق جديدة للصناعات المحلية.

ج-تشجيع التبادل النقدي.

د-التوسع في اقامة المشاريع العامة لاسيما ذات العلاقة بالبنى التحتية.

التوصيات

1-اعتماد التخطيط اساساً في التوسع في النشاط السياحي في الاقليم.

2-تشكيل لجان متخصصة في وضع اسس التنمية السياحية، بعد اجراء مسح شامل للامكانات السياحية في الاقليم.

3-قيام جهاز اعلامي فعال لخدمة الحركة السياحية.

4-اقامة مراكز بحثية متخصصة بالسياحة والتنمية السياحية في الاقليم.

5-عقد ندوات و مؤتمرات سياحية دورية في المواقع السياحية منها بهدف التعرف على الشكلات السياحية و ايجاد الحلول الناجعة لها.

6-التوسع في الخدمات السياحية، لاسيما في مجال الاقامة و التنقل و الاتصالات و اقامة المراكز الترفيهية كالمسارح و السينما و المسابح و الملاعب والأسواق.

7-اصدار تشريعات تشجع القطاع الخاص في انشاء الفنادق و الدور السياحية و مستلزمات الخدمة السياحية.

الهوامش

1-يراجع: خالد عبد الحميد العبري، دور السياحة في الاقتصاد العراقي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985، ص1.

2-احمد محمد صوفي، مخطط لتطوير السياحة في شمال العراق، رسالة دبلوم عالي في التخطيط الحضري و الاقليمي، جامعة بغداد، 1978، ص2.

3-D.E Lundberg; The Tourist, 4th Ed. C.B.F. Publishing Co., 1980, P27.

4-محمود كامل، السياحة الحديثة علماً و تطبيقاً، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص 5، و انظر ايضاً:
BurKart and Midlike; Tourism past, present, "future", second Ed, London, 1981, P1.

5-صباح محمود محمد و ازاد محمد امين، المقومات الجغرافية الطبيعية لنشوء و تطور السياحة في المنطقة الجبلية في العراق، مجلة كلية التربية، جامعة البصرة، العدد (2)، 1979، ص11.

6-خالد عبد الحميد العبري، المصدر السابق، ص 9.

7-محمد الحسوني، تطوير الامكانيات السياحية ضمن اطار التنمية الاقليمية، رسالة ماجستير في التخطيط الحضري و الاقليمي، جامعة بغداد، 1990، ص6. و ايضاً خالد عبد الحميد العبري، المصدر السابق، ص 12.

8-محمد الحسوني، المصدر السابق، ص 4.

9-المصدر نفسه، ص18.

10-جبل بيرمام يقع على بعد 32كم شمال شرقي مدينة اربيل.

11-خليل ابراهيم المشهداني، التخطيط السياحي، بغداد، 1989، ص 162.

12-جزا توفيق طالب، سكان اقليم كوردستان العراق (دراسة في الجغرافية السياسية)، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة صلاح الدين، 1995، ص 22.

13-علي، شلش، القارية سمة من سمات مناخ العراق، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، العدد (21)، مطبعة العاني، بغداد، 1987.

14-انظر: احمد محمد صوفي، المصدر السابق، ص 27-28.

15-وزارة التخطيط، المعهد القومي للتخطيط، اتجاهات تطور القطاع السياحي الاشتراكي، بغداد، 1987، ص 29.

16-مثنى الحوري و قيسي رؤوف عبدالله، محاضرات في ادارة المنشآت السياحية، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1980، ص 57-58.

17-يراجع الهام خضر شبر، واقع و امكانيات تطوير العمالة في القطاع السياحي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1988، ص11.

18-علاء الدين البكري، السياحة في العراق، مطبعة شنيان، بغداد، 1972، ص 73-75.

19-انظر: عبد السلام ابو محق، محاضرات في صناعة السياحة في مصر، القاهرة، 1986، ص25. و كذلك علاء الدين البكري، المصدر السابق، ص 6.

20-محمد الحسوني، المصدر السابق، ص 6-8.

21-علاءالدين البكري، المصدر السابق، ص 73-75.

22-وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة السنوية للسنوات المذكورة في الجدول، مطبعة الجهاز المركزي، بغداد.

23-المصادر نفسها جدول رقم (1).

24-نفس المصادر جدول رقم (1،2).

المصادر

اولاً: المصادر العربية:

1-ابو محق، محاضرات في صناعة السياحة في مصر، القاهرة، 1986.

2-البكري، علاء الدين، السياحة في العراق، مطابع شنيان، بغداد، 1972.

3-الحسوني، محمد، تطوير الامكانات السياحية ضمن اطار التنمية الاقليمية، رسالة ماجستير في التخطيط الحضري و الاقليمي، جامعة بغداد، 1990.

4-الحوري، مثنى و عبدالله، قيس رؤوف، محاضرات في ادارة المنشآت السياحية، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1980.

5-شبر، الهام خضر، واقع و امكانات تطور العمالة في القطاع السياحي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1988.

6-شلش، علي، القارية سمة من سمات المناخ في العراق، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، العدد 21، مطبعة العاني، بغداد، 1987.

7-صوفي، احمد محمد، مخطط لتطوير السياحة في شمال العراق، رسالة دبلوم عالية في التخطيط الحضري و الاقليمي، جامعة بغداد، 1987.

8-طالب، جزا توفيق، سكان اقليم كوردستان العراق (دراسة في الجغرافية السياسية)، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة صلاح الدين، 1995.

9-العبري، خالد عبدالحميد، دور السياحة في الاقتصاد العراقي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985.

10-كامل، محمود، السياحة الحديثة علماً و تطبيقاً، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، 1975.

11-محمد، صباح محمود و امين، ازاد محمد، المقومات الجغرافية الطبيعية لنشوء و تطور السياحة في المنطقة الجبلية في العراق، مجلة كلية التربية، جامعة البصرة، العدد 2، 1979.

12-محمد، صباح محمود ودهش، نعمان و امين، ازاد محمد، مقدمة في الجغرافيا السياحية مع دراسة تطبيقية عن القطر العراقي، بغداد، 1980.

13-المشهداني، خليل ابراهيم، التخطيط السياحي، بغداد، 1989.

14-وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للاحصاء المجموعات السنوية للسنوات 1975 و 1980 و 1987، مطبعة الجهاز المركزي للاحصاء، بغداد.

15-وزارة التخطيط، المعهد القومي للتخطيط، اتجاهات تطور القطاع السياحي الاشتراكي، بغداد، 1987.

ثانيا: المصادر الانكليزية:

1-BurKart and Midlike, Tourism past, present, "future", second Ed, London, 1981.

2-Lundberg, D.E Lundberg, The Tourist, 4th Ed. C.B.F. Publishing Co., 1980.

معاهدة سيڤر
في السياسة و القانون الدولي

2-1

بقلم: د. معروف عمر كول

ترجمة: د. عادل كرمياني

لمعاهدة سيفر مكانة خاصة في القانون الدولي بعد الحرب العالمية الاولى، لأن الدول المنتصرة في هذه الحرب ارادت حسب تلك المعاهدة تقسيم مخلفات الامبراطورية العثمانية فيما بينها و ان تحدد مصير تلك الشعوب التي كانت تحت السلطة العثمانية، و ما يخص الشعب الكردي في تلك المعاهدة انه لأول مرة اخذت قضيته كموضوع بعين الاعتبار و وضع الحل له، و لكي نفهم كل جوانب معاهدة سيفر الخاصة بالشعب الكردي رأينا من الافضل ان نقسم دراستنا هذه الى ثلاثة اجزاء:

1-مضمون تلك البنود (المواد) التي لها علاقة بالكورد.

2-سياسة الدول الكبرى حول القضية الكردية.

3-قوة معاهدة سيفر في القانون الدولي.

1-مضمون تلك البنود التي لها علاقة بالكرد

وقعت معاهدة سيفر يوم 1920/8/10 بين حكومة السلطان العثماني من جهة و بين بريطانيا و فرنسا و ايطاليا و اليابان و ارمينيا الطاشقنديين و بلجيكا و اليونان و بولونيا و البرتغال و رومانيا و الصرب والكروات و الحجاز و جيكسلوفاكيا من جهة اخرى.

لهذه المعاهدة مكانة خاصة في القانون الدولي، لأنها حددت الموقف السياسي و القانوني للدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى تجاه الدولة العثمانية. لم تتحدث معاهدة سيفر في بنودها (62، 63، 64) عن الكرد حسب، بل ان بعض موادها

الاخرى تتحدث عنه من دون ذكر اسمه. و رغم ان القضية الكردية قد وضع لها المعالجة و الحل في القسم الثالث وخاصة في تلك المواد الثلاث، و لكن في نفس الوقت تعتبر معاهدة سيفر تقسيماً كولونيالياً لكردستان. فالمادة (27) تضع شمال كردستان و تحدده ضمن اطار تركيا، و لذا فالمادة (62) تعطي الحكم الذاتي و تحدده لتلك المناطق التي حسب المادة (27) فصلت حدودها مع سوريا و بلاد مابين النهرين (ميسوبوتاميا)، و التي تقطع كردستان من الجانبين.

روعي في القسم الثالث فصل كردستان عن تركيا، ولكن تحت شروط صعبة، و كان المفروض ان تشكل لجنتان (منظمتان) مشتركتان لتحديد حدود الحكم الذاتي كما هو مذكور في المادة (62): "يجب ان تقوم بالعمل، اللجنة الثلاثية المكونة من بريطانيا و فرنسا و ايطاليا التي يجب ان تكون في القسطنطينية بعد ستة اشهر من تنفيذ هذه الاتفاقية لتطبيق الحكم الذاتي الداخلي لتلك المناطق التي غالبية سكانها بالأصل من الكرد و التي تقع شرقي نهر الفرات و جنوب حدود ارمينيا و شمال حدود تركيا مع سوريا و بلاد ما بين النهرين. و حسب المادة (3-2، 27) فان اي اختلاف حول اية مشكلة تظهر يقوم اعضاء اللجنة بايصالها الى بلدانهم، و يجب ان يحافظ هذا العمل على الاثوريين – الكلدانيين و الاقليات العرقية و الدينية في تلك المناطق، و لهذا الغرض يجب ان تقوم لجنة مشكلة من البريطانيين و الفرنسيين و الايطاليين و الفرس والكرد بزيارة تلك المناطق و تقرر اي تغيير مطلوب في حدود تركيا مع بلاد فارس حسب هذه المعاهدة"[1].

حسب المادة (62) فان مصير الكرد في شمال كردستان هو الحكم الذاتي الداخلي بعد فصلهم عن المناطق الاخرى، و التي تطبق ضمن اطار تركيا، و تلزم المادة (63) الدولة العثمانية بتنفيذ قرارات اللجنتين التي تم ذكرهما في المادة (63) بعد ثلاثة اشهر من ابلاغ الحكومة العثمانية. و توسع المادة (64) من حجم تحديد مصير الشعب الكردي، لكنها تضع بعض الشروط الصعبة مثل:

1-يحق لكرد تلك المناطق المذكورين في المادة (62) مطالبة عصبة الامم بالانفصال عن تركيا بعد سنة من تنفيذ هذه المعاهدة فيما اذا اراد ذلك الغالبية منهم.

2-اذا رأى مجلس عصبة الامم ان هؤلاء الناس بامكانهم تسيير امورهم.

3-اذا اقترح المجلس ذلك لهم.

4-فعلى تركيا منذ ذلك الحين الالتزام بتأييد ذلك الاقتراح كما عليها رفع اليد عن حقوقها في تلك المناطق، و يتم تحديد رفع يد تركيا بموجب معاهدة مع دول الحلفاء الرئيسة.

5-اذا رفعت تركيا يدها فان دول الحلفاء لا تكون ضد قيام كرد ذلك القسم من كردستان في ولاية الموصل و حسب رغبتهم بالانضمام الى تلك الدولة الكردية المستقلة[2].

تتفق كل تلك الشروط مع حكم القانون الدولي الجديد (انذاك - المترجم) الذي حدد بلا تفرقة حق تقرير المصير للشعوب، و لكن كانت في حينها اعترافاً قانونياً دولياً بالشخصية القانونية الدولية للشعب الكردي، رغم وقوعه تحت سيطرة الدول الاخرى.

ومع ذلك الاعتراف فقد كانت معاهدة سيفر تقسيماً جديداً لكردستان، لأنها:

1-لا تتحدث بأي شكل كان عن شرقي كردستان الذي يقع في حدود ايران.

2-لا تتحدث بأي شكل كان عن مناطق غرب كردستان التي احتلها الفرنسيون و الحقوها بسوريا.

3-المواد (22، 89، 94) الخاصة بحدود تركيا و تشكيل دول ارمينيا و سوريا و بلاد ما بين النهرين (العراق فيما بعد.. المترجم) و ايران[3].

ان المادة (22) هي حول تلك الحدود التي كانت قبل ذلك تعود للامبراطورية العثمانية، و التي يعترف بها الان بأنها مستقلة لكي يستطيعوا ادارة امورهم، و يطبق[4] عليها نظام (ماندات - Mandat)، و تعتبر سوريا و بلاد ما بين النهرين من ضمن تلك الحدود.

و حسب المادة (89) يحدد – و بقرار من الرئيس الامريكي و موافقة تركيا و ارمينيا و البلدان الحليفة – الحدود بين تركيا و ارمينيا في ولاية ارضروم و طرابزون و وان و بتليس[5].

و حسب المادة (94) و بموجب الفقرة الرابعة من المادة (22) من دستور عصبة الامم يتم الاعتراف باستقلال سوريا و بلاد ما بين النهرين. و تقع كردستان ضمن حدودهما[6].

4-تحدد المادة (27) الحد الفاصل بين تركيا و سوريا، تركيا و بلاد ما بين النهرين[7]. و كما قلنا سابقاً فان حدود تركيا مع هذين البلدين. يقطع كردستان من الجانبين لتصبح ثلاثة اجزاء.

و حسب ذلك التقييم فان شمال كردستان يقع ضمن حدود تركيا، و لهذا السبب تجعل المادة (62) حق الحكم الذاتي الداخلي مصيرا للقضية الكردية. و لو كان هناك حق تقصد في انشاء دولة كردية لماذا اذن تقسم كردستان في معاهدة سيفر بتلك الصيغة و تجعل قيامه تحت تلك الشروط؟ بينما تم الاعلان لبعض الدول الأخرى و بشكل مباشر انهم مستقلون؛ و ظهور تلك الدول بتلك الحدود لصق به جزءا من كردستان، و الذي اصبح عائقاً امام انشاء دولة كردية.

تنبثق عملية انشاء دولتي سوريا و بلاد ما بين النهرين من مصلحة فرنسا و بريطانيا. و لدعم رأينا هذا فان البيان الانكلو – فرنسي في 1918/11/8 يثبت هذه الحقيقة. ففي ذلك البيان يقرر الطرفان انشاء حكومة ومؤسسة ادارة في سوريا و بلاد ما بين النهرين المحررتين من قبل دول الحلفاء من قبضة الدولة العثمانية[8].

و من الضروري القول ان اسم (العراق) لم يكتب لا في ذلك البيان و لا في معاهدة سيفر و لا في دستور عصبة الامم، و هذا يوضح تلك الحقيقة بعدم وجود دولة باسم العراق في تلك المنطقة من قبل وبالحدود التي يمتلكها الان، و لكن تم الاعلان بشكل رسمي في 1918/11/1 عن حكومة الشيخ محمود برزنجي في جنوب كردستان من قبل بريطانيا، واعلن الشيخ محمود عن نفسه كملك لكردستان[9].

رغم كون معاهدة سيفر هي اول دليل قانوني دولي في التاريخ يحدد القضية الكردية في العلاقات والقانون الدولي، و لكن احداث ذلك العصر ادت الى

التجاهل التام للقضية الكردية، لكون معاهدة سيفر لم تصبح سارية المفعول بسبب:

1-السياسة الاستعمارية (الكولونيالية) لفرنسا وبريطانيا في المنطقة.

2-سياسة تركيا الكمالية و روسيا السوفياتية.

بالاضافة الى عدم وجود قوة كردية موحدة ادى الى اضعاف جهود الشعب الكردي نفسه.

تلزم المعاهدة كمصدر مهم في القانون الدولي له خصائصه المشاركين فيها، و لكن لم تكتسب معاهدة سيفر تلك الخصائص كما سنبينه لاحقاً.

لقد كان رأي البروفيسور لازاريف سنيدا حين يقول: "معاهدة سيفر هي وثيقة مجهضة، و ظهرت قضية اعادة النظر فيها منذ اليوم التالي للتوقيع عليها"[10].

و يعتقد وليم ايكلتن ايضا بان معاهدة سيفر: "منذ لحظة توقيعها كانت وثيقة متنة، لان يد مصطفى كمال كتبت التاريخ بشكل اخر، و حسب معاهدة لوزان لم يعد هناك مكان للكرد و الارمن في تركيا"[11].

و ثبتت احداث ما بعد سيفر تلك الحقيقة التي اوضحناها، كقيام الانكليز باعداد مؤامرة لإلصاق جنوب كردستان بالعراق، و لم يستطع الكرد في محصلة ذلك التقسيم من تهيئة اساس اقتصادي موحد و حركة تحررية موحدة، اللتين اصبحتا عائقتين حتى اليوم امام مصير الكرد.

تحدث البروفيسور كمال مظهر باهمية عن معاهدة سيفر، و ينتقد السياسة الكولونيالية للانكليز والفرنسيين تجاه القضية القومية للكرد، و يوضح الدكتور كمال مظهر بأن: "احداث و نتائج الحرب الاولى مع بعض الاسباب الاخرى اثرت بشكل جعلت القضية الكردية تظهر بشكل اكثر على المسرح الدولي، و احسن دليل لتلك الحقيقة هو الفقرات الثلاث لمعاهدة سيفر، و تلك الفقرات ذاتها تظهر بشكل خاص خطة و مؤامرة الدولي الكبرى تجاه مستقبل الكرد و وطنهم"[12]. وكذلك يقول د.كمال مظهر بأنه: "لم يتم التطرق في معاهدة سيفر لشرق كردستان و لم تراع مصالح الكرد في تكوين دولة كردية موحدة"[13]. بالاضافة الى نضال الشيخ عبدالله النهري مسبقاً لأجل الدولة الكردية. لقد وضعت الدول المتحالفة شرط الرضى حتى يعطوا كرد كردستان الجنوبية الى جانب تلك الدولة الكردية (ان تأسست)، لكنهم هم الذين يسمحوا لممثلي الشيخ محمود الذين كانوا يحملون وثيقة تأييد سكان كردستان الجنوبية للشريف باشا في باريس[14].

عدا ذلك فقد وقع سكان كردستان الجنوبية بقيادة الشيخ محمود مع ممثلي كردستان الشرقية مذكرة مشتركة حول اتحاد الكرد و حول الدولة الكردية واعتبروا الشريف باشا في مؤتمر باريس ممثلاً للكرد و ايدوا مطاليبه، فكان ما كان من منع الانكليز والفرنسيون في مدينة حلب ممثلي الشيخ محمود من السفر و لم يستطيعوا الوصول لمؤتمر باريس وهم يحملون مطاليب جنوب و شرق كردستان[15].

و في ذات الوقت كان المجتمع الكردي في تركيا يساندون الشريف باشا كممثل للشعب الكردي في ذلك المؤتمر لتأسيس الدولة الكردية[16]. و من جانب اخر

فقد ارسل زعيم حركة مشرق كردستان (سمكو شكاك) في شهر مايس/ 1919 السيد طه النهري كممثل له الى الانكليز من اجل توحيد مشرق كردستان مع تلك الدولة الكردية في المستقبل[17].

اذن كان مطلب الشعب الكردي في شمال و جنوب وشرق كردستان اثناء مؤتمر باريس و قبل سيفر هو تأسيس دولة كردية، و لو بغت الدول الكبرى تمهيد الطريق لتأسيس تلك الدولة، فانها مثلما تم ذكرها بوضوح للدول الاخرى في معاهدة سيفر او في عدة اتفاقيات اخرى، لكان في الاقل تحديدها على الورق من دون شرط او قيد..

لقد صاغ الكولونياليون (الاستعماريون) بنود معاهدة سيفر بشكل و كأنما غير مطلعين على مطالب الشعب الكردي لتأسيس الدولة الكردية، كانت تلك المطاليب اثناء و بعد مؤتمر باريس مستمرة!. و هذه السياسة توضح بشكل عام موقف الدول الكبرى قبل معاهدة سيفر حول القضية الكردية، و توضح بشكل خاص موقف بريطانيا حول جنوب كردستان[18].

الهوامش:

1-معاهدة سيفر، انظر: سيفر و لوزان: يو. ف. كلوجنيكف، أ.ف. سبنين، موسكو، 1927، ص 24 (باللغة الروسية).

2-المصدر نفسه، ص 25.

3-م.س. لازريف – الامبريالية و القضية الكردية (1917-1923)، موسكو، 1989، ص 188 (باللغة الروسية).

4-معاهدة سيفر: سيفر و لوزان، ص 12.

5-المصدر نفسه، ص 31.

6-المصدر نفسه، ص 32.

7-المصدر نفسه، ص 15-16.

8-معاهدة الانكلو – فرنسية، انظر: أ.م. مينتيشه شفيلي – العراق في سنوات الاحتلال الانكليزي، موسكو، 1969، ص 249 (باللغة الروسية).

9-قضية القومية الكردية، السويد، 1985، ص 14، و كذلك رفيق حلمي – المذكرات، الجزء الاول، سقز، ص 60-61 (باللغة الكردية)، و كذلك: م.ر. هاوار – الشيخ محمود البطل و دولة جنوب كردستان، المجلد الاول، لندن، 1990، ص 408 (باللغة الكردية).

10-م.س. لازاريف – المصدر نفسه، ص 192.

11-و ليم ايغلتن الابن – جمهورية مهاباد، ترجمة و تعليق: جرجيس فتح الله المحامي، بيروت، 1972، ص 31.

12-د. كمال مظهر احمد – كردستان في اعوام الحرب العالمية الاولى، بغداد، 1972، ص 169 (باللغة الكردية).

13-د. كمال مظهر احمد – الحركة التحررية – القومية في كردستان العراق (1918-1932)، باكو، 1967، ص 24 (باللغة الروسية).

14-د. كمال مظهر احمد – رؤية جديدة حول معاهدة سيفر و القضية الكردية، مجلة (برايه‌تي - التآخي) العدد/7، بغداد، 1970، ص 15-19 (باللغة الكردية).

15-م.ر. هاوار – الشيخ محمود البطل و دولة جنوب كردستان، المجلد الثاني، لندن، 1991، ص 12-13 (باللغة الكردية).

16-وليد حمدي – الكرد و كردستان في الوثائق البريطانية، لندن، 1992، ص 182-183.

17-ئآ رقش -العراق دولة بالعنف، لندن، 1986، ص 11.

18-اوضح د. جمال نبز عن رأيه بهذا المبحث حول سيفر و كتب لي و هو يقول: (و يجب ان نضع امام الانظار انه رغم بذل كل القادة الكرد الكلاسيكيين جهودهم من اجل الاستقلال، و لكن غالبيتهم يتصورون المثقفين الكرد و كأنهم ( ). ففي مؤتمر ارضروم بعث المثقفون ببرقية للقسم بأنهم "سيمسحون معاهدة سيفر بدمائهم".. هذا الكلام قاله

ي جمال عارف كركوكي خلال اعوام الخمسينيات في بغداد و الـذي كـان ضابطـا في الدولـة العثمانيـة، و الـذي كـان مـن المشاركين في ذلك المؤتمر، و الـذي اصبح فيما بعد ضابطاً في جيش الشيخ محمود. هؤلاء كان لهم دور مشهود في تـأجيج الخلافات بـين الشيخ محمود و بريطانيـا، و قـد كـان لـه دور اساسي في القاء القبض على مبعوثي الشيخ محمود في حلب)

"اسمال" جـان دمـو
باللغة الكردية

ترجـم النـاقد عبـدالله طـاهر برزنجـي مجموعـة "اسمال" الشعرية للشاعر العراقـي الشهير جان دمـو الى اللغة الكردية وطبعت في منتدى كلاويز الادبي والثقافي في هذا العام. صدرت مجموعة "اسمـال" باللغـة العربيـة في دار الآمـد ببغـداد سـنة 1993. ضـم الكتـاب مقدمـة للمترجم وبعض المقالات لنقاد عرب حول عـالم جـان دمـو الشعري وحـوار مطـول معـه اضافـة الى ترجمـة قصائد "اسمال". يقـول المترجم في مقدمتـه أنـه بـدأ بترجمة الديـوان فـور صـدوره عـام 1993 وظـل محتفظـاً عنده لغاية طبعه في هذا العام. كما ترجم المقدمة التي كتبتها دار آمـد للطباعـة والنشـر لمجموعـة "اسمـال". ونقـرأ ايضـاً ترجمـة مقـال لعبـد القـادر الجنـابي حـول جان دمو، ومقال لفاطمة المحسن بعنوان "في ثنـاء جـان دمو" وحوار معه اجراه عدنان حسين احمد.



التركيب الإثني لسكان كركوك خلال قرن
(خلال فترة 1850-1950)

الدكتور جبار قادر

تعرضت كركوك خلال تاريخها الطويل لغزو العديد من القوى و الأمبراطوريات التي حاولت فرض هيمنتها على هذه المدينة و المناطق التابعة لوقوعها على الطريق الاستراتيجي الذي كان يربط شواطئ البحرين المتوسط و الاسود بالخليج و طريق الحرير الذاهب الى اواسط اسيا و الصين. و اقامت هذه القوى القلاع و المواقع العسكرية على طول هذا الطريق لحماية قوافلها التجارية و خطوط مواصلاتها العسكرية و وضعت حاميات عسكرية فيها للدفاع عنها و القيام بالحركات العسكرية ضد السكان الجبليين الذين كانوا يغيرون عليها و ضد القوى المعادية لها. و قد ادركت هذه القوى و منذ العصور القديمة الأهمية الأستراتيجية لكركوك وغيرها من القصبات الواقعة على هذا الطريق. وجرت محاولات عديدة من قبل الدول والامبراطوريات المختلفة على اسكان رعاياها على طول هذا الخط و بخاصة خلال العصر الحديث. وقد نجم عن ذلك تنوع اثني لسكان كركوك و المدن و القصبات الواقعة على هذا الطريق.

من المعروف ان كركوك في حدودها التاريخية والجغرافية المعروفة كانت عبر القرون جزءا من الكيان الكردي. فقد كانت خلال القرون الأخيرة جزءا من امرة اردلان الكردية و قد كلف السلطان مراد الثالث امير الموكريين عام 1583 بادارة ايالة شهرزور التي كانت كركوك مركزا لها و كانت تتبعها اربيل و منطقة السليمانية الحالية. و منذ اواخر القرن السابع عشر اصبحت ضمن ممتلكات الأمارة البابانية التي حلت محل اردلان في الكثير من الاصقاع التي تعرف اليوم بكوردستان العراق. وكانت الأمارة البابانية تضم في عصرها الذهبي قەلاجوالان، كركوك، اربيل، كوي، رواندوز، حرير، بانە، كفري، قرەتبة، مندلي، بدرة، داودة، عسكر، شوان، جمجمال، قرەداغ، حتى نهر ديالى، سردشت، مەركة، بشدەر، ماوت، الان، كەلالە، جوارتا، سيويل،

شينك قزلجه، قره حسن، قصر شرين و زهاو. و قد بلغت الأمارة درجة من السعة دفعت بلونكريك ان يسميها بامبراطورية السليمانية[1].

و لم تلاحظ حتى منتصف القرن التاسع عشر تأثيرات تذكر للعثمنة في كركوك و توابعها رغم انها اصبحت رسميا ضمن ممتلكات الدولة العثمانية بموجب معاهدة اماسيا بين العثمانيين و الصفويين عام 1555. اما القبائل التركمانية القزلباشية التي رافقت حملة الشاه عباس الصفوي عام 1623-1630 و بخاصة حملات نادر شاه الافشاري خلال 1743-1746 على كركوك و اربيل و الموصل و التي تخلف بعضها و اتخذت من بعض السهول القريبة من كركوك و الموصل مراعي لحيواناتها، فكانت تعادي الدولة العثمانية و تناصر ايران التي كانت الانتماءات المذهبية و العرقية و الاجتماعية توحدها مع هذه القبائل.

و مع زوال اخر امارة كردية و هي الامارة البابانية عام 1851 كنتيجة للسياسة الجديدة للباب العالي في كوردستان، حيث تخلت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية في كوردستان و التي كانت تتلخص بابقاء الأمور فيها بايدي الزعماء المحليين لقاء اعلان التبعية للسلطان و ما يترتب على ذلك من ذكر اسمه في خطبة الجمعة و ارسال المقاتلين للقتال الى جانبه و ارسال الهدايا و الأموال سنويا الى البلاط العثماني، و تبنت سياسة جديدة تقوم على اساس بسط سيطرتها المباشرة على جميع الاقاليم الخاضعة لها. فتح سقوط امارة بابان الافاق امام السيطرة المباشرة للدولة العثمانية في كركوك وغيرها، الا ان نجاحات العثمانيين في عثمنة سكان كوردستان و منها كركوك كانت لا تزال محدودة جدا حتى اواخر القرن التاسع عشر. اذ يبدو واضحا من المصادر القليلة التي اشارت بصورة عابرة الى التركيب القومي لسكان كركوك ان الكرد كانوا لا يزالون يشكلون جمهرة سكانها الأصليين و الأساسيين الى جانب عدد من العوائل المسيحية من الكلدان والأرمن و عدد اخر من اليهود[2].

لا توفر المصادر التاريخية المتوفرة معلومات وافية عن التركيب القومي لسكان كركوك و غيرها من المدن و القصبات الواقعة على هذا الطريق خلال العصور التاريخية المختلفة. و لكننا و منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر نجد اشارات متفرقة في المصادر التاريخية الى التكوين الأثني لسكان كركوك و غيرها. و من الضروري ان نشير هنا الى انه لا يجب التعويل كثيرا على تلك الاشارات لأنها عبارة عن تخمينات لأناس لم يقضوا احيانا سوى ايام معدودة في هذه المدينة او غيرها من المدن الكردية. بل لا يمكن اخذ الارقام التي تعود الى ما قبل احصاء عام 1947 بجدية كبيرة لأنها تفتقر الى الدقة و الموضوعية. و تعاني الاحصائيات الرسمية الى جانب شمولها على التشويه و التزييف فيما يتعلق بالتكوين الأثني للسكان من نواقص جدية، فقد ذكر مؤرخ الأدب الكردي علاء الدين سجادي بهذا الخصوص بأن الحكومة العراقية طلبت في 1947/11/19 من السكان البقاء في البيوت و ذلك

لاجراء التعداد العام للسكان. و رغم انه لم يخرج من البيت لم يحضر احد لتسجيله. و يتساءل اذا كان هذا هو حال العاصمة بغداد فكيف الحال في المناطق الأخرى و بخاصة في الريف او بالنسبة للقبائل الرحل ياترى؟. و يؤكد بانه عندما دقق في الأمر تبين له بأن اكثر من نصف مليون انسان لم يسجلوا خلال تعداد عام 1947[3].

مع كل ذلك و لالقاء بعض الضوء على هذه المسألة الشائكة لابد من الرجوع الى بعض المصادر التي اشارت الى عدد السكان و تركيبهم الاثني في كركوك ولو بصورة عابرة.

و من اقدم الأشارات في هذا المجال هو ما كتبه المهندس الروسي يوسيب (يوسف) جيرنيك الذي زار كركوك ضمن جولته العلمية خلال 1872-1873، لدراسة امكانيات الملاحة النهرية في حوضي دجلة والفرات و روافدهما و نشر نتائج رحلاته و دراساته فيما بعد عام 1879 في المجلد السادس من نشرة قسم القفقاس للجمعية الجغرافية الملكية الروسية. فقد قدر ضيرنيك عدد سكان كركوك في ذلك الوقت ب 12-15 الف نسمة و اكد بأنه و باستثناء 40 عائلة ارمنية فان بقية السكان هم من الكرد[4].

يبدو لي انه و الى حين قيام جيرنيك بزيارته لم تكن المصادر تشير الى الموظفين العثمانيين و افراد الحامية العسكرية العثمانية المستقرة في كركوك كجزء من سكان المدينة، بل اعتبروا غرباء عن المنطقة و بخاصة في المراحل الأولى من الوجود العثماني في كركوك و كانوا يعودون في اغلب الاحوال الى البلدان التي جندوا منها بعد انتهاء فترات خدمتهم باستثناء افراد معدودين يتخلفون عن العودة الى مواطنهم و يتخذون من هذة المدينة او تلك موطنا جديدا لهم لأسباب اقتصادية او اجتماعية.

لذلك لم يشر المهندس الروسي المشار اليه اعلاه الى وجود الترك او التركمان في المدينة. كما يبدو بأنه اعتبر جميع المسيحيين من الأرمن بسبب عدم تمييزه بين الأرمن و الكلدان و لمعرفة الروس بالأرمن في القفقاس اكثر من الكلدان و الاثوريين وغيرهم.

مع سقوط امارة بابان و تكريس سيطرة الباب العالي المباشرة على كركوك و القصبات الأخرى الواقعة على الطريق الاستراتيجي المذكور اخذت مظاهر العثمنة تظهر و تترسخ في كركوك. فبعد عقدين فقط من زيارة جيرنيك حدث تغيير ملحوظ في التكوين الاثني لسكان كركوك لصالح الترك او التركمان فقد ذكر شمس الدين سامي في المجلد الخامس من "قاموس الأعلام" الذي يعتبر موسوعة تأريخية و جغرافية عثمانية مهمة في مادة كركوك بأنها "مدينة تقع في ولاية الموصل بكوردستان وتقع على بعد 160 كيلومترا الى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل، وسط تلول عديدة متحاذية على ضفاف وادي ادهم و هي مركز سنجق شهرزور. يبلغ عدد نفوسها 30 الفا.. و ثلاثة ارباع سكانها من الكرد و البقية من الترك و العرب و غيرهم، و هناك 760 اسرائيلياً و 460 كلدانيا"[5].

تسارعت و تيرة هذه العملية خلال العقدين التاليين و بخاصة في عهد الاتحاديين الذين انتهجوا سياسة شوفينية بحق الشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية. و تتناقض الأرقام التي يذكرها الرحالة و الكتاب الانجليز اذ يذكر ميجرسون الذي بقي 16 يوما فيها عام 1907قضاها في احدى خاناتها بوسط السوق الذي كانت تسوده اللغة التركية عن كركوك "لابد ان تكون عدة اهل المدينة 15 الفا على الأقل. انها من المدن الكائنة على حدود كوردستان يتكلم اهلها ثلاث لغات. فالتركية والعربية و الكردية يتكلمها كل انسان، و تستخدم الأولى و الأخيرة في الأسواق على اختلاف". و يؤكد سون على تواجد الكرد و الترك و الكلدان و السريان و التركمان و العرب و اليهود و الأرمن في المدينة وسيادة روح التسامح فيها و تمتع سكانها بحرية عظيمة من التعصب الديني و القومي و اعتبر اللغة التركية سائدة فيها الى حد كبير و اعتبرها مشهورة بتركمانها و فواكهها و نفطها الخام[6].

وقد ناقش محمد امين زكي اراء سون مؤكدا بأن الأخير يشير في كتابه بان عدد التركمان في المدينة 13 الفا يقابلهم 5 الاف كردي و 5700 مسيحي و الف يهودي[7]. اعتبر محمد امين زكي رأي سون هذا غير صحيح على الاطلاق و ان الذي دفع به للوقوع في هذا الخطأ هو اعتقاده ان كل من يتكلم التركية في كركوك هو تركماني. فكرد كركوك و كلدانها و غيرهم يعرفون التركية ايضا و يتحدثون بها. و اكبر دليل على خطل هذا التصور برأيه هو الاحصاء الذي قامت به بلدية كركوك عام 1930 و الذي بلغ عدد سكان المدينة بموجبه 35 الفا كان 22 الفا منهم من الكرد و 7 الاف من التركمان و الف من المسيحيين المحليين و الفين من التياريين مع 500 ارمني و 2500 من اليهود. و كان سكان محلات امام قاسم و اخي حسين و بولاق و اوجي و بيريادي من الكرد الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من سكان محلات جوقور و المصلى و جاي ايضاً"[8].

رغم الاتفاق مع محمد امين زكي في مناقشته للآراء التي ادلى بها ميجرسون في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، الا ان سيادة اللغة التركية في وسط المدينة و سوقها الرئيسية بالصورة التي شاهدها ميجرسون و كونت لديه ذلك الانطباع تشير الى حقيقة ان السياسات العثمانية خلال اقل من نصف قرن في المدينة كجعلها مركزا لحامية عسكرية تركية و فتح المدارس و الدوائر الأخرى فضلا عن اسكان الموظفين العثمانيين و عوائلهم اخذت تعطي ثمارها و ادت الى عثمنة بل و تتريك جزء من السكان المحليين و بخاصة اولئك الذين ارتبطت مصالحهم بالدولة العثمانية. فقد كتب ادموندز يقول "بقيت كركوك بلدة هامة من الناحية العسكرية وضعت فيها حامية دائمية، كما انها كانت موطنا مهما يمد الحكومة العثمانية بالموظفين المدنيين و الجندرمة موضع الاعتماد. و الى هذا تعود اسباب التشكيل العنصري و اللغوي للسكان. ان الأسر الأرستقراطية البارزة، هي اما تركية و اما تعتبر نفسها تركية حتى و ان كانت كردية الأصل".

بينما يؤكد المستشرق الجورجي البرت مينتيشاشفيلي بأن جزءا من العوائل الأرستقراطية المتنفذة في كركوك من اصول كردية رغم انها كانت تسمي نفسها تركية و من بينها النفطجيون واليعقوبيين و القيردار و غيرهم الذين ينتمون في اكثريتهم الى عشيرة زنكنة الكردية، و كثيرا ما كان الكتاب الأنجليز يطلقون لفظة الترك على الموظفين المدنيين و العسكريين و ابناء الأرستقراطية الكركوكية[9].

من الجدير بالذكر ان هناك تفاوتا كبيرا بين تقديرات الكتاب الذين تصدوا للحديث عن عدد سكان كركوك و تشكيلهم العنصري و اللغوي قبل الحرب العالمية الأولى، ففي الوقت الذي قدر (هاي) عددهم بحوالي 30 الفا، اشار مارك سايكس بأن عدد سكان كركوك قبل الحرب العالمية الأولى بلغ 70 الفا، في الوقت الذي لم يبلغ فيه عدد سكان مدينة كركوك حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحول كركوك الى مركز لعمليات شركة نفط العراق سوى 69 الف نسمة فقط[10].

و اول احصاء تقوم به دائرة رسمية في لواء كركوك بعد الحرب العالمية الأولى هو ما اشار اليه محمد امين زكي في مذكرته المشهورة الى الملك فيصل الأول في 20 كانون الأول 1930 و الذي سماه بالاحصاء الكيفي الذي قامت متصرفية لواء كركوك باجرائه و كانت نسبة السكان في اللواء على اساس القومية كالاتي: الكرد 51٪، التركمان 21.5٪، العرب 20٪ و الأقوام الأخرى 7.5٪[11].

بينما اشار ادموندز في عام 1922 الى ان عدد سكان المدينة كان يبلغ انذاك 25 الفا تقريبا ربعهم من الكرد و معظمهم من التركمان و العرب والنصارى، في الوقت الذي اعتبر فيه الكرد كأوسع مجتمع قومي في اللواء ككل (12) اي انه يعتبر ان الكرد يشكلون الاكثرية المطلقة في اللواء في الوقت الذي يشكلون ربع سكان المدينة. رغم ان الأرقام التي اوردها ادموندز بعيدة الى حد كبير عن واقع الأمور، الا ان حصول تحول كبير في تناسب السكان على اساس القومية يشير الى محاولات الانجليز لزيادة السكان من غير الكرد و السماح للموظفين المدنيين والعسكريين العثمانيين بالاستقرار في المدينة مع عوائلهم و تكيفهم بمباشرة الشؤون الأدارية والتعليمية في المدينة.

و اثناء مشكلة الموصل قدمت الأطراف المختلفة ذات العلاقة (تركيا و بريطانيا و العراق) ارقاما متباينة عن التكوين الاثني لسكان الولاية بما فيها لواء كركوك. فقد قدر الانجليز في تقاريرهم المقدمة الى لجنة عصبة الأمم عدد سكان كركوك حسب انتمائهم الأثني عشية الحرب العالمية الأولى كما يأتي: الكرد 45 الف، الترك 35 الف، العرب 10 الاف، المسيحيون 600 و اليهود 1400 اي ان مجموع سكان اللواء حسب تقديراتهم كان 92 الف نسمة. بينما قدر الجانب التركي عدد سكان اللواء بضعف ذلك الرقم فقد كانت الأرقام التركية على الشكل الآتي: الكرد 97 الفا، الترك 79 الفا و العرب 8 الاف اي ما مجموعه 184 الفا[13].

هناك تفاوت كبير في تقديرات الطرفين و رغم ان الأتراك كانوا يحكمون عشية و اثناء الحرب العالمية الأولى هذه البلاد و يفترض ان تكون لديهم الأرقام الدقيقة الا انه من الصعب ان يركن المرء الى التقديرات التركية لمحاولاتهم تقديم ارقام كبيرة عن العنصر التركي في الولاية ككل و كركوك على وجه الخصوص و رفع نسبة الأتراك على حساب العناصر الأخرى، فقد ذكروا على سبيل المثال في تقديراتهم وجود 32960 الف تركي في السليمانية و التي لم يشكل الترك فيها، باستثناء التواجد العسكري التركي البسيط خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية اكثر من صفر بالمئة. كان الطرفان الانجليزي و العراقي يرفعون من نسبة العرب في ولاية الموصل بما فيها كركوك و ذلك لدعم وجهة نظرهم، بينما حاول الترك رفع نسبة الأتراك في الولاية و في كركوك بالذات بصورة مبالغ فيها. و لم يكن في صالح اي من الطرفين المتنازعين رفع نسبة الكرد مع ذلك اضطرا الى الاعتراف بكون الكرد يشكلون الأكثرية المطلقة من سكان الولاية. فقد كان عدد الكرد وفق التقديرات البريطانية 454.720 شخصا مقابل 65.895 من التركمان و 185763 من العرب و 62225 من المسيحيين و 16865 من اليهود، اي ما مجموعه 785464 شخصا و ضمت الأرقام الانجليزية الرحل الذين كانوا يتنقلون في ارجاء الولاية. بينما كانت التقديرات التركية تشير الى تواجد 281830 من الكرد في الولاية مقابل 146920 من الاتراك و 43210 من العرب و 31 الفا من غير المسلمين، اي مامجموعه 503 الاف شخص، و لم تتضمن الأرقام التركية 170 الفا من الرحل.

وشكك الأنجليز في التقديرات التركية و اعتبروها قديمة و ناقصة و اعتبروها قائمة على اساس معطيات دوائر الجيش و اكدوا بأن العرب يشكلون ثلثي سكان مدينة الموصل، بينما شكل الترك حسب رأيهم 12/1 فقط من سكان الولاية، بينما اكد الأتراك بأنهم يحكمون البلاد منذ قرون و هم على اطلاع اكبر على اوضاع المنطقة و عدد سكانها واتهموا الانجليز بايراد تقديرات من شأنها خدمة مصالح العرب، فقد اكد الجانب التركي بأن الأكثرية الكردية – التركية تشكل 85٪ من مجموع سكان الولاية، بل و اعتبر ان الكثير من المتحدثين بالعربية هم "اتراك في الأصل و نسوا لغتهم او يتحدثون اللغتين في ان واحد!"، كما زعم ان الكرد و الترك ينحدرون من اصول واحدة[14]. و في الوقت الذي كانت الأطراف المتصارعة على ولاية الموصل تطعن في تقديرات و حجج بعضها البعض، كانت بعثة عصبة الأمم تشكك في دقة و مصداقية البيانات المقدمة من قبل جميع الأطراف اذ "وجدت ان البيانات المقدمة من قبل الأتراك و كذلك المقدمة من قبل الانجليز بل و حتى بيانات الحكومة العراقية غير دقيقة و ان الحجج التي استندت الى تلك الأرقام مشكوك فيها. فبينما تبالغ الحكومة التركية بعدد التركمان في الولاية، فان الحكومة البريطانية لا ترى سوى انهم يشكلون 8٪ من مجموع السكان، في حين تقل نسبتهم في البيانات العراقية

عن 5٪ من مجموع سكان الولاية. و كذلك كان التباين كبيرا فيما يتعلق بنسبة العرب التي تراوحت بين اقل من 9٪ في ضوء البيانات التركية الى نحو 24٪ في البيانات البريطانية و نحو 21٪ في تقديرات الحكومة العراقية. بينما كان التباين اقل في التقديرات الخاصة بالكرد فقد كانت نسبتهم 56.1٪ من مجموع سكان الولاية وفق التقديرات التركية و 65.1٪ حسب البيانات العراقية و 57.9٪ من مجموع السكان حسب التقديرات البريطانية"[15]. (لاحظ الجدول 1)

القومية	البيانات التركية	البيانات البريطانية	البيانات العراقية
الكرد	56.1	57.9	65.1
العرب	8.6	23.7	20.9
التركمان	29.2	8.4	4.8
المسيحيون	6.1	7.9	7.7
اليهود	-	2.1	1.5
المجموع	100	100	100

و هكذا نجد بأن جميع المكونات الاثنية في كركوك باستثناء الكرد وجدت من يدافع عن مصالحها في هذا الصراع، بينما جرى استبعاد العديد من القصبات و التجمعات الكردية من ضمن تلك البيانات، حتى ان الأيزديين الذين اعترفت كل الأطراف المعنية بمشكلة الموصل بكرديتهم فصلوا عن الكرد في ظل تلك البيانات و الأحصائيات اللاحقة التي قامت بها الحكومة العراقية.

و كانت التقديرات التي قدمها الجانب العراقي قريبة الى البيانات البريطانية، فقد ذكر تقرير عصبة الأمم حول مسألة الحدود بين تركية والعراق بأن الجانب العراقي قدر عدد سكان كركوك لسنتي 1922-1924 ب 111.650 نسمة، يتوزعون بحسب القومية على النحو الآتي: الكرد 42.5٪، العرب 31.9٪، التركمان 23.4٪ و الآخرون 2.2٪[16].

لا تشير الجداول الأحصائية الخاصة باحصاء عام 1947 و المتوفرة بين ايدينا الى التكوين الاثني لسكان كركوك بل تشير الى الديانة. و كانت الأرقام الخاصة بمركز قضاء كركوك كالآتي: المسلمون 58654، المسيحيون 6715، اليهود 2873، الصابئة 37، الايزيدون 1 "اوردتهم الجداول بصورة منفصلة عن الكرد" و العقائد الأخرى 28. بينما بلغ عدد المسلمين في ريف مركز قضاء كركوك 23194 و المسيحيون 862 و اليهود 77 و العقائد الأخرى 3 [17].

بينما اشارت الجداول الاحصائية الخاصة بتعداد السكان لعام 1957 الى تصنيف السكان من حيث اللغة الأم في مدينة كركوك. مع ان هذا التعداد السكاني يعتبر من احسن الأحصائيات السكانية خلال الفترة التي تناولتها هذه الورقة، الا انه كان يعاني ايضا من بعض النواقص الجدية. فقبل كل شيء كان اللجوء الى مبدأ اللغة الأم لتحديد الأنتماء القومي للسكان محاولة للتملص من الاعتراف بالهوية القومية للاثنيات المختلفة و في مقدمتها الاثنية الكردية. فضلا عن كونها محاولة لتشويه الحقائق المتعلقة بالتركيب السكاني و فتح الباب امام عمليات التزوير على نطاق واسع. لايعني احصاء الناس على اساس اللغة الأم دائما تطابقا مع الانتماء القومي لهم. فهناك من عاش وسط قومية اخرى و تعلم لغتها بصورة افضل من لغته الأم و لكن ذلك لا يعني بأنه

اصبح ينتمي الى القومية الجديدة التي تعلم لغتها. وكانت سيادة اللغة التركمانية في دوائر و اسواق كركوك انذاك لا تتطابق مع حقيقة عدد التركمان في كركوك. و شهدت عمليات التعداد حالات تزوير كثيرة في بعض الأحياء الشعبية للكرد في كركوك، وقد تبين ذلك بوضوح عند نشر نتائج التعداد المذكور عام 1959، اذ ظهر لدى مراجعة الكثير من الكرد لدائرة النفوس في كركوك بانهم سجلوا كتركمان من قبل العدادين في الحقل الخاص باللغة الأم، خاصة في الأحياء الشعبية الكردية التي كان معظم ابنائها يجهلون العربية فتولى العدادون ملأ الأستمارات نيابة عنهم، و قد قدم بعضهم فيما بعد شكاوي بهذا الخصوص الى الجهات المختصة، بينما اقام البعض الآخر دعاوى قضائية لتبديل ذلك بقرار قضائي[18].

و كان تصنيف السكان من حيث اللغة الأم في كركوك المدينة و اللواء بموجب احصاء عام 1957 كالآتي:

تصنيف السكان في كركوك على اساس اللغة الأم[19]

اللغة الام	مدينة كركوك	نية لواء كركوك	المجموع الكلي
عربي	27127	82493	109620
كردي	20047	147546	187593
ايراني (فارسي ج. ق)	101	22	123
تركي (تركماني ج.ق)	45306	38065	83371
انكليزي	634	63	697
فرنسي	35	6	41
هندي	79	8	87
كلداني وسرياني	1509	96	1605
لغات اخرى	418	-	418
غير مبين	5146	138	5284
المجموع	120402	268437	388839

وقد شكك الكثيرون في دقة هذه الأرقام و من بينهم المؤرخ الكردي الذي قتل مؤخرا في بغداد بعد ان تجاوز التسعين من العمر (الملا جميل الروزبياني) الذي كان يعتبر حجة في تاريخ المنطقة و احوالها و اصول سكانها و قبائلها[20].

و يمكن الجزم بأن العديد من القبائل و القرى والتجمعات السكنية الكردية التابعة لكركوك لم تشملها عمليات التعداد السكاني، و لعل احسن دليل على قولنا هذا هو ان السلطات الادارية و العسكرية العراقية لم تكن تعرف بوجود العديد منها الا خلال عمليات الانفال عندما اكتشفتها و دمرتها و انفلت سكانها[21].

كما يمكنني القول بأن القسم الأكبر من 5284 شخصا و الذين اشير اليهم على ان لغتهم الأم غير مبينة هم من الكرد يبدو انهم لم يسجلوا عمدا ولأسباب معروفة لدى المطلعين على السياسات الحكومية في هذا اللواء. و تفسر هذه الظروف التي رافقت عمليات الأحصاء العام للسكان سنة 1957 ان يكون عدد المتحدثين بالتركمانية في المدينة اكثر من الذين اعتبروا الكردية لغتهم الأم ب 5249 شخصا، ولا يتطابق هذا مع البيانات التي اوردتها المصادر العلمية الموضوعية البعيدة عن التحيز. فقد اكد العالم العراقي المعروف بنزاهته (الدكتور شاكر خصباك) بأن الكرد كانوا يشكلون في الخمسينيات نسبة 55.2٪ من مجموع سكان لواء كركوك[22].

و نلاحظ تذبذبا في البيانات المتعلقة بنسب السكان حسب القومية في كركوك و غيرها من

مرحلة الى اخرى، فقد قدرت نسبة التركمان، مثلا، في لواء كركوك عام 1920 ب 30.3٪ و في عام 1957 ب 21.4٪، بينما ارتفعت هذه النسبة الى 26.3٪ عام 1965 لتعود الى الانخفاض الى 16.31٪ عام 1977[23].

و يكمن السبب وراء حالة التذبذب هذه في نسب التركمان و غيرهم من سكان كركوك و غيرها من المدن و المحافظات العراقية في سياسات التمييز الحكومية المتبعة ازاء المكونات الاثنية في العراق وسيادة الأوضاع الاستثنائية في كوردستان على مدى عقود طويلة و محاولات الناس اخفاء انتماءاتهم القومية الحقيقية لتجنب الدخول في مشاكل مع السلطات السياسية و الادارية و بخاصة في كركوك.

شهدت العقود اللاحقة للفترة التي تناولتها هذه الورقة انتهاج سياسة حكومية مكشوفة لتغيير الواقع لسكان كركوك الأمر الذي لا يدخل في نطاق هذه الدراسة.

و لعل اصدق من عبر عن واقع التكوين الاثني لسكان كركوك و كيفية تغييره هو علي حسن المجيد في اجتماع له مع مسؤولي حزب البعث و الجيش والأمن بتأريخ 15 نيسان 1989 و الذي سجلت وقائعه على شريط وقع بأيدي المنتفضين الكرد في اذار 1991 و كان يتباهى بما حققه خلال عامين من حكمه المطلق لكوردستان كمسالخ الأنفال وقصف 40 موقعا في كوردستان بالأسلحة الكيمياوية وتدميره للريف الكوردستاني، و عن كركوك و(انجازاته!!) فيها قال (اود ان اتحدث عن نقطتين الأولى التعريب و الثانية المناطق المشتركة بين الأرض العربية و منطقة الحكم الذاتي. النقطة التي اتحدث عنها هي كركوك. عندما جئت الى هنا لم يزد عدد العرب والتركمان عن 51٪ من مجموع سكان كركوك "لم يوضح هل يتحدث عن المدينة ام عن محافظة كركوك" مع كل ذلك صرفت 60 مليون دينار الى ان وصلنا الى الحالة الراهنة، ليكون واضحا لديكم لم يوصل كل العرب الذين جلبناهم الى كركوك نسبتهم الى 60٪، عند ذلك اصدرت اوامري و منعت بموجبها كرد كركوك من العمل في كركوك و المناطق التابعة خارج منطقة الحكم الذاتي. كركوك خليط من القوميات و الأديان و المذاهب، كل الناس الذين رحلناهم خلال الفترة من 21 مايس و حتى 21 حزيران لم يكونوا من سكان المناطق المحرمة، ولكنهم كانت تحت سيطرة المخربين سواء كانوا من المتعاطفين معهم او ضدهم)[24].

المصادر و الهوامش:

1-للمزيد من التفاصيل في هذا الباب راجع المصادر التالية:

Longrigg S.H, Four centuries of Modern Iraq Oxford, 1925

محمد امين زكي، تاريخ الدول و الامارات الكردية في العهد الاسلامي، ترجمة محمد علي عوني، القاهرة 1948. و كذلك:

اى. اي، فاسيليفا، كوردستان الجنوبية الشرقية خلال القرن السابع عشر و حتى بداية القرن التاسع عشر، لمحات من تاريخ امارتي اردلان و بابان، موسكو 1991.

2-تشير الموسوعة اليهودية الى تواجد اليهود في كركوك خلال القرون الأربعة الأخيرة و قدرت عددهم ب 200 عائلة في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين و الذين كانوا يسكنون حيا خاصا بهم و ساعدوا مع مسيحيي المدينة الأنجليز عام 1918 لأحتلال المدينة.

و قد بلغ عدد اليهود في كركوك عام 1947 حسب المعطيات الواردة في الموسوعة اليهودية 2350 شخصا و هاجروا جميعا من كركوك عام 1950-1951.

حول عدد اليهود و دورهم في كركوك انظر:
Encyclopaedia Judaica, vol. 10, P. 1047-48

3-للمزيد من التفاصيل راجع:

علاءالدين سجادي، تاريخ الأدب الكردي، بغداد 1952، 65-66.

4-رحلة المهندس يوسيب (يوسف) جيرنيك لدراسة حوضي دجلة و الفرات من الناحية الفنية و كذلك وصف الطرق العابرة لشمال سوريا، مترجمة من الالمانية، "نشرة قسم القفقاس للجمعية، 1879، ص 91 الجغرافية الملكية الروسية" المجلدVI.

5-قاموس الاعلام، محررى ش. سامي، بشنجي جلد، استانبول، مهران مطبعه سى، 1315.، ص 2842

6-سون، رحلة متنكر الى بلاد مابين النهرين وكردستان، نقله الى العربية و حققه و قدم له وعلق عليه فؤاد جميل، الجزء الأول من اصطنبول الى السليمانية، ط 1، بغداد 1970، ص 158-163.

7-لم يشر محمد امين زكي الى اسم كتاب سون الذي استقى منه هذه الأرقام، و كتاب سون المشار اليه و الموجود تحت يدي لا يشير الى اية ارقام سوى التي اشرنا اليها. يبدو انه اطلع على هذه المعلومات في مؤلف اخر لميجر سون الذي كتب الكثير عن كوردستان من بينها "دليل او مرشد كوردستان الجنوبية" الذي اعتبر دقيقا و متضمنا لمعلومات صحيحة الى ابعد مدى، على حد تعبير مترجم الكتاب فؤاد جميل. انظر: المصدر السابق، 350.

8-محمد امين زكي، ملاحظاتي على قانون اللغات المحلية، في كتاب "محاولتان غير مجديتين" حققه و قدم له و علق عليه صباح غالب، لندن 1984، ص 104-105.

9-سي. جي. ادموندز، كرد و ترك و عرب سياسة و رحلات و بحوث عن الشمال الشرقي في العراق 1919-1925، ترجمة جرجيس فتح الله، بغداد 1971، ص 241. انظر كذلك: أ.م. مينتيشاشفيلي، الكرد – لمحات في العلاقات الأجتماعية – الأقتصادية و الثقافة و اساليب المعيشة، موسكو 1984، ص 25 و 193.

10-Hay W. R, Two Years in Kurdistan: Experiens of a political Officer 1918-1920, London 1922. p. 81, Longrigg S.H. Iraq 1900 to 1950. A political, Social and Economic History, London 1953. p 53.

11-مذكرة محمد امين زكي الى الملك فيصل الأول حول الشأن الكردي العراقي في 20 كانون الأول 1930، تقديم و ترجمة الدكتور جبار قادر، الملف العراقي، العدد 104، اب 2000، ص 64-65.

12-ادموندز، المصدر نفسه، ص 240-241.

13-Loder Y. de V, The Truth about Mesopotamia, Palestine and Syria, London 1923, P.214.

14-Ibid, P. 215-218.

للمزيد من التفاصيل حول حجج الطرفين التنازعين انظر كذلك:

م.س. لازريف، الأمبريالية و المسألة الكردية 1917-1923، موسكو 1989، ص 306-309.

15 تقرير عصبة الأمم، مسألة الحدود بين تركية و العراق، مطبعة الحكومة، بغداد، ص 94، نقلا عن: كركوك في تقرير عصبة الأمم، مجلة هاوارى كركوك، العدد 4، اربيل 1999، ص 177-178.

16-نفس المصدر السابق.

17-احصاء السكان لسنة 1947، الجزء الثاني، الجدول السادس قضاء كركوك، ص 118.

18-الدكتور نوري طالباني، منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي، ط 2، بلا. م، 1999، ص 79.

19-المجموعة الأحصائية لتسجيل عام 1957 – لوائي السليمانية و كركوك، تصنيف السكان من حيث الجنس و لغة الأم للواء كركوك. مطبعة العاني. بغداد 1959.

20-مجلة هاوارى كركوك، العدد 2، اربيل، كانون الأول 1998، ص 31.

21-هناك اشارات عديدة في الوثائق الحكومية المتعلقة بمسالخ الأنفال و التي وقعت بأيدي المنتفضين الى العديد من القرى التابعة لمحافظة كركوك المؤنفلة التي لم تكن معروفة لدى السلطات الأدارية و لا وجود لها حتى على الخرائط الرسمية المدنية و العسكرية العراقية. للمزيد من المعلومات انظر:

Genocide in Iraq. The Anfal Campaign Against the Kurds. HRW/ME, New York 1993.

22 الدكتور شاكر خصباك، الكرد و المسألة الكردية، بغداد 1959، ص 43.

23-الدكتور خليل اسماعيل، التوزيع الجغرافي للتركمان في العراق، مجلة السياسة الدولية، العدد 4، اربيل، كانون الثاني 1994، ص 28-29.

24-Genocide In Iraq. The Anfal Campaign Against The Kurds. Himan Rights Watch/ ME. New York. 1993, P. 353

الكرد: نبذة وجيزة

الجزء الثاني من الفصل الثالث

مهرداد ايزدي

ترجمة عن الانجليزية: هادي محمد

التأريخ القروسطي: من القرن السادس الى القرن السادس عشر

تتميز هذه الفترة الطافحة بالنشاط و الحيوية من تأريخ الكرد بعودة ظهور السلطة السياسية الكردية من القرن السابع الى القرن التاسع، بعد ثلاثة قرون من الأنحطاط تحت ظل الحكومات المركزية لساسانيي بلاد الفرس و الأمبراطورية البيزنطية. تأوجت هذه الفترة في ثلاثة قرون، من القرن العاشر و حتى القرن الثاني عشر، و التي يمكن تسميتها بحق بقرون الأسلام الكردية. فمن خلال هجرات متواصلة و غزوات عسكرية، امتد حكمهم السياسي من آسيا الوسطى الى ليبيا و اليمن.

أسس الكرد سلالات حاكمة قوية التي دافع عن المنطقة المركزية للشرق الأوسط ضد الغزاة الخارجيين كالصليبيين و انتجوا عصرا ذهبيا للثقافة الكردية و التي برع الكرد خلاله، بين أمور أخرى، في مجالات التأريخ و الفلسفة و الموسيقى وعلم الموسيقى و فن العمارة و الهندسة المدنية والرياضيات و علم الفلك. و بين الكرد الجديرين بالذكر لهذه الفترة هم من المؤرخين ابو الفدا، ابن أثير، أبن شداد و ابي حنيفة الدينوري، من الفلاسفة: السهروردي و بديع الزمان الهمذاني والمكتشف ابن فضلان، من علماء الموسيقى صفي الدين الأرموي و محمد الخاطب الأربلي، من الموسيقيين أبراهيم و اسحاق الموصلي و زيرياب والمهندس العماري و المدني مؤنس (Munis)، الرياضي و الفلكي محي الدين الأخلاطي، كاتب السيرة أبن خلكان، الموسوعي ابن النديم و من الثوريين الأجتماعيين (و الدينيين) بابك و نرسي (Bâbâk, Nârseh). يكتب أبن قتيبة، على سبيل المثال، و هو كردي من دينور (Dinawar)، يكتب في القرن التاسع في كتابه المعنون "عيون الأخبار" عن

مواضيع، العلوم الطبيعية و الميكانيكية من ضمنها التفاصيل عن المصاهر النفخية (blast furnaces)،تقنيات تصفية الصلب و سبك الحديد والبرونز -و مجالات لها جذور عميقة في كردستان (انظر ما قبل التاريخ و التطور التكنولوجي المبكر).

و شهدت هذه الفترة أيضا تأوج الحركات الدينية التي كانت قد بدأت في الفترة الساسانية المتأخرة على يد مَزدك (Mazdak). قاد الحركة بطلان جديدان و هما بابك و ترسي تحت شعار "الخرمية". بعدما بدأ الأمر باعلان بابك في آزربيجان في عام 817 للميلاد بأنه تجسد للإله، شرع في انتفاضة ضد الخلفاء العباسيين و التي دامت لأكثر من قرن. في الحقيقة، كان بابك فقط اللقب الذي منح لهذا الرجل الثوري: كان اسمه الشخصي هو حسن، قد يكون بابك صيغة تصغير لـ "بابا"، "تجسد" للاله. و قد يعني بابك في أغلب الظن "تجسد صغير"، و يعني بدقة ما قد اعتبر حسن نفسه ان يكون. (انظر عبادة الملائكة).

بينما كان انتماء بابك الديني كتابع لعبادة الملائكة (Cult of Angels) واضحا، فأن اصله الأثني ليس كذلك. ان الادعاء بأن بابك كان كرديا تم بناء على الأساس التالي. اولا كانت آزربيجان تشكل الحد النهائي في تلك الفترة للهجرات الكردية الهائلة لحوالي ثلاثة قرون. اصبحت جبال سفلان او سَولان (Savalan) في آزربيجان مستوطنا لقبائل البيليكان و البَذ الكردية (و الذين باقون لحد الآن كقبائل البيليكان و الباز و البَزيني انظر جدول 13) والذين كانوا قد منحوا اسمهم القبلي لمدن بَيلقان و بَذ، حيث كانت الأخيرة عاصمة بابك. ثانيا،من بين قادة بابك الذين ذكرت اصولهم الأثنية في المصادر لأسلامية القروسطية،تم تعيين هويتهم ككرد. فعلى سبيل المثال، أن حاكم مَرَند في آزربيجان و القائد العسكري الرئيس لبابك، تتم الأشارة اليه من قبل اليعقوبي بـ"عصمة الكردي".

انضم تَرسي إلى بابك (الذي سجله المؤرخ الاسلامي مسعودي بـ"نصر الكردي") والذي انتفض و تمرد في كردستان الجنوبية، المنطقة المركزية للديانة الكردية الأصلية عبادة الملائكة. نجحت جيوش الخلافة العباسية في قمع تَرسي في 833، ولكن ليس قبل مقتل 60000 من تابعيه، كما سجله المؤرخ الاسلامي طبري. هرب تَرسي مع عدد غفير من بقية تابعيه الى الاراضي البيزنطية حيث شكلوا الفرقة (1)(contingent) العسكرية الكردية لجيش الامبراطور ثيوفيلس الذي غزا مناطق الخليفة الاسلامية العباسية في 838 و ذلك لمساعدة حركة بابك المنهارة (Rekaya 1974, Rosser 1974). الا ان توسط الامبراطور ثيوفيلس لم يجد نفعا اذ تمت هزيمة بابك هزيمة حاسمة على يد العباسيين.

وطن البيزنطيون تَرسي و تابعيه في بنطس في شمال الأناضول المركزية. تشير المصادر البيزنطية بأنه تم اختيار هذا الموقع كي يستطيع اللاجئون ان يتوطنوا بين "شعبهم" (Burry 1912). اذن لا بد ان مجتمع بنطس الكردي القديم حافظ على هويته

الكردية حتى اواسط القرن التاسع، رغم تحوله الى المسيحية، كي يشير اليهم البيزنطيون بأنهم من نفس أناس جماعة ثرسي في جنوب كردستان. بالرغم من ذلك، كثير من الأدلة هي ادلة ظرفية (circumstantial)(2) ليجيز استنتاج نهائي حول مسألة الهوية الاثنية لبنطس في ذلك الوقت. و على اقل تقدير، يقال ان ثرسي نفسه تحول الى المسيحية متخذا اسم ثيوفوبس (Theophobus).

كانت حركة بابك و الوجود الكردي الهائل في آزربيجان نتيجة لحدث اقدم بكثير في سلسلة احداث التنقلات السكانية الكردية. تقريبا بحلول بداية القرن الرابع للميلاد، نتيجة لقرون عدة من هجرة كرد الجنوب، (انظر التاريخ الكلاسي) و الظروف السوسيو-اقتصادية الايجابية، دخلت كردستان الشمالية و الغربية في الأناضول عهدا من الانفجار السكاني الكبير (انظر الديموغرافيا). كان تدفق القبائل الكردية الى الشمال الغربي قد دفع بالمستويات السكانية الى الكتلة الحرجة (critical mass)، مستويات كان يشكل عندها ضعف جد طفيف في القوة العسكرية المنظمة للامبراطوريتين الساسانية و البيزنطية، التي ابقت السكان بعيدا عن اثارة المشاكل في الشرق و الغرب على التوالي، لكان قد تسبب هكذا ضعف في زحف بشري هائل.

اتت النقطة الحاسمة في بلاد الفرس مع الثورانات السياسية و الدينية و الأقتصادية لأواخر القرن الخامس و اوائل القرن السادس. كانت عقود عدة من التدهور البيئي و الجفاف و المجاعات، و كذلك غزوات البدو من وسط آسيا و قفقاس، كانت قد اضعفت بشكل مطرد((steadily)(3)، الساسانيين. بينما لو يجرب البيزنطيون تغييرات مناخية وبيئية سيئة، كانوا قد تعرضوا لهجمات ضارية من قبل هؤلاء الذين جربوا هكذا تغييرات. اتى ابناء اعمام الكرد، السرمات (Sarmatians) و الآلانيون والسوربيون (Sorbs)(4) مع قبائل جرمانية متنوعة، اتوا باعداد غفيرة الى داخل الاراضي البيزنطية من السهول الأوروربية بعيدا من الشمال، الأمر الذي ادى الى اضعاف الامبراطورية من الناحيتين الاقتصادية و العسكرية. الا ان بوابات التحكم (floodgates)(5) امام الهجرات الكردية الهائلة تحطمت و انفتحت مع سقوط الامبراطورية الساسانية في 651 للميلاد على يد القوات العربية الاسلامية.

بعد ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد، وصل مهاجرون كرد نشطاء من كردستان الى السلطة في مملكات و امارات خارج كردستان الاصلية. في الحقيقة، اعطت هذه الهجرة الجماعية شكلا لمسار التاريخ الاسلامي في المنطقة من خراسان حتى شواطيء بحر الأبيض المتوسط لمدة ثلاثة قرون، بدأ بالقرن العاشر. ففي الوقت الذي كانت الأراضي الأيرانية الشرقية في آسيا الوسطى و افغانستان/سيستان تحكمها الأسر الصغدية الحاكمة (السلالة السامانية على سبيل المثال) و الساكا (او الأسكيثيين) (كالطاهريين و الصفاريين) المتحدثين بالفارسية، كانت الاراضي الايرانية الغربية، و فيما

بعد الهلال الخصيب، قد اصبحت مناطق خاضعة، تماما تقريبا، لحكم عدة اسر كردية مالكة مستقلة. ينبغي ان تطلق تسمية القرون الاسلامية الكردية بحق على الفترة الواقعة بين القرن العاشر و القرن الثاني عشر في التاريخ و الحياة السياسية لقلب المنطقة الاسلامية (heartlands)(6)، بما ان الكرد حكموا و دافعوا عن قلب المنطقة الاسلامية ضد البيزنطيين و الروس و اخيرا الصليبيين.

بين السلالات الكردية الحاكمة الاكثر اهمية كان الديلميون (او الديلامي) في الفترة القروسطية المبكرة الذين اسسوا عدد من الملكات، اكثرها شهرة كانت اسرة البويهيين، و التي عرفت على نحو اكثر شيوعا (و اقل دقة) بالبويون"Buyids" (932-1062 للميلاد). نجح البويهيون في اخضاع الخلافة الأسلامية العباسية في بغداد. امتدت الامبراطورية الكردية البويهية تحت حكم الملك بنا خسرو (عضد الدولة حوالي 949-983) من الأناضول و ميزوبوتاميا الى سواحل المحيط الهندي (خارطة 18).

يكتنف الغموض اصل الديلميين. شنت حملاتهم العسكرية و السياسية اثناء العهود الاسلامية من جبال ألبرز في كيلان المطلة على بحر قزوين، الا ان، اذا اقتفينا اثرهم الى عهود ما قبل الاسلام، انهم نشأوا بوضوح في منطقة دجلة العليا في الأناضول، وهي موطن سليليهم المعاصرين، كرد الديملي (الزازا). يضع الكتاب الزرادشتي المقدس بُندهشن (Bundahishn) ديلمان (اي ديلمان فيما بعد) في المنابع الرئيسة لنهر دجلة و ليس في المناطق الجبلية الساحلية لبحر قزوين. تشير السجلات الكنسية التأريخية العائدة لأربيلا (أربيل المعاصرة) المسيحية في الفترة الكلاسية المتأخرة ايضا الى نفس هذه المنطقة شمال سنجار (المنابع الرئيسة لنهر دجلة) تشير اليها بـ (بيث ديلوماي) "Beth Dailomaye"، أي "ارض الديلميين". علاوة على ذلك، ان الرقعة الصغيرة لجبال البرز الغربية (و هي رقعة من الارض حوالي بحجم (Long Island) في نيويورك) التي كان يعتقد تقليديا بأنها موطن الديلميين، غير قادرة لا من الناحية الطبيعية و لا البيئية، على إيواء سكان هائل الى حد يغطي منطقة تمتد من نهر النيل الى آسيا الوسطى مع عدة مستعمرات، كما فعل الديلميون في فترة قصيرة من الوقت. كثير من البويهيين، مثل شرف الدولة شيرزل (Sherzil) او شيرزلي (Sherzili) (حوالي 983-990 للميلاد)، لهم بشكل واضح اسماء كردية، مع كون زيل (zil)، و هو الجزء الثاني لأسمه الشخصي، دملي تماما و يعني القلب (بالهورامانية زيلي (zili)، بالكورانية دل (Dhilll)، و بالكرمانجية زرد (zird)؛ انظر اللغة)، و الذي يجعل الاسم يعني "ذا قلب كقلب الأسد". يناقش ابو الفداء، مؤرخ الحقبة القروسطية المبكرة افتراضات متنوعة حول اصولهم و صلتهم (قرابتهم -المترجم) العرقية، يعتبر الكرد و الديلميين معا كونهم واحدا (التواريخ القديمة). كان ابوالفدا نفسه ذا اثنية كردية و مؤهل جدا لإبداء الرأي حول موضوع الأثنية الكردية (Kurdish ethnicity).

يبدو ان معظم، ان لم يكن كل الديلميين كانوا

انصار الديانة الكردية الأصلية عبادة اللائكة، مع وجود نفوذ مذهبي شيعي طفيف (انظر الدين). قد يعلل ذلك على نحو جيد حيرة العلماء المعاصرين لماذا حين قام الملوك البويهيون الديلميون بهزيمة الخلافة العباسية السنية في بغداد لم يبدلوها بأسرة شيعية حاكمة. و قد يفسر ايضا لماذا نالوا قدرا كبيرا من المدح و التمجيد من لدن الكتاب السنة شديدي الولاء مثل السياسيين القروسطيين صاحب ابن عباد و نظام الملك الذين لم يكونوا يعفُون (يستثنوهم من حملات او هجوم -المترجم) الشيعة ابدا في كتاباتهم المؤثرة. كونهم هم انفسهم غير مسلمين، لم يستطع الديلميون تحمل ابداء تحد أكبر تجاه الاغلبية السنية، بالاتيان بخليفة من اقلية دينية اخرى، اي الشيعية. انها حقيقة معروفة جيدا بأن تقريبا في نفس هذه الفترة، قصد بعض الحكام الديلميون مثل الملك الزياري مرداويج، والملك الكاكويهي ماكان (King Mâkân Kâkuyid) محو الاسلام جملة و تفصيلا (و فقدوا حياتهم في محاولتهم القيام بذلك).

بقي دين الديلميين مختلفا عن دين جيرانهم في الاراضي المنخفضة، الكيلانيين و التاليشيين الذين كانوا مسلمي السنة منذ عهود قديمة (Minorsky, 1953:112). في الحقيقة، في الوقت الذي تحول الكيلانيون فيما بعد الى فرع زيد للاسلام الشيعي (الشيعة الخماسية)، بقي التاليشيون على مذهب السنة الشافعي الى يومنا هذا. ففي القرن الخامس عشر، يعتبر الجغرافي و المؤرخ و رجل الادارة (administrator) الاسلامي، حمدالله مستوفي، حيث كان مسقط رأسه قزوين بعيدا من حدود ديلمان البرز بضعة عشرات من الأميال فقط، يعتبر الديلميين غير مسلمين و مشركين. بعدما اتخذ دينهم غير الاسلامي كذريعة، شرع الحاكم الزيدي الكيلاني، الأمير كيا (Kiyâ) في مذبحة فظيعة ضد ديلميي البرز الباقين في القرن الرابع عشر.

و اليوم، مازال سكان هذا الجزء من جبال البرز كردا، و اغلبية هؤلاء الكرد يعتنقون الاديان غير الأسلامية: اليارسانية و العلوية، و لو مع شيء من النفوذ الشيعي الاثناعشر و الاسماعيلية. الا ان هؤلاء الكرد قادمون متأخرون، اذ يعود تأريخهم الى القرن السادس عشر فقط. و مع ذلك انهم يعززون الفكرة التي مفادها ان هذه المنطقة كانت لفترة طويلة تشكل التخوم النهائية لهجرات كردية من وسط وشمال زاكروس. انه أمر مدهش ان نجد بين هؤلاء الكرد الجدد القاطنين في جبال البرز، متحدثين بالدملية، و هي اللغة الأقرب من اللغة الديلمية (Daylami) القديمة.

كانت ديلمان في جبال البرز موقعا لأهم حصن اسماعيلي ايضا، قلعة الموت (the Castle of Alamut)، و هي مكان الأقامة الأسطوري "لعجوز الجبل" (و كلمة الموت تعني "عش النسر" بالدملية).

من بين السلالات الكردية الحاكمة الأخرى ذات الأهمية: كان الباونديون في منطقة جنوب بحر قزوين (665-1349 للميلاد)، الزياريون في طبرستان

و جرجان (927-1090)، الكنكاريون (و المعروفون ايضا بالمسافريون او السالاريون) في آزربيجان و شمال غرب ايران (916-1090)، الجستانيون في كيلان ورويان (Ruyân)و تاليشان () (Tâlishân)حوالي القرن السادس-القرن الثاني عشر)، الشبانكارة او(الشوانكرة -المترجم-) في اقليم فارس و كرمان، والكاكويهية في وسط و جنوب ايران (1008-1119).

بعد البويهيين، يعد الأيوبيون المع السلالات الكردية القروسطية الحاكمة. نشأ الأيوبيون من العشيرة والأسرة الملكية الكردية الهذبانية التي حكمت مملكة حذياب (كردستان المركزية) التي سميت بأسمهم (اي بأسم الهذبانيون -المترجم) قبل ذلك الوقت بسبعة قرون، اثناء قرون عضويتها في الاتحاد الفرثي (227 ق.م 224 -للميلاد) (انظر التأريخ الكلاسي). بعد توسعه الى خارج كردستان لإعادة السيطرة على الأراضي المقدسة (Holy Lands) من الصليبيين، الحق مؤسس الأمبراطورية، الملك صلاح الدين (حوالي 1169-1193)، الحق الهزيمة بريجارد قلب الأسد (Richard the Lionhearted) البريطاني و واصل تقدمه ليوسع من منطقة سيطرته ليحتل، بالاضافة الى كردستان، مصر و العراق و سوريا و الأراضي المقدسة و الجزيرة العربية و اليمن. حكم الأيوبيون هذه الأراضي من 1169 للميلاد حتى نهاية القرن الخامس عشر (الخارطة 19).

اظهرت هذه السلالات الكردية القروسطية الحاكمة درجة غير عادية من الليبرالية الدينية، كما اظهروا ذلك بوضوح من خلال معاملتهم النموذجية للمسيحيين و اليهود في المناطق الخاضعة لسيطرتهم. تؤكد مصادر مسيحية معاصرة صحة وجود معاملة مساوية من قبل الشداديين ازاء الجورجيين والأرمينيين المسيحيين.

جعلت معاملة الأيوبيين للصليبيين، الملك صلاح الدين يفوز بلقب "امير الشهامة" من لدن المسيحيين. و اعترافا بذلك، بعد مرور 711 عاماً على الاستيلاء على القدس من قبله، امر ويلهلم الثاني قيصر المانيا حين زار دمشق في 1898 امر بإعادة بناء ضريح صلاح الدين المتداعي. و يحمل المصباح الفضي المعلق على الناووس (sarcophagus)(7) شارة الشرف الشخصية لقيصر و تلك العائدة للسلطان العثماني، لأن "صلاح الدين كان اقرب نموذج يمكن ايجاده للعدو النبيل" (Newby 1983, 13).

توازيا مع سلالة الديلميين و الأيوبيين الكبيرة، نجح كرد آخرون في تأسيس أسر حاكمة مهمة في ومن حول كردستان. و الأهم بين هذه السلالات كان الشداديون في أرمينيا و شروان و آزان (في القفقاس) (951-1174)، الملانيون (و عرفوا ايضا بالروادديون) في آزربيجان و جنوب قفقاس (حوالي 920-1071) والحسنويهية (و عرفوا بالحسنويون و البدرخانيون و هي تسمية اقل دقة) في كردستان المركزية والجنوبية (959-1015) (خارطة 20).

كما كان هناك عدد كبير من اسر اميرية كردية أصغر حجما، كان عددها كبيرا الى حد يكفي ليبرر

اجراء دراسة خاصة بهم. الا ان صغر حجم المناطق الخاضعة لسيطرتهم لا يدل، بأي حال من الأحوال، على عدم اهمية هذه الأسر او بان حمكها كان سريع الزوال. و اسس كردي يحمل اسم باذ او بَذ من قبيلة باذ التأريخية (و التي ربما كان قد تحدر منها بابك ايضا في وقت سابق) اسس في عام 983 اسرة حاكمة لتحكم المنطقة الواقعة ضمن و حول مدينة اخلات (خيلات) الواقعة على الساحل الشمالي لبحيرة وان. و توسعت فيما بعد و اصبحت تعرف بالسلالة المروانية الحاكمة التي حكمت المناطق الواقعة بين نهر الفرات و بحيرة ارومية (983-1085). ثم تطور المروانيون و نشأ منهم الروزكيون (Rozhakis) حيث اخذوا من بتليس عاصمتهم، ثم تلاهم البدرخانيون. تساوت السلالة الروزكية/البدرخانية فقط في 1846 (انظر التاريخ الحديث المبكر). الا ان اسرة باذ الأصلية بقوا كأمراء لدولة مدينة (city-state) اخلات الواقعة على بحيرة وان. لم تنقطع فترة حكمهم حتى 1847، حين فرض العثمانيون الحكم المباشر على المنطقة و ازالوا آخر امير كردي لأسرة باذ -بعد مرور 864 عام على تاسيسها. ترقت هذه الأمارة الصغيرة على غيرها من الأسر المحلية المالكة الثوابة (8)(resilient) للعباسيين و العثمانيين من حيث طول العمر. ومازالت القبيلة التي تحدرت منها باذ باقية اليوم كقبائل باز او بَزيني في كردستان الشمالية و الغربية (أنظر جدول 3).

ظهر مصطلح كردستان (Kurdistan) لأول مرة حوالي اواسط القرن الثاني عشر، ليشير الى كردستان الجنوبية فقط، المتمحورة حول كرمنشاه و ديتور وهمدان. رغم الأستنتاجات او التفسيرات الكثيرة لهذه الحقيقة من لدن كتاب يكتبون عن الكرد، في الحقيقة ليست لها اهمية تاريخية للكرد على الأطلاق. استخدمت الكلمة الايرانية ستان ((istânاو استان ((gistânاو التي تعني "ارض" او "بلد" استخدمت دون تمييز في حوالي تلك الفترة، و حين اضيفت الى اسم مجموعة اثنية دلّ، بعدم كياسة نوعما، على وحدة ادارية و قاطنيها. اذن اصبح مصطلح كردستان يوازي اشارات او اسماء اثنية اخرى لأجزاء واسعة من جنوب غرب آسيا (اي ارمنستان، تركستان، عربستان، سكستان(سيستان)، بلوجستان و الخ)، و استخدم على وجه الحصر لأغراض ادارية من قبل السلاجقة القريبي العهد.

بحلول بداية القرن الثالث عشر، انتهت الفترة الكردية من التأريخ الاسلامي، و بدأت اربعة قرون تركية. دخلت كردستان -في الحقيقة جميع الأجزاء الأسيوية من الشرق الأوسط- اربعة قرون أثناءها غمرها بدو الترك الذين محو من الوجود حضارات وجماعات أثنية عدة. اصبحت كردستان ممرا حيث عبرت اعداد هائلة من بدو الترك ليدخلوا، و في نهاية الأمر، يدمروا الأمبراطورية البيزنطية ويقوموا بتتريك المناطق الخاضعة لسيطرتها.

بينما اختفت السلالات الكردية الحاكمة الرئيسة، واصلت امارات كردية اصغر حجما حيواتها السياسية. كانت تلك الأمارات تعهد للأسر الملكية

التركية و المغولية الكبيرة للسلجوقيين والخوارزمشاهيين و الأيلخانيين و التيموريين تعهد اليهم بولاء (9)(homage) غير مقيّد (اي متمتع بحرية نسبية -المترجم). كان دفع جزيات سنوية وعمليات تجنيد عرضية للخدمة الألزامية هو كل ما كان الكرد يدفعوه مقابل الحكم الذاتي (autonomy) في بلدهم. كان معظم الأمارات الكردية تتسارع الى أستخدام اي ضعف في الهيمنة التركية لترسيخ الاستقلال التام. بين هؤلاء كان الأحمدياليون (Ahmadyals) في كردستان الشرقية وآزربيجان (فرع من الراونديين، حتى حوالي 1201)، الزنكنة (Zangana) او الزنكيون (Zangidsds) في الموصل (1127-1250)، سلالة كوكبوري في اربيل و كركوك (1144-1232)، البكريون في دياربكر و اورفة (1101-1312)، والأردلانيون الذين بقوا لمدة طويلة (1168-1867).

حتى الغزو المغولي للأراضي الشرقية للشرق الأوسط لم يتمكن من التقليل من الحكم الذاتي (self-rule) في كردستان. كانت الغزوات المغولية الى داخل كردستان قصيرة و سطحية من ناحية التأثير. في الحقيقة، كانت كردستان بعيدا من أهداف نشاطات المغول بحيث طلب آخر ملك خوارزمشاهي: جلال الدين منغوبيرتي، اللجوء هناك. تأهب الكرد، الذين وجدوا عمليات النهب و السلب القاسية التي قام بها للريف الكردي كخطر محيق خطورة شبح الغزو المغولي، تأهبوا تحت قيادة الأمير مظفرالدين الكوكبوري أمير أربيل، للتصدي له. و لكن تمت هزيمة الأمير و اسره. بغية جذب تعاون الكرد، اعاد جلال الدين الكوكبوريين الى اربيل و عوض على تعامله الفظ مع الريف الكردي.

الا ان كانت لجلال الدين مخططات كبرى لكردستان. و سرعان ما حاصر و دمر اخلات، العاصمة القديمة لأمارة باذ التأريخية، و التي كانت قد اصبحت حينئذ دافعة للجزية للأيوبيين. فشل في اخذ بتليس من الأمراء الروزكيين، و لكنه تعهد بالعودة و محو المدينة من الوجود. لاقى هذا الملك الشرق اوسطي الرئيس الأخير الذي قاتل المغول، حتفه بعد عام في 1231 على يد الكرد الذين وجدوا هذا الملك القاسي اكثر من ان يحتملوه.

بينما اخذت المصاير السياسية (political fortunes) الكردية في اواخر القرون الوسطى في الخمود تحت سلطان السلالات التركية الحاكمة، اتسع دين الكرد بشكل مؤثر. في الحقيقة، كادت الديانة الأصلية الكردية عبادة الملائكة ان تمتص الإسلام الشيعي و تابعيه. (أنقذت الشيعية فقط حملة استثنائية لتنقية البلاط الصفوي الأوسط و المتأخر تنقية أيديولوجية و شعائرية خلال القرن السابع عشر.)

لقد كانت للديانة قدرة متأصلة على تحويل وامتصاص ديانات أجنبية من خلال أيمانه الجوهري بتجسد الروح مجددا او تناسخ الروح "reincarnation of the soul" (انظر عبادة الملائكة). كانت الديانة قد أعلنت بان الرسول محمد و ابنته فاطمة، الوحيدة بين أولاده التي كانت على

قيد الحياة، و صهره و أمـام الشيعة الأول علي (مع آخرين كثيرين من ضمنهم شخصيات يهودية-مسيحية سامية)، أعلنت بأنهم تجسُدات متناسخة "للـروح الكونيـة" للديانـة. لم تشكل مشاكل جوهريـة لتـابعي الديانة ، على وجه الخصوص العلويين، و بدرجة اقل اليارسانيين، محاولتهم إصلاح الشيعة أولا من التأثيرات القرآنية و من ثم امتصاصهم هم و دينهم.

كانت الحملة قد بدأت أبان التقويض التدريجي لسلطة الأسرة الأيلخانيـة المغوليـة الحاكمـة في بـلاد الفـرس (1256-1353) علـى المنـاطق الخاضعـة لسيطرتها، التي تضمنت كردستان و ميزوبوتاميـا وبـلاد الفـرس و منـاطق مجـاورة أخـرى. بـدأت مجموعـة علويـة "ذات مذهـب شـيعي زائـف"(1) بدأت بحقد أو حبا في الأنتقام بتوجيه لعنـة يومية ألى الرسول محمد و صحابته الموقرين مـن منـابر مساجدهم. و كان مقصدهم من وراء ذلك ترويج وتحويل مسلمي الشيعة التقليديين (و حتـى السنة) بـالقوة إلى دينهم الـذي قدمـوه كالإسـلام الحقيقـي. افلحوا في ذلك لفترة من الزمن.

وجد العلويـون حماسـة التركمـان الأنـاضوليين المهتدين كنعمـة حاسمـة(يُعول عليـها -المترجم). و تحت حكم الملك جهانشاه (حـوالي 1438-67) مـن سـلالة قرقوينلـو (Qara Qoyunlu) التركمانيـة الحاكمة (1380-1468)، وسعوا من المنطقة الخاضعـة لسلطتهم السياسية إلى أن وصلت إلى مشارف هيرات (في أفغانسـتان المعـاصرة) ، و الـتي كـانت العاصمـة لأعظم قـوة سنية في ذلـك العـهد، اي التيموريـين.

وبعدما أرهبهم هـذا السلوك الدموي الصـادر عـن "المتظـاهرين بالشـيعية" و روعـهم الطـابع غـير الإسلامي البيّن لدينهم، شن المسلمون السنة هجوما مضادا. بدأ لاهوتيو السنة في الأناضول وميزوبوتاميا و بلاد الفرس و آسيا الوسطى بالهجوم على العلويين "الشيعة" و سموهـم بأنـهم ليسـوا بشيعة بـل انـهم "الرافضون" (اي المرتدون). و سرعان ما أسقطت دعوتهم لمعاقبة "الكفار" سـلالة قرقوينلـو على يد سلالة تركمانيـة حاكمـة أخـرى: آق قوينلـو (Aq Qoyonlu) في 1468. لم يدم هذا الانقلاب في الأمور، و سرعان مـا أفلحت الدعايـة العلويـة قطـع دعـم التركمـان السـنة و الكـرد لأق قوينلـو عـن طريـق تحويلهم الى دينهم.

تم الاستيلاء على عاصمة اق قوينلو، ديار بكر في كردستان الغربيـة في 1508 من قبـل ملـك علـوي قوي جديد إسماعيل الأول الذي أسـس الإمبراطوريـة الصفوية في بلاد الفرس (حـوالي 1501- 1524). قـاد إسماعيل، الذي أدعى بأنه تجسيد جديد للإله و"اله الزمـان" الحـي (مـازال يقـدره و يبجلـه المجتمـع العلوي الواسع في الأنـاضول على هـذا النحـو)، قـاد جيـش هـائل و مـهيب يتـألف مـن جنـود أوفيـاء بتعصب يُدعَون قزلباش. (كـانوا يُدعـون قزلبـاش، والتي تعني بالتركية "ذوي الرؤوس الحمراء"، لغطاء الـرأس الأحمـر الـذي كـانوا يرتدونـه و الـذي مـازال العلويـون الكـرد المتمسـكون بالتقـاليد في الأنـاضول يرتدونه، انظر الازياء و المجوهرات).

تدفـق المـهتدون الكـرد و التركمـان إلى خـارج

الأناضول و كردستان لينضموا إلى إسماعيل في مهمته كمخلص "مهمته المسيحية" (Messianic undertaking). تحملت كردستان هذا بشكل جيد بما أن أعداد السكان الكرد كان في تزايد بمعدلات غير مسبوقة، إذ ازداد بنسبة 20٪ بين 1425 و حتى عهد إسماعيل حيث أصبح 3.1 مليون نسمة و هي كانت أعلى نسبة وصلها في أيما وقت مضى (انظر الديموغرفيا). وسعت جنود قزلباش المتصددون والموقعون الرهبة في النفوس خلال أعوام قليلة وسعوا من المنطقة الخاضعة لحكم إسماعيل من الأناضول المركزية و ساحل بحر الأسود إلى آسيا الوسطى و سواحل المحيط الهندي. بدا و كأن لاشيء يستطيع إيقاف سيف إسماعيل و انتشار العلوية على حساب الإسلام التقليدي (conventional)، حين ظهرت من الآفاق الغربية شرائع العثمانيين السنة الاورثوذوكسيين.

التأريخ الحديث المبكر

تعد هذه الفترة من تأريخ الكرد فترة انحطاط مطرد عم جميع أصعدة حياتهم القومية، مع استثناء محتمل وهو الأدب. وجد جزء مهم من الأمة أيضا نفسه قد تم ترحيله إلى مناطق نائية خلال الـ250 عام الواقعة بين حوالي 1500) 1750 -انظر عمليات الترحيل و إعادة الاستيطان القسرية).

كان مجتمع كردي مفعم بالنشاط و كادح ودنيوي إلى حد معقول في بداية تلك الفترة قد اصبح من المجتمعات الأكثر تخلفا و خرابا في الشرق الأوسط في نهاية تلك الفترة. كان هناك سببان رئيسان لهذا الانحطاط، 1) انقسام الشرق الأوسط إلى إمبراطوريتين متحاربتين: الفرس و الإمبراطورية العثمانية حيث كان خط النار بينهم يقع في قلب كردستان، و الأهم من ذلك 2) الانعزال الاقتصادي التام لكردستان الناتج عن التحول في طرق التجارة العالمية و هو تحول تمخض عنه نشوء عهد جديد.

-يشكل عبور فاسكو دي كاما (Vasco da Gama) لرأس الرجاء الصالح في 1497 تأريخا فاجعا في الحياة القومية للكرد كما هو في حياة جماعات اثنية أخرى. هذا التأريخ علامة على تحول التجارة العالمية السريع نحو النقل البحري و بعيدا عن الطرق البرية المؤسسة منذ عهد بعيد مثل الطريق الحرير بين الشرق و الغرب.

توقفت فجأة الحركة المكثفة لتجارة السلع و التكنولوجيا بين أوروبا و المشرق، و جميع المناطق الواقعة بين الاثنين، توقفت عن العبور عبر الأراضي الكردية و متجاوزة أسواقها جملة و تفصيلا. سرعان ما أصبحت كردستان منطقة جبلية غير ذات أهمية (.(mountainous irrelevancy)أن الثروة التجارية التي تسربت ذات يوم في جميع أرجاء الطرق التجارية البرية، و التي كانت تعود بالنفع على كل من وقع على طريقها، أصبحت الآن توجه مباشرة إلى بلدان التجارة المعنية في أوروبا أو آسيا، تاركة الآخرين جميعهم وحيدين لا معين لهم. بينما أخذت أوروبا تغرق في الذهب، أصبحت كردستان، و كل بلد آخر واقع على الطرق البرية القديمة، مفلسا و اصبحوا معدمين -و ليس فقط من

الناحية المالية.

لم تكن موارد الترانزيت فقط هي التي فقدت. فقد ذوت أيضا البنية التحتية بالكامل و التي كانت تدعم و تكمل التجارة المكثفة -الطرق و البيروقراطيين المثقفين الذين كانوا يديرون الثروة و الحاجة إلى دول محلية و قومية مستقرة و ذلك للحفاظ على طريقة حرة للتجارة. أوقف التحول تدفق التقنيات و المعلومات و الأفكار الجديدة عبر شرايين البلد و كذلك أخبار التطورات الجديدة من الأرجاء النائية للعالم المعروف و نماذج المنتوجات الأكثر حداثة للاستخدام المحلي و صناعة نسخ مطابقة عليها.

كما تسبب هذا التحول في تقليص كمية و نوعية اكثر المنتوجات المحلية قيمة بسبب فقدان أسواقها. أصبحت سلع و تقنيات قديمة رائجة عديدة و نشاطات توليد رساميل غير ذات أهمية حين واجهت الطلب الكردي المحلي فقط. و حتى طبيعة الحياكة الكردية التقليدية تغيرت (انظر البساطات والأقمشة). توقفت أصناف عدة من الحرفيين من ممارسة حرفهم و تلاشوا. قلل هذا التطور الطبقة الكردية الوسطى إلى حد كبير. فقط الآن، أخذت كردستان تنجو من تأثيرات قرون عدة من عزلة مطردة التي أحدثها التغيير. (عودة التجارة العالمية في الرواسب المعدنية (mineral deposits) الكردية وموارد طبيعية أخرى يلعب دور ليس بثانوي في هذه العملية: انظر الموارد الطبيعية).

الا ان التحول في طرق التجارة ليس فقط هو المسؤول عن انحطاط كردستان. استعادت الأمبراطورية الفارسية نشاطها على يد الصفويين في 1501 بعد اربعة قرون تقريبا من الثوران البدوي التركي.

يجب أن نقول شيئا هنا حول مسألة أسلاف السلالة الصفوية المالكة و انتسابها الاثني بالنظر الى الكرد. المصدر ما قبل الصفوي الوحيد و بالتالي الموثوق به و الباقي حتى الآن حول سلسلة نسب الأب الأكبر للسلالة الحاكمة، أي الرجل الصوفي التقي الشيخ صفي الدين (الذي توفي في 1334)، هذا المصدر هو صفوة الصفاء لأبن بزاز الأردبيلي. كان أبن بزاز قد زار، و هو طفل، الشيخ في 1325. و اكمل كتاب صفوة الصفاء بعيد 1357 و قبل الغزو الصفوي. رغم أن الصفويين قد حرفوا الكتاب عند نسخه فيما بعد، تثبت النسخة الأصلية بوضوح بأن سلف صفي الدين كان كرديا (Kasravi 1927). تتضمن اعمال لاحقة "تصحيحات تاريخية" و التي أوجبها المركز الحساس للسلالة الصفوية الحاكمة. تتألف هذه الأعمال من سلسلات نسب مفتعلة من البلاط (الملك و مستشاروه و كبار رجاله -المترجم-) ومصححة بدوافع سياسية، التي تربط الشيخ بدهاء(11) بالإمام الشيعي السابع من ناحية و من ناحية أخرى بالقبائل التركمانية التي كانت تشكل على نحو متزايد الحصن الحصين لدعم السلالة الحاكمة (على حساب الكرد). (قد تفسر أعمال الصفويين هذه كيف مر البكراتيون و التيكران كجورجيين و ارمينين في الفترة الكلاسيكية: انظر

التأريخ الكلاسي).

حسب رواية ابن بزاز، كان الجد الكردي الأعلى للشيخ صفي الدين، بيروز شاه زرينكولا (Piroz Shâh Zarrinkulâh)قد هاجر، مع عشيرة كردية كبيرة، من منطقة سنجار في سوريا المعاصرة في القرن العاشر. و استقرت تلك العشيرة، و اغلب الظن كانت عشيرة ديميلا (Dimila)، في المناطق الجبلية الواقعة الى الطرف الجنوب الغربي لبحر قزوين قرب اردبيل. قد تكون تلك الهجرة بحق من بين عمليات الهجرة الأخيرة للقبائل الكردية و الأسر الحاكمة القروسطية الكبيرة إلى هذه المنطقة العامة. عاش صفي الدين حياة رجل مسلم تقي في اردبيل، متبعا شعائر المذهب السني الشافعي في الإسلام، كما هو حال اغلبية الكرد اليوم، لكن ربما لم يكونوا كذلك حينئذ. السطور الشعرية القليلة الباقية العائدة له كتبت بلغة أقرب بكثير من الدملية من قرابتها من اللهجة الكرمانجية السائدة الآن في منطقة سنجار (انظر اللغة). و لاتزال هناك اليوم عشيرة دمبلية (دملية) صغيرة يعيشون في جبال سنجار في سوريا. ان علوية الأسرة الصفوية و حتى قبل ارتقائها إلى المرتبة الملكية اكثر قرابة من خلفية علوية دملية، من قرابتها من الكرمانج السني. ادعى مؤسس السلالة الصفوية الحاكمة: إسماعيل الأول بأنه اله متناسخ او متجسد (deity reincarnate)، و مازال يبجله العلويون المعاصرون كونه هكذا.

لم يختف حضور الكرد في منطقة اردبيل، رغم التتريك الكلي لسهول آزربيجان باتجاه الغرب منذ عهد صفي الدين. حتى اليوم هناك عشيرتان كرديتان و هما شترانلو (Shatrânlu)و كردبيكلو (Kurdbeglu)، يعيشون في الجبال غرب اردبيل.

بعيد تسنم إسماعيل الأول العرش في آزربيجان وشروان، وسع من هيمنته السياسية باتجاه الغرب ودمر سلالة أق قوينلو السنية الحاكمة في 1508 واستعاد كردستان (انظر التأريخ القروسطي).

وصل التأثير المتنامي للشيعية التقليدية على الأمراء الصفويين عن طريق تربيتهم على يد ولاة وأساتذة و و رجال دين فرس تابعين للبلاط، وصل ذروته في ما قام به عباس الكبير (1588 - 1629) والذي حل القزلباش العلوي و استئجر خدمات علماء من مسلمي الشيعة التقليديين من جميع أرجاء الشرق الأوسط. تمكن هؤلاء المفكرون الدينيون بشكل متنام من شطب العناصر العلوية من دين الدولة. رغم أن هذه التطورات أنقذت الإسلام الشيعي من أن تمتصها العلوية بالكامل، إلا أن النفوذ العلوي باق إلى يومنا هذا.

قوبل توسع الإمبراطورية الصفوية الناشئة غربا في 1514 بتحدي الإمبراطورية العثمانية المتسعة شرقا في ساحات قتال جالديران في شمالي شرقي كردستان. و هكذا تجدد الصراع الشرق-غربي العائد للعهد الكلاسي بين الفرس و الرومان/البيزنطيين، حيث وقع الكرد مرة أخرى وسط الصراع. كان الاختلاف هو أن في جالديران، تمكن العثمانيون، خلف البيزنطيين، من إحراز نصر حاسم على إسماعيل الأول و الفرس الصفويين دافعين إياهم

بعيدا إلى الشرق إلى ما وراء نهر دجلة. بعد قرن تلا من الحروب، تم تثبيت الحدود بين الإمبراطوريتين على الحدود الغربية تقريبا لإيران المعاصرة من خلال معاهدة الزهاو في 1639. ترك هذا الأمر ثلاثة أرباع كردستان تحت سيادة العثمانيين و التي دامت حتى تفكك تلك الإمبراطورية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

في الحروب التكوينية(12) المبكرة بين الإمبراطوريتين الفارسية و العثمانية، منح الكرد العلويون ولاءهم إلى الصفويين و غالبا ما انحاز الكرد السنة إلى العثمانيين الذين كان حكمهم اكثر ليونة (غير صارم -المترجم) من حكم السلالات العلوية و الشيعية المتعصبة الحاكمة في بلاد الفرس. إضافة إلى ذلك، عان معظم الكرد، العلويون منهم والسنة على حد سواء، عانوا بشدة على يد الصفويين، في المقام الأول بسبب موقعهم الستراتيجي و حقائق الواقع الجغرافية لتلك الفترة.

كانت القوات الصفوية المتألقة بشكل رئيسي من فرسان متنقلة بكثرة و خفيفة السلاح، نزعت إلى أن تكون اصغر حجما بكثير من القوات العثمانية و التي كانت تتألف بشكل أساسي من مشاة بطيئة الحركة و محملة بمدافع. لهذا السبب، كان على القوات العثمانية، الأكبر حجما و الأبطأ حركة، جمع المؤن و هم في طريقهم إلى المعركة. و إلا كان حجم قوافل المؤن نفسها (و تكلفتها) يحدد من عدد الرجال الذين كان بمقدور أي جيش عثماني إنزاله في أية ساحة معركة مع الفرس. لمواجهة قوة النار العثمانية، مارس الصفويون سياسية "الأرض المحروقة" و ذلك لمنع العثمانيين من جمع هذه المؤن. حافظت سياسة الأرض المحروقة بشكل فعال على ميزان القوة بين الإمبراطوريتين، و في الحقيقة، أحيانا رجحت كفة الميزان لصالح بلاد الفرس الأقل حجما و الأقل كثافة بالسكان. كانت فرسانها الخفيفة السلاح و السريعة الحركة تتمكن من عبور الأراضي المحروقة و غير الآهلة، بصعوبة قليلة، لتشن هجمات على القوات العثمانية الثقيلة الحركة. شاءت الصدف أن تكون كردستان الأرض التي تطلبت حرقها لكي يفلحوا.

تم ترحيل أعداد هائلة من الكرد من قبل الصفويين إلى أرجاء نائية من المنطقة الخاضعة لسلطتهم. درجة الدمار المرعبة الذي حل بكردستان الشمالية و الغربية أقنعت الكرد الباقين هناك بدعم العثمانيين. قاد طليعة حركة تعبئة الكرد لمناصرة العثمانيين الأمير إدريس و هو أمير بتليس الروزكي (Rozhaki) و جد شرفخان: كاتب أول تأريخ بان-كردي معروف ألا وهو شرفنامة (انظر الأدب).

و قد اكتسبت حادثة من حوادث سوء معاملة الصفويين للكرد منزلة الملحمة القومية: و هي قصيدة دمدم القصصية (Ballad). قلعة دمدم الواقعة 110 أميال جنوب اورومية هوجمت من قبل عباس الصفوي الأول في 1608. خلال محاصرة القلعة التي دامت عاما، قاتل المدافعون الكرد دفاعاً عن دمدم حتى آخر شخص لديهم تحت قيادة أمير

خان برادوست، وهو "الخان الأسطوري ذو الكف الذهبي". تجمع الملحمة بين العناصر البطولية لإليادة و الإصرار المخفق و الاحادي الهدف (او الموطد عليه العزم -المترجم) للمدافعين عن مسعدة.

بسبب صلاتهم (صلات الألفة -المترجم-) الثقافية، و حتى الدينية القوية مع بلاد الفرس، كان سكان كردستان المركزية و الجنوبية عادة ينحازون إلى تلك الدولة. و لكن حتى تلك الصلات كانت تنقلب من حين الى آخر ضد الحكم الصفوي المبكر المتعصب. بعيد وفاة الشاه إسماعيل الأول في 1524، تمرد الأمير الكردي ذوالفقار خان الذي كان من عشيرة كلهور ضد الصفويين. استطاع غزو بغداد، و وضع نفسه و المنطقة الخاضعة لسلطته تحت السلطة العثمانية. و هذا حدا بالسلطان العثماني السلطان سليمان الكبير لانتزاع العراق في 1533 و الذي بقي معظم الوقت تحت السيطرة العثمانية حتى عام 1917.

في الحقيقة، سمح السلطان العثماني سلطان سليم الأول (حوالي 1512-1520) بمقدار وافر من الحكم الذاتي (autonomy) للكرد و الذين بالتالي انحازوا اليه. الا إن التعهد العثماني بادارة عادلة سرعان نقض هو أيضا، و في الحقيقة من قبل سليم نفسه. نحو نهاية فترة حكمه، تم ترحيل أعداد غفيرة من الكرد قسرا إلى مركز و شمال الأناضول، حيث اصبحوا النواة للمحوطات الكردية الكبيرة موجودة الآن هناك. تم ترحيل بعضهم بعيدا حتى بلغاريا.

بين هؤلاء المرحلين من قبل العثمانيين برز في توكات في شمال الأناضول في 1519 شخص اسمه جلال ادعى بأنه تجسد للروح. من اللافت للنظر أن نلاحظ أن جلال برز في نفس المنطقة بالضبط الواقعة في بنطس القديمة و التي قد كانت المقر الرئيس في القرن التاسع لترسي الخورمي "ثيوفوبُس" و تابعيه من الكرد المرحلين، و انهم بشروا بشكل أساسي بنفس الأيديولوجيا الدينية والاجتماعية المبنية على أساس ديانة عبادة الملائكة (انظر التأريخ القروسطي و عبادة الملائكة). و اتخذ جلال اسم الشاه إسماعيل تيمنا بالملك الصفوي المهزوم. ادعى أنه تلقى المجد الملكي الذي كان قد افل نجمه عند الملك في وقت مبكر و الذي تسبب في هزيمته الكارثية في جالديران في 1514. حاول جلال الانتقام لهذه الهزيمة. كونه علوياً ديملياً، تلقى جلال دعمه الرئيسي من المزارعين و سكان المدن. رغم نجاحه الكبير في البداية، تمت هزيمته و قتله مع آلاف من اتباعه. سميت ثورته بالحركة الجلالية تسمية باسمه الشخصي و التي كانت تبرز مجددا من فترة إلى أخرى في الأراضي العثمانية خلال القرنين التي تلت. كانت تقود ثورات جلالية عدة أفراد ادعوا بأنهم تجسد للروح (بابا) مثل بابا زوننوم في بوزوك و قلندر جلبي في 1526-1527 في ايلبستان في كليكيا. الا ان اتباع الجلالية اتوا على نحو متزايد من التركمان و جماعات أثنية تركية، فاقدين علاقتهم المباشرة بالتأريخ الكردي(13).

عجلت الأحداث المدمرة المستمرة لهذا العصر التي وقعت على الأراضي الكردية، في نشوء فكرة جديدة

أيضا بين المفكرين الكرد: ألا وهي حكومة بان-كردية. كانت فكرة أمة تحكمها حكومة وطنية (قومية) مكرسة لرفاه و أمن تلك المجموعة الأثنية و الحفاظ على ثقافتها، كان في الحقيقة تفكير غير مميز جدا (اي غير نموذجي -المترجم) و منطو على مفارقة تاريخية (very uncharacteristic and anachronistic)جدا، و على وجه الخصوص في الشرق الأوسط المسلم حيث كانت الأمة: أمة المؤمنين، كانت يجب ان تكون النقطة الأساسية الوحيدة التي تستحق ولاء اكبر.

بعيد الغزوات الإسلامية في القرن السابع، ظهرت حركة بين الشعب الإيراني أيضا لمناصرة القضية الوطنية (القومية) (national cause) لـ "إيران" الكبرى (Greater Eran) كموطن لثقافة و شعب متميزين عن ثقافة و شعب المناطق العربية والميدان الثقافي العربي. تجسد ذلك على أحسن وجه في ملحمة الفردوسي، شاهنامة. إلا إن بالأمكان تمييز هذا عن النهضة القومية للكرد، بما إن شاهنامة لم تخص مجموعة اثنية معينة واحدة، بل بالأحرى كانت تخص مجموعة من مجاميع اثنية كانوا يقاسمون الحضارة الايرانية الكبرى. لم تروج شاهنامة ابدا، بأي حال من الأحوال، لفكرة حكومة واحدة أو كيان سياسي واحد لتوحيد و حماية هؤلاء الشعوب و هذه الحضارة. بما إن الكرد واجهوا مذا اكثر تدميرا، قامت الكتاب الكرد في القرن السابع عشر بلا شك بذلك.

أول تأريخ بان-كردي، شرفنامة، كتب في 1596 – 1597من قبل الأمير شرف الدين (شرفخان) بتليس --المدينة التي كانت مهبا لزوبعة التدمير و الترحيل و العنف المدمرة التي دامت قرنا من الزمان. يرثي شرفخان لقسمة الكرد و لوطنهم الستراتيجي. يتحدث بتليسي بين الفينة و الأخرى عن فكرة ملك بان-كردي. يرثي لغياب هكذا فكرة، و من هنا يعتقد بأن المشكلة قد تكمن في الإسلام و فكرة الأمة المغفلة (أي الفكرة التي تصرف الانتباه عن الفكرة البان-كردية -المترجم-)، و يلقي باللائمة كناية على لعنة أنزلت على الكرد من قبل الرسول محمد لا غيره. يكتب بتليسي: "بعدما اربكت الرسول محمد ملامح مرعبة و مولعة بالقتال لزائر كردي، سأل الله أن ينزل لعنة الشقاق على الكرد، بما أن الرسول خشي بان الكرد، إذا توحدوا، سيغلبون العالم."

بعد مرور قرن، في 1694، يبدي الشاعر الغنائي الكردي احمدي خاني في ملحمة مَم و زين: "انظر! إن وطن الكرد يمتد من بلاد العرب و حتى جورجيا. و لكن حين يضطرب المحيط الفارسي والبحار التركية، البلد الكردي هو الوحيد الذي يتلطخ بالدماء." يلقي خاني علنا باللائمة على القسمة السيئة لأبناء بلده الكرد الواقعين وسط صراع الجيوش الصفوية والعثمانية التواقة للانتقام، في غياب دولة كردية (hukumat). بما انه ولد و كان هناك شقاق بين الأسر الأميرية الكردية في ذلك العهد، اقترح الوحدة تحت إمرة ملك كردي واحد الذي بإمكانه حينئذ حماية الشعب و تراثهم

القومي و الثقافي. يعد استخدام احمد خاني على وجه الحصر تقريبا لمواضيع و أفكار وطنية في هذا الوقت الذي تميز بالمحنة القومية المطبقة أول تعبير ملموس، جنبا إلى جنب مع شرفنامة بتليسي، عن وعي قومي بان-كردي، إن لم يكن تعبيرا عن القومية (nationalism) بمعناه الحديث (انظر الأدب).

مع انخفاض وتيرة الأعمال الحربية الفارسية-العثمانية بعد منتصف القرن السابع عشر، لقي هذا النموذج البدئي للقومية (nationalism) الحديثة آذانا صماء بين المفكرين الكرد. المستويات الآخذة في الانحطاط للثقافة و معرفة القراءة و الكتابة وانقراض الطبقة الوسطى المدنية التي كانت فيما مضى نابضة بالحيوية احدثت فجوة فكرية متسعة دوما بين هذه المنارات و أبناء بلدهم للأجيال القادمة المعدمين و الذين تحولوا على نحو واسع إلى حياة البداوة.

بين الأسر الأميرية الكردية المتمتعة بحكم ذاتي (autonomous) لهذه الفترة، اشتهر الاردلانيون في شهرزور في كردستان المركزية و الجنوبية برعايتهم للفنون الجميلة. و دعم شمزينيو هكاري في كردستان الشرقية و شمال كردستان المركزية كثيرا من الشعراء و الكتاب الكرد. كان شرف الدين البتليسي، كما تم ذكره، كان نفسه أميرا لبتليس من سلالة روزكي (Rozhaki) الحاكمة في كردستان الغربية (الخارطة 21).

فيما يتعلق بدرجة الحكم الذاتي التي تمتعت بها هذه الأسر الكردية الحاكمة، أبدى الرحالة الفرنسي تافيرنير (Tavernier) في 1676 ملاحظة بأن "كان أمير بتليس لا يشار إليه كشاه (أي بلاد الفرس) و لا كبادشاه (إي العثمانيين) و كان بإمكانه إنزال قوة قوامها 20000-25000 فارس إلى ساحة المعركة."حسب ما كتبه فليريان (Fleurian) في 1694 يبلغنا اليسوعيون (Jesuits) الذين زاروا مدينة بتليس في 1683 تم الاحتفاظ بحالة المقطعية(14) الرمزية للحاكم تجاه العثمانيين فقط في إرساله جزية حين تسنمه الحكم.

بعد معاهدة زهاو، عم هدوء نسبي كردستان وإماراتها المتمتعة بحكم ذاتي (autonomous)، ليضطرب في فترة وجيزة نسبيا و لكن بشكل قاس جدا من 1722 و سقوط الصفويين الى 1750 وظهور الزند في بلاد الفرس. حدا فراغ السلطة الناشئة عن سقوط الصفويين بالعثمانيين إلى ضم المقاطعات الغربية الصفوية الأمر الذي وضع جميع كردستان لسنوات قلائل تحت الحكم العثماني.

سرعان ما تحدى المؤسس النشيط للافشريين في بلاد الفرس نادر شاه (حوالي1736-1747)، العثمانيين في كردستان و العراق. تقريبا، حل بالكرد ثانية الدمار الذي حل بهم في سنوات ما بعد جالديران، معيثا الخراب هذه المرة في كردستان الجنوبية و الشرقية و المركزية. مدن و قرى دمرت و عشائر بأسرها رُحلت. و المواقع المحصنة القليلة للثقافة و الحياة المدنية الكردية القديمة التي كانت قد نجت بأعجوبة من خراب القرنين السادس عشر

و السابع عشر الشامل (لأنها شاءت الصدف أن تبقى خارج ساحات المعارك الرئيسة) أزيلت من الوجود. لفت كردستان الآن ظلاماً مطبقاً و يستمر هكذا حتى القرن العشرين.

ضاع الكثير الكثير من التراث القومي و ذهب في طي النسيان، و ما بقي كان على درجة من التشتت بحيث بقيت فقط المصطلحات القروسطية الخاصة بالديانة الأصلية (يزداني أي "عبادة الملائكة") ولغة الكرد القديمة (البهلوانية). لم تستخدم مصطلحات مرادفة من ذلك الحين فصاعداً(15): بقيت فقط عناوين تسميات الدين الرئيسة (على سبيل المثال، اليارسانية، العلوية، الايزدية)، كما بقيت أسماء لهجات اللغة القديمة (على سبيل المثال، الدملية، الكورانية، اللكية). (انظر الدين و اللغة).

نشأت من إحدى القبائل التي رحلت من قبل الصفويين إلى خراسان: زند منطقة دي باري (Deh Pari) في جنوب شرقي كردستان، نشأت منها على نحو غير متوقع آخر سلالة كردية حاكمة مشابهة في الحجم و السجية للسلالة الأيوبية و البويهية القروسطية. أسس محمد كريم خان (حوالي 1750-1779) سلالة زند الحاكمة في بلاد الفرس التي حكمت من عاصمتهم شيراز منطقة مشابهة لإيران المعاصرة و أقاصي جنوب العراق حتى 1794(خارطة 22). لا تزال توجد عشائر زند متحدثة باللكية في مواقع مختلفة في كردستان الجنوبية من كفري إلى ملاير (انظر العشائر). ان كريم، و على نحو غريب، يذكرنا في حسن نيته (النزعة الى عمل الخير - المترجم) الشخصية و في شهامته تجاه أعدائه المهزومين و بسالته -و سذاجته السياسية -يذكرنا بملك كردي آخر، و هو الملك صلاح الدين. بينما اظهر خلف صلاح الدين حنكة سياسية مكيافيلية بما فيه الكفاية لضمان استمرار سلالتهم الحاكمة، افتقر خلف كريم إلى بسالته بينما توارثوا سذاجته السياسية. في الحقيقة، لم يتخذ كريم أبداً عنوان الملك، و لكنه بدلا من ذلك استقر على العنوان غير المسبوق "وكيل الرعايا" أي "ممثل الشعب" أو اختصارا "الوكيل". يذكرنا هذا بسلف كريم القديم، الملك الماناني الكردي الذي لم يكن يوجه كلامه بشكل شخصي، بل يوجهه مع "وجهاء ومسني قومه و أعضاء مجالس بلده" حينما يوجه بكلامه إلى الحكام الآشوريين الطغاة. (انظر التاريخ القديم).

آخر شخصية من الزند كان لطف علي، الشاب والموهوب جدا، تمت هزيمته و عذب حتى الموت من قبل مؤسس السلالة القاجارية الحاكمة في بلاد الفرس آغا محمد خان المعروف بإيقاعه الرهبة في النفوس (حوالي 1779-1797). كان آغا محمد قد قضى شبابه و تلقى تعليمه في حاشية كريم خان الذي أغدق عليه بإحسانه كأبن لعدو مهزوم.

كان اشراك النساء في الحملات العسكرية ميزة من ميزات الزند المثيرة للاهتمام. ذلك كان عرفاً كردياً قديماً جداً و مبجلاً (انظر مكانة المرأة والحياة الأسرية)، تمت مزاولته حتى من قبل كريم خان نفسه الذي قاتلت عروسه الأولى بجانبه ضد

القوات الأفغانية. يعرف الزند بسلوك كردي آخر على نحو مميز (أي يتميز به الكرد -المترجم-)، وهو تسامحهم مع الأديان الأخرى بجانب دينهم. يكتب عالم الآثار و الرحالة الدانمركي نيبور (Niebuhr) في 1776 عن اسرة الزند المسلمة الشيعية (أو اغلب الظن أنها كانت يارسانية) بأنهم "لم يكونوا يعيرون اهتماما لأديان رجالهم تحت السلاح سواء كانوا يدينون بالمسيحية أو الإسلام إو اليهودية". و يضيف أيضا بأن بعد احتلال الزند للبصرة بعد حصار طويل الأمد، "لم تنتهك قدسية أماكن العبادة، من ضمنها المعابد اليهودية و الكنائس و مساجد طوائف المسلمين المختلفة كما لم تتعرض لأعمال النهب."

فقد اقصت اللكيون، التي تشكل قبائل الزند جزءا منهم، و منذ بداية القرن الثامن عشر و بشكل متنام، اقصوا بأنفسهم من الكرد و انصهروا في مجتمعات اللور المجاورة، الذين هم أيضا فقدوا هويتهم الكردية عن طريق مسخ اثني (استحالة اثنية -المترجم-) حتى في وقت سابق لهذا التأريخ (انظر الاندماج و الصهر). لذلك وجد المؤرخون صعوبة في تحديد أثنية سلالة الزند الحاكمة.

منذ بداية حكم زند، غرقت كردستان في سلام من نوع مريب، أشبه ما يكون بسلام البرية. كان ذلك نتيجة لثلاثة قرون من عمليات عسكرية مسببة لكوارث و عمليات تخريب اقتصادي. كانت الناس مُهلكا و الأرض مفقرا الى درجة تحولت فيها كردستان إلى الحدود التخومية النائية و الفقيرة ذات قيمة ضئيلة لكل من الإمبراطوريتين العثمانية و الفارسية. كانت هاتان الإمبراطوريتان أنفسهما تفقدان بريقهما بسرعة لنجم الإمبراطوريات الكولونيالية الأوروبية الصاعد و وبراعة تقنياتهم الفائقة. كان الانحطاط في كردستان تقريبا مساويا للانحطاط العام الذي حل بالشرق، و إن كان على وتيرة أسرع بسبب الحروب و عمليات ترحيل السكان.

القرن التاسع عشر: حدثت نهضة مجددة (reawakening) للكرد نحو منعطف القرن التاسع عشر. كانت الإمبراطورية الروسية تدفع بتخومها إلى عمق شمال الشرق الأوسط في القفقاس و آسيا الوشطى. في عام 1813، بعد حرب دامت 9 سنوات بين الروس و الفرس، نقلت معاهدة كولستان (Gulistân)جورجيا، شمال آزربيجان (شروان القديمة) و داغستان من بلاد الفرس إلى الإمبراطورية الروسية. و هكذا انتقل الكرد لأول مرة الى داخل الأمبراطورية الروسية. كانت هناك المستعمرات الكردية القديمة في مناطق كنجة (Ganja) و شروان () (Sharvânاي جمهورية آزربيجان الآن)، حيث كانت قد تمخضت عنهم أسرة الشداديين الكردية الملكية الحاكمة قبل ألف عام (انظر التاريخ القروسطي).

تأوجت الحرب الروسية-الفارسية الثانية (1826 1828) في معاهدة تركمان جاي (.(Turcomanchây نقلت المعاهدة ارمينيا الفارسية (جمهورية ارمينيا الآن) إلى الإمبراطورية الروسية، و انتقل معها عدد اكبر بكثير من السكان الكرد، متاخما لقلب

كردستان. ما يثير الاهتمام انه حتى في هذا الجزء من ارمينيا القديمة كان الكرد يفوق الأرمينيين عددا (25000 كرد مقابل 20000 ارميني) في تلك الفترة حسب رأي برنوتيان (Bournoutian, 1982, 76).

سرعان ما وسع الروس من سيطرتهم إلى داخل الأقاليم العثمانية المجاورة، و من خلال ضم مناطق قارز و اردهان، تقدموا بوضوح إلى داخل كردستان الأصلية مكتسبين مجتمع كردي واسع نسبيا.

انهت هذه الحركة في حدود دولة أوروبية، حتى لو كانت الأكثر تخلفا، إلى داخل الأراضي الكردية، أنهت القرنين من عزلة الكرد. جلب الروس معهم، من بين أمور أخرى، افكار غربية جديدة. سرعان ما لمست تأثيرات النهضة المجددة داخل عمق كردستان، حيث كانت التقنيات الجديدة تجعل ممكنا للحكومات الفارسية و العثمانية المركزية ممارسة حكم مركزي اكثر استبدادا و تطفلا من أيما وقت مضى على الكرد و إماراتهم المحلية المتمتعة بحكم ذاتي تقليدا.

ظهرت القومية الأثنية (ethnic nationalism) من النوع الأوروبي لأول مرة في هذه الفترة في أعمال الحاج قادر كويي (1817-1897). دافع الحاج قادر عن القومية (nationalism) هذه عن طريق تشجيع الوحدة بين الأناس العاديين و رفض الطبقات الحاكمة التقليدية و الزعماء الدينيين التقليديين كأطراف معرقلة و مضللة غير ذات اهمية(irrelevancies). كما و دعا إلى دولة بان-كردية مستقلة تماما تطبق التربية العلمانية باللغة الكردية على حساب لغات الشرق الأوسط المشتركة الراسخة. و قال بأنه يجب أن يتم تبني اللغة الكردية أيضا في هذه الدولة البان-كردية (Hassanpour 1989, 55). بدت هذه الأفكار غريبة (أو اجنبية -المترجم-)، حتى لعديد من مثقفي الكرد. و لكن كويي كان الشخص الأول يطلق هذه الأفكار، و ظهر العشرات مثله بحلول منعطف القرن العشرين.

رغم عددهم المتزايد، بقى أناس من أمثال كويي منعزلا عن بقية المجتمع الكردي. سافر معظمهم إلى و عاشوا في العواصم الأوروبية الغربية و كانوا غالبا اكثر تضلعا في تأريخ و ثقافة هذه المجتمعات الأجنبية من تضلعهم في تأريخهم و ثقافتهم. كان الكرد العاديون الذين كانوا يعيشون آنذاك في نهاية عدة قرون من التردي القومي و الفكري (الثقافي)، كانوا لا يألفون إطلاقا أفكارهم السياسية الجديدة (او الغريبة -المترجم-)(16). في نهاية القرن التاسع عشر، كان الذين بيدهم زمام الأمور في القيادة السياسية الكردية -رؤساء العشائر و الشيوخ الدينيين- كانوا اقرب بكثير من رعاياهم من العوام في وعيهم الأيديولوجي من قربهم من هؤلاء المثقفين الحدث. كان يُنظر إلى هؤلاء المثقفين كحالمين منعزلين، غرباء عن حقائق واقع الكرد العاديين و مشاكلهم العادية. كان يُعتقد بأنهم اكثر اطلاعا على ما يجري في باريس أو فيينا مما يجري في مدنهم الأصلية في كردستان.

بينما كان حاملوا رؤى من أمثال كويي يختبرون

القوميـــة (nationalism) الحديثـة، كـانت الأسـر الأميرية الكردية تختزل إلى ما هو اكثر بقليل مـن لاجئين في عواصمهم. اجبر الاردلانيـون (المؤسسة في 1168 للميلاد) على الخروج بالقوة من عاصمتهم سنه "سنندج المعاصرة" في 1867 لصالح حكم فارسي مباشر من طهران. قبيل هذا التاريخ، اي في 1847 1848 كانت آخر الأسر الأميرية الكردية الرئيسة في المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية، اي أسرة بابان الأميرية في السليمانية و أسرة روزكي الأميرية التاريخية (البدرخانيين) في بتليس (المؤسسة حوالي 1034 للميلاد) و أسرة باذ الأميرية في أخلاط (المؤسسة في 983 للميلاد) ، قد تم إخراجهم من عواصمهم بالقوة و وضعت الأراضي التابعة لهم تحت الحكم المباشر من استنبول.

يستحق هذا التغيير الجوهري في طبيعة القيادة الكردية و زوال التقليد الوطني الأصلي لوجود الحكومة المحافظة على النظام، يستحق قدرا كبيرا من الاهتمام لما له من دور حاسم في إعاقة عملية التطور الاجتماعي و السياسي للكرد. رجعت هذه المؤسسات الوطنية الأصلية إلى الوراء لآلاف السنين وكان المصدر الأهم للتقدم و الترقي و نشر الثقافةو تكنولوجيات جديدة و أفكار جديدة، في كردستان. روضت الأسر الأميرية البائدة رؤساء قبائل جامحين و كبحت طموحات الزعماء الدينيين المتعصبين وحافظ على التواصل الاقتصادي (العلاقة الاقتصادية) مع العالم الخارجي. كانت أعضاء هذه الاسر عادة افراد ذوي ثقافة عالية و مهذبين ويمكن الإقرار بفضلهم حول معظم المكتسبات الثقافية للماضي الكردي. كان شرفخان البتليسي مثال اقدم تم ذكره مسبقا. يجب أن نستشهد بالأمراء البدرخانيين لاختراعهم نظام الكتابة الكردية الحديثة المبنية على اللاتينية. كما كانوا أيضا مؤسسين لمعظم الصحف الكردية المبكرة ومنظمين لأول حزب سياسي كردي بمعناه الحديث، حزب خويبون (Khoyboun) (انظر التربية والصحافة ووسائل الأعلام الإلكترونية و الأحزاب السياسية). كما أنشأت الأسر الأميرية أيضا ثقافة سياسية مطلعة جيدا و كوزموبوليتانية (أي عالمية و غير محلية أو متحررة من الأحقاد القومية والمحلية -المترجم-) التي كانت بإمكانها أن تسد وبسرعة أي فجوة في السلطة ظهرت في المنطقة، سواء بين الكرد أو غير الكرد.

تواصل عرف التسامح الديني بين الأمراء الكرد حتى أواسط القرن التاسع فقط، حين الغي النظام القديم للحكومة المحلية. فعلى سبيل المثال، حُولت بتليس، التي كانت حاضرة و عاصمة البدرخانيين/الروزكيين المثقفين،إلى مركز لنشاطات دينية متعصبة بتوجيه من زعماء صوفيين تابعين للطريقة الصوفية النقشبندية (انظر الصوفية). كانت بتليس، موطن شرفخان، موطن للقس الإيطالي ماوريزيو كارزوني (Maurizio Garzoni) الذي عاش و عمل بين الكرد لمدة 18 عاما. تلقى هذا القس نفس المعاملة الجيدة (العادلة) التي تلقاها اليسوعيون، الذين أسسوا كنيسة محلية في بتليس في

1683. و تأسست هناك أيضا كنيسة محلية بروتستانتية أمريكية في 1858.كثير من الأعمال اللغوية المبكرة و القواميس و ترجمات الكتاب المقدس المبكرة إلى الكردية، كانت من مبتكرات (آثار تنم عن عبقرية مبدعة -المترجم-) هؤلاء المبشرين (McCarus 1960). إلا أن بحلول 1880، كانت بتليس قد أصبحت منطلقا للثورة المتعصبة التي نظمها الشيخ عبيدالله. كابدت السليمانية، عاصمة البابانيين البائدين، و سنندج الأردلانيين المنفيين، كابدتا انمساخ مماثل.

لم تكن الشخصيات الدينية الذين تقدموا إلى الصدارة في كردستان القرن التاسع عشر بحاجة إلى التسامح. كان التعصب الديني الأعمى أداة مهمة في الأيادي الديماغوجية لزعماء الكرد الدينيين، الذين لم تعد سلطتها الآن تكبح من قبل الحكام الأميريين السابقين. في كردستان العثمانية، ثار حنقهم أولا ضد الكرد اليزيديين. مذابح ارتكبت بحقهم، بدعم ضمني من السلطات العثمانية و الزعماء الدينيين، واجبروا معظم الذين لم يقتلوهم على الرحيل إلى روسيا (انظر عمليات الترحيل و إعادة الاستيطان القسرية). آذنت مذبحة فظيعة ارتكبت بحق خمسة آلاف آشوري في 1842 على يد الرئيس القبلي نورالله، آذنت بحملة ضد المسيحيين. و أتى بعدئذ دور الشيعة، العلويين و أخيرا اليهود و البابيين.

في 1880، وجد الشيخ عبيدالله، الذي كان قد وصل إلى السلطة من خلال معارضته للتدخل المتنامي للحكومة العثمانية المركزية، وجد أنصارا حتى بين كرد بلاد الفرس الذين كانوا في حكم الموتى من الناحية السياسية، و إن كانوا الكرد المتاخمين لأناضول، مقر عبيدالله في موطنه. كان للزعماء الكرد الدينيين المحليين في هذه الأرجاء من بلاد الفرس اكثر من سبب أيضا لاثاره التطرف الديني. كانوا يعيشون كأقلية سنية صغيرة في بلد ذي اغلبية شيعية، بالغت فيها (او كبرتها، اي كبرت الأقلية السنية الصغيرة -المترجم-) النزعة القتالية والنضالية الدينية (religious militancy) التي كانت مضربا للمثال، لجيرانهم الأثنيين، اي الآزريين.

في الأناضول بذاته، نفذ عبيدالله إجراءات جائرة ضد الكرد غير السنة و آخرين أيضا. شهد المجتمع الكردي العلوي عمليات كثيرة للقتل و التحويل عن الدين بالقوة و مصادرة الممتلكات خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر إلى حد جعلته يقف إلى جانب جمهورية اتاتورك العلمانية في 1925 لكي يحمي نفسه من زعيم ديني كردي آخر أيضا، وهو الشيخ سعيد. كانت مخاوفهم كبيرة إلى حد جعلتهم يشاركون في القتال الفعلي ضد سعيد إلى جانب القوات الجمهورية التركية.

بتشجيع من الملالي و الشيوخ، نفذ رئيس عشيرة شكاك إسماعيل آغا سمكو، قبل إعدامه من قبل رضا شاه في 1930، فظائع في حياته السياسية التي دامت 15 عاما بما يكفي وضعه في خانة الجناة التاريخيين من أمثال آتيلا من ابطال الهون. في موقف واحد، اقنع سمكو الأقلية الآشورية في شمال كردستان بارسال وفد أليه ليصلوا إلى تفاهم مشترك. ثم قتل

غدرا كافة أعضاء طرف السلام من ضمنهم البطريرك الآشوري الأكثر توقيرا مار بنيامين شمعون و الذي كان حينئذ قد جاوز التسعين من العمر. ثم تقدم ليشرب من دم البطريرك كإظهار لغيظه. يتحمل سمكو مسؤولية غير متناسبة لتلويثه عرف التسامح الليبرالي للمجتمع الكردي (يقصد الكاتب بغير متناسب أي يتحمل مسؤولية اكبر-المترجم-).

خلفت هذه التطورات في كردستان فقط رؤساء العشائر و زعماء الدينيين و الشيوخ و الملالي والـ(17)(qadis) الرئيسيين ليذودوا عن الكرد وطموحاتهم. لا أحد من هذه القادة كان بمقدوره حتى و لو بقدر صغير جدا أن يسبر أغوار متطلبات العالم الجديد الذي كان يحل بسرعة. فبدلا من افراد من أمثال شرف الدين البتليسي، كان المتحدثون باسم كردستان مستقلة في نهاية الحرب العالمية الأولى هم رؤساء عشائر غير دمثي الخلق و متسمين بوحشية كسمكو، الملقب بـ "الأكل لحم البشر" و ملالي كشيخ سعيد الذي كان تعصبه قد نفّر الكرد العلويين. في هذه اللحظة التاريخية، حيث كان يتم تشكيل دول مستقلة بفضل المهنية (professionalism) و الذكاء و الحذق السياسي لزعماء اثنيين محليين آخرين، لا يحتمل أن السياسيين الكرد كانوا اقل مهنية او اقل قوة على الإقناع للقوى الأوروبية. لو شاءت للأسر الأميرية الكردية التقليدية ان تبقى حتى 1918، لربما لما تبددت هذه الفرصة الذهبية للدولوية (اي تشكيل كيان دولة -المترجم-).

بينما خسر الكرد المغلوبون على أمرهم الفرصة الذهبية التي سنحت عند نهاية الحرب العالمية الأولى و انهيار الإمبراطوريات القديمة، شملتهم تماما اكثر عمليات التدمير ترويعا التي خلفتها تلك الحرب. تحركت خط الجبهة الأمامية للمعركة بين القوات الروسية و العثمانية عبر كردستان الشمالية والغربية، تحركت إلى الأمام و إلى الخلف من قارز إلى دياربكر. بحلول 1917 و 1918، كانت القوات البريطانية و الفرنسية تتقاتل أيضا على الأراضي الكردية. خلف الضرر الذي لحق بالناس و الأرض ما يقارب 400000 أربعمئة ألف قتيل بين كرد الأناضول فقط (انظر الديموغرفيا). قضي على السكان الأرمنيين في المنطقة قضاء تاما عن طريق عمل مجازر و عمليات تهجير قسرية. كردستان المركزية و الشرقية و الجنوبية، رغم إنها قاست اقل من ذلك، إلا أنها تعرضت إلى عمليات نهب و تدمير المحاصيل من قبل الجيوش الروسية و العثمانية والبريطانية الامر الذي أدى إلى مجاعة شديدة الوطأ في المنطقة.

بحلول 1918، كانت كردستان أرضا: بناها التحتية تحطمت، مجتمعها يعيش فوضى عارمة، أهل الفكر فيها تشرذم و رؤساء القبائل و الشيوخ يسيطرون سيطرة تامة على ما تبقى.

هوامش المترجم:

1.تعني فرقة تمثل بلادها في عمل عسكري مشترك .

2.اي توحي بقوة الى اثبات الأمر و لكن لا توفر الدليل المباشر

3.اي بتواصل و ثبات او بشكل مستمر و ثابت

4.لا اعلم من يقصد بـ (Sorbs)، لا يحتمل ان يقصد الصرب لأنه لا يكتب كذلك بل (Serbs)

5.استخدم الكاتب التعبير أستعارة عن بوابات التحكم في الفيضانات

6.اي المنطقة المركزية و الحيوية في منطقة ما

7.حجر منقور توضع فيه جثة الميت

8.ثوبان اي عودة الشيء الى حالة سابقة بعد زوال المؤثر

9.عمل يعمل او مال يدفع وفاء بالتزامات التبعية الأقطاعية

10.العبارة بالأنكليزية هي (A group pseudo-Shi'ite Alevis) والتي تعني مجموعة علوية ذات مذهب شيعي زائف او تدعي بأنها شيعية.

11.الكلمة الأنكليزية هي (artfully) و التي تعني ببراعة او بشكل مخادع او مضلل اي تم الربط بدهاء للتضليل.

12.الكلمة الأنكليزية هي (formative) اي ذات اثر فعال في تشكيل ما تلاها

13.لا اعلم ماذا يقصد الكاتب بفقدان علاقتهم المباشرة بالتأريخ الكردي لذا اضع الجملة الأنكليزية:

(The Jalâli followers, however, came increasingly from Turkmen and Turkish ethnic groups, losing their direct relevance to Kurdish history.)

14.اي المقطعية او التبعية اي حالة vassalage المقطع او التابع و وضعه او الخدمات المفروضة عليه.

15.لا اعلم ماذا يقصد الكاتب بعدم استخدام المصطلحات المرادفة من ذلك الحين فصاعدا و الفكرة غير واضحة بالنسبة الي لذا آثرت وضع الجملة الأنكليزية بالكامل:

(No equivalent terms were employed thereafter; only the titles of the denominations of the religion (e.g., Yârsânism, Alevism, and Yezidism) survived, as have the names of the dialects (e.g., Dimili, Gurâni, and Laki) of the old language (see Religion and Language).

16.الكلمة الأنكليزية (novel) تعني الاثنين و تعني ضمن ما تعنيه: جديد، غير مسبوق، غريب، غير مألوف.

17.لا اعلم ماذا يقصد بـ (qadis) ان لم يقصد قديسين.

ملاحظة:

اود ان اعبر عن شكري و امتناني لصديقي و اخي العزيز "كوزاد محمد احمد" الحاصل على شهادتين للماجستير في علم الآثار (archaeology) احداها من جامعة بغداد عام 1993 و الأخرى من جامعة امستردام في هولندا عام 2003 و الذي يواصل الآن دراساته العليا في هولندا في نفس المجال، لمساعدتي في ترجمة معظم اسماء الأعلام الواردة في هذا النص و لتقديمه ملاحظات قيمة اخرى ساعدتني ايما مساعدة في ترجمتي. (المترجم)

المصدر:

The Kurds: A Concise Handbook, By Mehrdad Izady, Department of Near Eastern Languages and Civilizations, Harvard University, Taylor and Francis International Publishers/ Washington – Philadelphia – London.

.Word.Document.8

جدلية المحكي و المنظوم
موازنة سيميائية بين قصيدتين
لـ(صلاح عبد الصبور) و (شيركو بيكه‌س)

شاهو سعيد

يقدم هذا البحث مساهمة جزئية في قضية نقدية تنطوي على قضيتين فرعيتين، و هما: الشعرية poetics و السردية narrative، و من خلالهما يحاول الوقوف عند المستويين البنائي والدلالي للنصوص الشعرية التي توظف السرد، أي تجمع بين الشعري و السردي في خطاب نصي جامع. في حين أن الدراسات النقدية دأبت على تناولهما كقضيتين ابداعيتين مستقلتين، باعتبار الأولى وظيفة شعرية، و الثانية وظيفة تخص النثر و تحديدا اجناسه القائمة على الخطاب السردي (القصة، القصة القصيرة، الرواية..). من هنا فإن الجانب النظري لهذا البحث يحاول الدخول في صلب هذه القضية، و يتناول بالاستناد الى ما قدمته الدراسات النقدية الحديثة ظاهرة التوظيف الشعري للسرد، التي يتم من خلالها انزياحان ابداعيان عن لغة الشعر من جهة، و عن مهمة السرد الرئيسية من جهة اخرى. اما الجانب التطبيقي فيتناول دراسة سيميائية مقارنة بين نصين شعريين، الأول للشاعر العربي (صلاح عبد الصبور)، و الثاني للشاعر الكردي (شيركو بيكه‌س)، وظف فيهما السردية دون الاخلال بشعريتهما. و معروف عن الشاعرين اسلوبهما الشعري في توظيف السرد، فضلاً عن تجربتهما في شعرنة السرديات (المسرحيات، القصص، الملاحم، و الروايات). وقد جاء هذا البحث في ثلاثة مباحث، كالآتي:

استهلال نظري حول شعرية السرد:

اولاً: الشعري/ السردي

في كتابه عن بنية اللغة الشعرية يعرف (جان كوهن) الشعرية بأنها "علم موضوعه الشعر"[1]، ومن اولى الوظائف التي يسندها الى الشعر اقامة علاقات جديدة قائمة على الانزياح بين مكونات النص، و هي "طريقة تتنوع بتنوع المستويات لخرق قانون اللغة العادية"[2]، و بمعنى اخر ان الشعرية عند (كوهن) تقوم على "انزياح عن معيار"[3]،و هو قانون اللغة العادية المتفق بشأنه سلفاً. أما اذا بحثنا عن تعريف للسردية في مقابل هذا التعريف، فنجد ان (كريماس) يؤكد بأن السردية تقوم على مجموعة من الملفوظات المتتابعة "لتشاكل – السنيأ – جملة من التصرفات الهادفة الى تحقيق مشروع"، اي ان الخطاب السردي عنده يهدف الى اقامة علاقات منظمة وفق غاية يولد النص من اجل بلوغها.

نستنتج من هذين التعريفين ان الشعرية والسردية لا تختلفان من حيث ارتباطهما بجنسين ادبيين مختلفين فحسب، بل انهما تختلفان من حيث الوظيفة ايضاً، اذ ان الأولى تعتمد على مبدأ المجاوزة و الانزياح، فيما تستند الثانية الى التشاكل والنسقية بين مكونات النص لتحقيق غاية معينة.

و لكن لابد من التنويه بأن هناك من يؤكد على تبعية السردية للشعرية، لأن هذه الأخيرة اوسع من ان ينحصر فيها جنس ادبي واحد، و انها ليست السمة المميزة للنصوص الشعرية فحسب، بل "ترتبط بطبيعة القوانين و القواعد الداخلية للخطابات الابداعية، اي خصائص الأنواع الأدبية، و النظم التي تكون عليها"[5]، غير ان هذا التوجه قد يكون وليد المذاهب الحديثة التي الغت في الأساس نظرية الأجناس الأدبية كجزء من رفضها للمعايير الكلاسيكية بشكل عام، و تأكيدها على ان الشعر في تواصل و تشابك مستمرين مع الأجناس و الأنواع الأدبية الأخرى.. و هكذا عنت (الشعرية) الاحساس الناتج عن الإبداعات المشابهة للقصيدة من حيث العاطفة و الإنفعال الشعري، ومن ثم توسع استخدام هذه الكلمة في شأن الفنون الأخرى، حيث قيل – على سبيل المثال – شعرية الموسيقى و شعرية الرسم...، بعد ذلك في الأشياء الموجودة في الطبيعة، كأن يقال في منظر طبيعي بأنه منظر شعري[6].

و هناك ايضاً تعاضد بين الشعر و السرد يرجع الى الحقب التأريخية القديمة، لكنه كان في الغالب تعاضدا في النظم، اذ ان الملاحم و السرديات الخيالية القديمة كانت منظومة شعراً[7]، عدا ذلك لم تكن متضمنة للمميزات التي تتناولها السرديات الحديثة، كالقصة و الرواية، بل كانت مقتصرة على تصوير حياة الآلهة او الأبطال الأسطوريين[8]، او تصوير الحوادث التأريخية كما نجدها عند الشاعر الايراني (الفردوسي) في منظومته الشعرية الشهيرة (الشاهنامه)[9]، اما هذا التعاضد الذي يجري التطرق اليه، بمفهومه الحديث، بين الشعر و السرد و بين الابداعات الأدبية بشكل عام.. فانه يجري تناوله عند بعض الباحثين في مبحث (التناص)، او التمازج

بين شعرية اللغة و الشعرية خارج مجرة اللغة. فيتطرق (رومان ياكبسون)، مثلاً، الى اللقاء بين شعرية الطبيعة و شعرية السينما، و اللقاء بين الأساطير القديمة و الرسوم الجدارية الحديثة[10].. وهناك بين الباحثين من يرى تناصاً بين الحكايات والسرديات الحديثة كالقصة و القصة القصيرة والرواية، باعتبار ان الحكاية تعود جذورها الى طفولة المجتمع البشري[11].. و يلجأ بعض الكتاب الى التوظيف الشعري للمسرحيات.. و في هذا السياق نجد تعاضدا بين الشعر و المسرح عند الشاعر العربي (صلاح عبد الصبور[12])، و بين الشعر والملاحم و السرديات الحديثة عند الشاعر الكردي (شيركو بيكەس)[13]. اذن، هناك العديد من النماذج الشعرية القديمة و الحديثة التي يمتزج فيها الشعر بالسرد.. غير ان هناك نماذج شعرية متضمنة للسرد، كالسرديات المنظومة القديمة مثلاً، تخلو من التوظيف الشعري للسرد، و خصوصاً بالمفهوم الذي نقصده لشعرية السرد. لأن الشعرية هي عنصر مستقل عن النظم. و بغية التمييز بين شعرنة السرد و نظم السرد، نقدم فرضية يدافع عنها العديد من النقاد، و تتخلص في أن الفارق بين الشعر و النثر لا ينحصر في المادة الصوتية، كالنظم مثلاً، بل انه يكمن في المستوى الدلالي و الايحائي الذي يتميز به الشعر. و ان الشعرية تنبثق من خلال "شبكة العلاقات التي تنمو بين مكونات، سمتها الاساسية: ان أياً منها يمكن ان يقع في سياق اخر دون ان يكون شعرياً، لكنه في السياق الذي تنشأ فيه هذه العلاقات، و في حركته المتواشجة مع مكونات اخرى لها السمة الأساسية ذاتها، يتحول الى فاعلية خلق للشعرية و مؤشر على وجودها"[14]. نستشف من ذلك ان الشعرية هي التي تستوجب العلاقات والسياق، و ان التوظيف الشعري للسرد يفترض ان تخضع المكونات السردية للتجربة الشعرية. اما التوظيف السردي للشعر فيستوجب ان تخضع التجربة للحبكة و المبنى الحكائي.. و هذا يؤدي الى تغييب الوظيفة الرئيسية للشعر الكامنة في مغايرته للعلاقات السببية و المنطقية التي تفرض عليه بصورة مسبقة، و التي اطلق عليها جان كوهن تسمية (الانزياح) عن نموذج سابق، مؤكدا "أن الشعر يسند الى الفاظه وظيفة يعجز معنى الألفاظ عن اداتها"[15].. لأن الشاعر، و بالتالي القارئ، لا يبحثان عن المعاني المعجمية لألفاظ النص و عباراته فحسب، بل يبحثان عن المعنى الآخر الكامن وراء المعنى الأول، الذي يسميه عبدالقاهر الجرجاني بـ(معنى المعنى)[16]، و يسميه النقد الحديث بالمستوى الدلالي او الجانب الايحائي، او (البنية العميقة للغة)[17] حسب تعبير شومسكي.

ثانياً: شعرية السرد و أسلوبيتها

ينطوي الشعر على ما هو غير شعري، لأن مكوناته قد تتشاكل مع النثر و حتى مع الكلام العادي.. لكن ذلك التشاكل يحول الى الشعري ما هو غير شعري، ضمن السياق الذي تستوجبه الوظيفة الشعرية.

لكن العلاقة بين الشعر و السرد اكثر من ان تكون علاقة بين النص و مكونه، او بين المتضمن

والمتضمن، لأن الشعر و السرد يتشاكلان في محاكاة الحياة، و ان السرد – و كما يرى بول ريكور – يخترق الحياة بشكل مكثف، و ان الفارق بينهما كامن في ان السرد "يُروى و لا يُعاش، لكن الحياة تعاش ولا تروى"[18]. و حتى اذا اعتبرنا السرد عنصرا خالصاً متعلقاً بالنثر، فإن ذلك لا يلغي قابلية الشعر على تضمين السرد، لأن النص (خطاب يتم تثبيته بالكتابة)[19]، و ان ما يثبت بالكتابة يقوم على كلام سابق او كتابات سابقة، و ينطوي على ما هو غير مقتصر عليه.

و هكذا، يحاكي الشعري و السردي الحياة، كل بأسلوبية خاصة.. فما هي، اذن، اسلوبية النص الذي يجمع بينهما؟...

لو بحثنا عن اسلوبية للسرد الموظف توظيفاً شعرياً، لاشك اننا نجد تداخلاً لها مع اسلوبية السرد النثري.. لأن الشعر و مهما كان بناؤه المعجمي والدلالي يتماهى، في اوجه عديدة، مع النثر. و ان اسلوبية الشعر المتضمن للسرد، سواء كانت على مستوى السارد او الشخصيات او الحدث او المتن الحكائي، تكون في تواصل مع اسلوبية السرد النثري. و قد تضاربت الآراء بشأن هذه الأسلوبية، فهناك من يسندها الى المرسل (الكاتب – الشاعر) او الكاتب الضمني (السارد)، بوصفها "طريقة خاصة يتبعها الكاتب في استخدام الكلمات، اعتمادا على خلفيته الثقافية و ميوله الكتابية، و هي كذلك تجلّ لجانب من شخصيته"[20]. و هناك من يرى ان الأسلوب يتمثل، في ان واحد، في المرسل و المتلقي (الكاتب و القارئ)، فيقول (ميخائيل باختين) في هذا الشأن " ان الأسلوب هو الانسان"[21] مشيرا الى ان هذا الانسان يتمثل في شخصين، و ان الكتابة هي محاولة "لترجمة وجهة نظر الاخر في لغة مشتركة"[22]، اي ان الكاتب و القارئ يشارك كلاهما في بلورة الأسلوب، و هذا يجيز للقارئ ان يستخدم مهاراته التأويلية في قراءة النص.

عدا ذلك، و بعيدا عن حضور الكاتب و القارئ في النص، يتمتع كل نص بأسلوبه الخاص "عندما تمنح بعض البنى هذا النص طابعاً نوعياً، او عندما تميزه بالنسبة الى نصوص اخرى"[23] اذن، فإن المظاهر الأسلوبية قد تتوزع على مستويات مختلفة عند قراءة اي نص، و خصوصاً اذا كان نصاً شعرياً متضمناً للسرد:

اسلوبية الكاتب ←—— الشاعر

اسلوبية النص ←—— الشعر

اسلوبية الكاتب الضمني ←—— السارد

اسلوبية التلقي ←—— القارئ – المسرود له

و تتناسب السمات الأسلوبية، و خصوصاً السمة الكتابية، مع ادوات تعبيرية، قد يكون مصدر بعضها كامناً في المستوى السايكولوجي للكاتب، مما يتيح امام القارئ (المسرود له) قدرة تأويلية لاكتشافها بالاستناد الى اسلوبية للقراءة تقوم على التحليل النفسي، و كما يقول (بير جيرو) فان "الرغبة في محاصرة الشخصية الهاربة للكاتب – تقودنا – الى تمييز تجربة، او مزاج خلف كل رؤية خاصة للعالم"[24] مما يدفع القارئ الى تصور نموذج

للأساليب تقوم على "العلامات النفسية او الاجتماعية التي ولدتها"[25].

و حول بناء الخطاب السردي صاغ (كريماس) نظرية متضمنة لقواعد كلية شاملة، تنطبق ايضاً على النصوص الشعرية المتضمنة للسرد، اذ اجرى تحليلاً دلالياً على بنية النص لاكتشاف العناصر المحركة لها. و اقترح ثلاثة ازواج من الأضداد الثنائية، تتضمن الأدوار التي تمثلها اسلوبية السرد، و هي: (الفاعل/ الموضوع)، (المؤتي/ المؤتى اليه)، (المساعد/ العارض)[26]. و من خلال حركية هذه العناصر و علاقتها الجدلية مع البعض، يتولد الخطاب السردي للنص.

من النظرية الى التطبيق

في ضوء ما سبق يمكن للقارئ (المسرود له) ان يرصد الجوانب الأسلوبية للنص الشعري المتضمن للسرد، و يستنطق جانباً من مستوياتها الدلالية.

اولاً: التراب مسرحاً لجدل الموت و الحياة.. في نص (موت فلاح – صلاح عبد الصبور)[27]:

النص

1-لم يك يوماً مثلنا يستعجل الموتا.

2-لأنه كل صباح، كان يصنع الحياة في التراب.

3-و لم يكن كدأبنا يلغط بالفلسفة الميته

4-لأنه لا يجد الوقتا

5-فلم يمل للشمس رأسه الثقيل بالعذاب

6-و الصخرة السمراء ظلت بين منكبيه ثابته

7-كانت له عمامة عريضة تعلوه

8-وقامة مديدة كأنها وثن

9-ولحية، الملح و الفلفل، لوناها

10-ووجهه مثل أديهم الأرض مجدور

11-لكنه، و الموت مقدور

12-قضى ظهيرة النهار، و التراب في يده

13-و الماء يجري بين اقدامه

14-و عندما جاء ملاك الموت يدعوه

15-لوّن بالدهشة عيناً وفما

16-و استغفر الله

17-ثم ارتمى..

18-و الفأس والدرة في جانبه تكوّما

19-وجاء أهله، و أسبلوا جفونه

20-و كفنوا جثمانه، و قبلوا جبينه

21-و غيبوه في التراب، في منخفض الرمال

22-و حدقوا الى الحقول في سكينه

23-و ارسلوا تنهيدة قصيرة.. قصيره

24-ثم مضوا لرحلة يخوضها بقريتي الصغيرة

25-من اول الدهر، الرجال

26-من اول الزمان..

27-حتى الموت في الظهيرة

قراءة النص

ينسج هذا النص كيانه من ثنائيات، و ينبني – داخلياً – من سلسلة تحولات مسرحها (التراب)، وبؤرتها المركزية ثنائية (الموت/ الحياة). و تمكن كاتبه الذي يمثل، ضمنياً، دور السارد من استخدام عناصر السرد المعروفة، و توظيفها شعرياً.

يبدأ الشطر الأول من النص بإشارة ضمنية الى ما يبتغي السرد الافصاح عنه في النهاية، اي الموت،

الذي (لم يكن البطل يستعجله). و نلحظ ان هذه البداية بداية شعرية قائمة على الانزياح، و خارجة عن السردية التقليدية التي تقوم عادة على التنامي و التدرج. فالفاعلية الشعرية تتمظهر هنا في جلب نظر المتلقي الى حضور الموت الضمني وراء حياة البطل الذي يصله الموت الفعلي في النهاية.. اما الفاعلية السردية فإنها تحدثنا عن حياة يتخللها البؤس و الكدح و المشقة لتنتهي، اخيرا، بموت مفاجئ!

هكذا و عندما يجهد القارئ في احضار مشهد سردي، تحضر امامه – و دون ارادة واعية – رؤيا شعرية متضمنة لدلالات جديدة.. و هذا يعني، بعبارة سيميائية، ان القارئ يعيد تأويل الشفرات بحثا عن الايحاء الشعري الكامن وراء الخطاب السردي، و اذا كان "في داخل كل قارئ شعر، قارئ نثر"[28]، فان المعادلة تستوجب هنا وجود قارئ شعر في داخل المسرود له.

في هذا النص، يقدم الخطاب السردي المجرد عن الخطاب الشعري مشهدا سطحيا محتواه: (ان البطل يمارس حياته يوميا من خلال الكدح و التعامل الشاق مع الأرض، لينتهي فجاة بالموت و الارتماء على الأرض، و دفنه من قبل اهله في التراب). لكن الخطاب الشعري يقدم مشهدا ضمنيا مغايرا، و هو ان البطل يخرج يوميا في الصباح، و حيث تتراءى الحياة امامه في هيئة تراب، يزرع فيه دون ان يحصد منه، لأنه لا يتعامل معه كمصدر للرزق و الحياة، بل كمسرح يُعرض في مشهدين، مشهد الكدح و التعب، و مشهد الموت في الظهيرة. و من خلال البحث عن دلالات الألفاظ و العبارات الواردة في النص يتبين ان (الظهيرة) هي زمن المشهدين اللذين يعرضهما مسرح الحياة على (التراب)، وان هذا العنصر الزمكاني (الظهيرة + التراب) الذي يومئ بالجدوبة و الحرارة، يمثل محورا رئيسيا تجسدها صور (الشمس.. الصخرة السمراء.. الملح.. اديم الأرض المجدور.. الرمال..)، و سياقات النص بشكل عام و خصوصا في الأشطر (5، 6، 9، 10، 12، 21، 24، 25، 26، 27). و اذا بحثنا عن ايحاء شعري آخر وراء هذا المشهد السردي نجد ان (الصباح) هو زمن الخروج الى العمل و الكدح، في حين ان (الظهيرة) زمن الموت، هو زمن الوصول الى قمة الكدح، و ان البطل يأتيه الموت قبل ان يلحق النزول منها، اي تزاوج الموت و الكدح. ويمكن تلامس هذا الإيحاء في الأشطر الأربعة الأخيرة التي تقدم صورة لأهل القرية، و هم يدفنون البطل، و يمضون بعد ذلك لانجاز سنة ازلية تعيد نفسها على الدوام، تبدا (من اول الدهر حتى الموت في الظهيرة)، اي ان الظهيرة ليست زمنا لموت البطل فحسب، بل هو زمن الموت و الكدح غير المجدي لسلالة من البشر تجمعهم سنة واحدة:

الحياة في التراب ← الموت في التراب

الولادة في زمن الزرع (الصباح) ← الموت قبل زمن الحصاد (الظهيرة)

الحياة + التعب ← الموت + التعب

اذا طبقنا النموذج العاملي لنظرية (كريماس) على الخطاب السردي لهذا النص، نجد ان الفاعل (الفلاح - البطل) و الموضوع (الزرع) يمثلان بؤرة النموذج المحملة "بالشحنة الدلالية الكامنة في الرغبة"[29]، فالفاعل يسعى الى تحقيق رغبة لا تتحقق، غير ان العلاقة بينهما (الفاعل و الرغبة) علاقة جدلية، لأنها تنبع من البحث المتواصل عن الضالة.

اما على صعيد المؤتي (سنة الحياة) و المؤتى اليه (اهل القرية)، فان العلاقة بينهما تقوم على منظومة من القيم و التقاليد، لأن "الوظيفة الموكولة الى المؤتي تتمثل في المحافظة"[30]، و صيانة القيم التي ينبغي للمؤتى اليه (اهل القرية) احترامها و الالتزام بها، كقدر تمليه سنة الحياة، ويتبين من الأشطر (19-23) ان تعامل اهل القرية مع موت البطل يقوم على تراتبية من التقاليد والسنن (.. اسبلوا جفونه.. كفنوا جثمانه.. غيبوه في التراب.. حدقوا الى الحقول.. ارسلوا تنهيدة قصيرة.. ثم مضوا..)، و بعد ذلك تعيد رحلة الحياة نفسها، حسبما يمليه المؤتي.

و كذلك يتبين من سياق السرد أن وحدتي (المساعد و المعارض[31]) تتمظهران في هيئة (الكدح والموت)، لأن وظيفة المساعد (الكدح) تتحدد في تقديم العون للفاعل (البطل) بغية تحقيق رغبة (الزرع)، فيما يقوم المعارض (الموت) بالحلول دون تحقيق هذه الرغبة. و بذلك يشكل المؤتي (سنة الحياة) و المعارض (الموت) قطبي المعادلة التي تدور في فضائها الوحدات العاملة الأخرى

المؤتي (الحياة) ⟵ المؤتى اليه (القرية) ⟵ الفاعل (الفلاح)

المعارض (الموت) ⟵ المساعد (الكدح) ⟵ الموضوع (الزرع)

و يمكننا ان نجد حركية لعناصر في الظل، لكنها لا تحتل موقعا مركزياً ضمن الخطاب السردي، بل تمثل تجلياً لتوظيف شعري قائم على جمل وصفية مشحونة بدلالات ايحائية.. فالأشطر (3-10) تتحدث عن نفاد الوقت عند البطل المنهمك بالحياة بين التراب. اما الأشطر (11-18) فإنها تصور مشهد الموت و التمرغ في التراب، و مشهد الفأس والدرة المتكومين الى جانب البطل المرتمي على التراب. و لعل لفظة (التراب) التي تتكرر في النص ثلاث مرات و الألفاظ التي تومئ بها دلالياً كـ(الأرض – الرمال – الصخرة – الحقول) تمثل جانباً رئيسياً يعتمد عليها الاقتصاد الصوتي/ الدلالي، و يشكل ذهنياً مسرح الجدل بين الموت و الحياة.

ثانياً: التماهي بين الانسان و الطبيعة.. في نص (القمر و البحر – شيركو بيكه‌س)[32]:

النص:

1-غابرا.. غابرا

2-كان ثمة قمر

3-اجمل من هذا القمر

4-و انصع منه وجهاً.

5-وقع الماء متجننا في حبه.. و عشقه

6-و بدأ بالتموج في الشواطئ

7-قاصدا اياه.. ليلةً بعد ليلة!

8-لكن القمر تغنج و لم يستجب

9-فقصد البحر الامساك به حيلة

10-ودفع بموجة، عالياً، نحوه
11-لكن فم الموجة لم يصل وجنة القمر
12-فراح القمر يتدلل
13-و يتخفى عمداً، متوارياً وراء سقائف الغيوم.
14-الى ان سافر في احدى رحلاته
15-الى الصحراء
16-حينما عاد.. كان وجهه
17-متلوثاً بأغبرة الصحراء
18-و كان ضياء ضفائره، ورداؤه الفضي
19-مغبرين بالتراب
20-وقتذاك.. كان الماء نائماً
21-فقرر القمر ان يستحم
22-نزع ثيابه على عجل
23-خطا مرتبكاً نحو البحر
24-واضعاً قدمه على حجر املس
25-فانزلق.. و ارتج الماء
26-و غرق فيه القمر
27-فاستيقظ البحر
28-وجن جنونه باحثاً عن القمر
29-جال يمنةً و يسرة
30-غاص في مكامن القاع
31-هاج.. و ماج
32-ارتفع.. و انخفض
33-دون ان يجد اثراً للقمر..
34-و منذ تلك الليلة
35-ولد مد البحر و جزره.

قراءة النص

يتعاضد الخطاب السردي و الشعري في هذا النص بصورة تبدو، ظاهرياً، ان الكاتب اعطى الأولوية لمتن حكائي تتخلله اجواء اسطورية، يبدأ بحب عذري بين قناعين من الطبيعة، و ينتهي بتخليده من خلال الهيجان و البحث المتواصل عن وجوده الرمزي. غير ان القراءة المتفحصة لثنايا النص تثبت ان الخطاب الشعري احتفظ هو الآخر بفاعليته ودوره في احداث الصدمة الشعرية عند المتلقي.. و ان الكاتب الأول (الشاعر) نجح في انجاز وظيفته الشعرية، بقدر ما نجح الكاتب الضمني (السارد) في تصويره للمشهد الحكائي.

شعرية هذا النص تفصح عن ذاتها من خلال سلسلة تداعيات ذهنية نسجتها مجاوزات قائمة على: الحضور/ الغياب.. قمر حاضر/ قمر غابر.. هيجان العشق/ هيجان غياب المعشوق.. الوصال المترقب/ الفراق الأبدي. و من وراء هذه الثنائيات يحاول الشاعر ابلاغ رسالة مؤداها ان الطبيعة بهيجانها وعنفوانها و حركيتها الهادئة و المضطربة.. ما هي الا محاولة لتخليد حب ضل بين ثناياها وقاع بحارها. ويمكن ايجاد خيوط تناص لقصة حب يصورها الشاعر في هذا النص بين ثنائية كونية (الأرض/ السماء)، و حب عذري يصوره معظم ملاحم العشق الخالدة، بين ذكر و انثى، يفترقان قبل الوصال. لكن وجه الخلاف يكمن في ان هيجان البحر (قناع العاشق)، و بحثه المستمر عن القمر (قناع المعشوق الضال).. ينبع في الوقت ذاته، من

عقدة الشعور بالذنب.. لأن العاشق فقد المعشوق وافقده، عشقه و اغرقه، ضل و اضل. و هنا صور الشاعر، ضمنياً، اضطراباً ناتجاً عن الاخلال بمعادلة العشق العذري (المنزه)، و بؤرة هذا الاضطراب هي الوصال، الوصال الجسدي بين العاشقين (ليلة سقوط القمر في البحر و الاحتكاك الجسدي بينهما)، لأن الحب العذري يستوجب عدم الوصال بين العاشقين، بل ان لحظة الوصال هي لحظة الذنب، اي بداية النهاية للعشق المنزه. و هذا ما يدفعنا الى القول بان (القمر الغابر) لم يفقد و لم يغب، و انه (القمر الحاضر) نفسه.. لكنه غاب كمعشوق منزه مدلل رافض للاستسلام و الارتماء في احضان العاشق (البحر). يتجلى غياب القمر الغابر في غياب الرمز وحضور (القمر المفرغ من دلالته الرامزة)، و كما يقول (نورثروب فراي) فان وراء كل بناء سطحي للنص، نلحظ أن وعينا ينشطر باتجاهين.. الأول نحو البناء الخارجي للنص، .. و الثاني صوب بنائه الضمني، و من خلال هذا البناء – الثاني – نحاول ايجاد معانٍ اخرى وراء الكلمات التي يتركب منها السياق"[33].

و في هذا النص الذي يمتزج فيه الشعري بالسردي، يقوم الكاتب الضمني (السارد) بأداء هذا الدور، من خلال تحريك أقنعة، ثمة كائنات بشرية وراءها. ويختلف الكاتب الضمني دائماً عن الانسان الواقعي، لأن هذه "الأنا الثانية تقدم غالباً صورة عن الانسان، على مستوى عال من الدقة و الصفاء، أكثر معرفة واحساسا و حساسية مما هو في الواقع"[34].

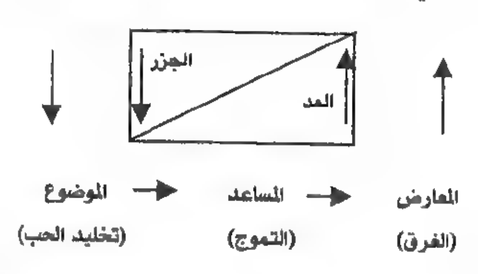
و على صعيد مكونات البناء السردي يعتمد النص على عناصر تتنامى في بنية تقوم على مسار خطي، تبدأ بشد انتباه المتلقي (المسرود له) الى حكاية خيالية، و تنتهي بخاتمة غير متوقعة، لأنها خاتمة اسطورية مطعمة بالواقع العلمي (هيجان البحر و بحثه المتواصل عن القمر الضال يؤدي -بالنتيجة- الى ولادة المد و الجزر). هنا يتماهى المتخيل الأسطوري مع الواقع العلمي، دون ان يخل هذا التماهي بالمتن الحكائي القائم على الأسطورة بالدرجة الأساس، في حين اصبح بديهياً أن خلق الأجواء الخارقة للعادة في المتون الحكائية القديمة، او المتون الحديثة المتناصة مع الأساطير لا يمكن تطعيمه بالحقائق العلمية.. لكن الخاتمة الحافلة بالشعرية في هذا النص تظهر عكس ذلك، و تعكس قدرة النص على الدمج بين نقيضين (اسطوري/ علمي) في استعارة ذهنية جامعة بين الطاقة الشعرية و الوظيفة السردية في آن واحد.. و لعل هذا يذكرنا بما قاله (هربرت ريد) بأنه "كلما اوغل العلم في غموض الحياة عاد ليكون عالما اسطوريا"[35].

تشكل العلاقة بين الفاعل (البحر) و الموضوع (تخليد الحب) الفضاء السردي الذي تدور في فلكه الأحداث الرئيسية و أحداث الظل في النص. اذ أن حركية الفاعل، التي يمثلها هيجان البحر و تموجه، تصور الشحنة الدلالية الكامنة في الرغبة.. رغبة البقاء و إبقاء الموضوع (الحب) خالدا. و أن الصلة بين الفاعل و الموضوع (صلة استتباعية)[36]، لأن

وجود احدهما لا يكتمل الا بوجود الآخر، و رغم ان الفاعل المقتع (البحر) ليس كائناً بشرياً، غير ان الموضوع (الحب) هو رغبة بشرية خالصة تحرك الكائن المختفي وراء القناع.

و يمثل حضور المؤتي (الحب) و المؤتى اليه (القمر) التقابل الدلالي للفاعل و الموضوع.. فالمؤتي بمثابة دافع الحركية و الرغبة نحو التخليد، اما المؤتى اليه فيمثل بؤرة التوتر من خلال غيابه الرمزي في المرحلة الأولى (تفنج القمر و تهربه من البحر)، و غيابه الوجودي في المرحلة الثانية (استسلام القمر و غرقه في قاع البحر).. و من خلال العلاقة بين الثالوث (المؤتي – الفاعل – المؤتى اليه) يولد الموضوع (رغبة الهيجان و تخليد الحب).

اما الوحدتان العاملتان (المساعد/ المعارض)، فتنتظمان في سياق العلاقة بين الفاعل المستند الى المساعد (التموج) للوصول الى المؤتى اليه (القمر)، والموضوع الذي يصطدم بالمعارض (غرق القمر).. وهكذا تستمر المعادلة، و العلاقة بين الوحدات العاملة، في شكل حركية كونية، تولد حركية المد والجزر:



و من وراء حركية هذه الوحدات، هناك وحدات في الظل (الصحراء، الغبار، الغيوم، الحجر)، التي تلعب دورا ثانويا في الخطاب السردي، و تشارك المعارض (الغرق) في خلق الهوة الفاصلة بين الفاعل والمؤتى اليه.. و بالتالي في تكوين فضاء سردي بطله الانسان (الذكر/ الأنثى) و قناعه الطبيعة (البحر/ القمر).

من التطبيق الى المقارنة

لقد وظف صلاح عبد الصبور و شيركو بيكةس، كل باسلوبه الخاص، الشعرية و السردية في نصيهما.. و لوحظ ان كليهما نجحا في الاحتفاظ بالطاقات الايحائية الكامنة وراء اللغة الظاهرة و الخطاب السطحي للسرد. كما تبين ان النموذج العاملي لنظرية كريماس ينطبق على متنهما السردي، و ان الوحدات العاملة لذلك النموذج تقابل وحدات محسوسة في فضاء النصين. و من خلال فكّ المكونين الشعري و السردي، و مقارنتهما في النصين يمكننا رصد آليات ثابتة تتحكم بالنصين و ترتبط بالمبادئ العامة التي تقوم عليها الشعرية و السردية. فضلاً عن آليات اخرى يتميز بها النصان، كل على حدة، من خلال ارتباطهما باسلوبية الكاتب من جهة، واسلوبية النص من جهة اخرى.

لوحظ ان البناء الداخلي لكلا النصين منسوج من مكونات واضحة الهيكل و الحدود، و ان لكل عبارة و صورة دورا و موقعا، و ان الصورة الشعرية الكلية تتشكل من اتساق الجمل و الصور على نحو يوحي بايقاعية ذهنية.. و بذلك ادى الخطاب

الشعري وظيفته في كلا النصين، مع احتفاظه بمبدأ الانزياح لإحداث الصدمة الشعرية عند المتلقي. اذ لوحظ ان البناء السطحي لنص (صلاح عبد الصبور) الذي يتأسس على منظومة من الصور المعاشة، تختفي وراءه سلسلة انزياحات عن مفاهيم و معايير سابقة، ينبني عليها البناء الضمني للنص. و لئن كانت الحياة، بمفهومها الشائع، نقيضاً للموت.. فان الحياة التي يعرضها النص على مسرح الحياة (التراب) هي الوجه الاخر للموت بين التراب!.. اما نص (شيركو بيكەس) فان بؤرة التوتر فيه تقوم على تصوير مشهد مغاير للحب المألوف، انه حب مقنع يتخلخل الدورة الأزلية للكون و الحياة الانسانية.. كل ذلك ضمن نسيج فني متسم بالبساطة و العمق في آن واحد. حكاية خيالية، ابطالها القمر و البحر و الصحراء.. و لكن من وراء أقنعة هؤلاء الأبطال.. ثمة غريزة انسانية تحاكيها حركية الصعود و الهبوط للطبيعة، و هيجانها المضطرب و المنتظم. و يمكن رصد اختلاف بين النصين في الكيفية التي اعتمدها الكاتبان في توظيف الخيال، للتعبير عن نغمة حزينة، و البحث عن امنية ضالة لا سبيل اليها الا بالابتعاد عن العالم الواقعي و اللجوء الى مكامن الذات. ففي نص (شيركو بيكەس) يتجسد الخيال عبر توظيف اقنعة، واسقاطها على الانسان و الطبيعة و الكون. فالرغبة تصبح قناعاً ترتديها الطبيعة.. و الطبيعة بدورها تصبح قناعاً يرتديها الانسان. و من وراء هذه الاقنعة تصبح رغبة الحياة و الخلود و التمازج مع الطبيعة رغبة انسانية محضة تحاصر الفراق والموت.. فهيجان البحار، مدها و جزرها المتواصل، بمثابة حركية الحياة مقابل سكون الموت. و لكن هذه الثنائية (الحياة/ الموت) تتمظهر بصورة مغايرة في نص (صلاح عبد الصبور)، فالحياة تتراءى كتقليد تمليه السنن الخارجية عن ارادة الذات، و يصبح الانسان كائناً منتمياً الى حياة يحاصرها الموت في كل مكان و زمان. و بذلك يمكننا اختزال النصين من حيث تصويرهما لحركية الحياة، و ثبوت نقيضها، في الجدول الآتي:

النص	حركية الموت و الحياة
موت فلاح	الموت ← الحياة ← الموت (الموت الرمزي) (الزرع) (الموت الجسدي)
القمر و البحر	الحياة ← الموت ← الحياة (الحب) (الغرق) (تخليد الحب)

و قد تبين على صعيد الخطاب السردي ان كلا النصين وظف الوحدات العاملة للنموذج النظري الذي طرحه كريماس، و ان الفضاء الذهني للمتنين السرديين يتكون من العلاقة الجدلية بين العناصر الستة لذلك النموذج. لكن هذا لم يلغ استقلالية النصين في الاحتفاظ بشحناتهما الدلالية الخاصة المختلفة عن البعض، بل ان الاختلاف بينهما يصل حدا انهما يمثلان قطبين دلاليين متقابلين. فالحركة الدورية للموت و الحياة كما تبين من التخطيط التوضيحي لنص صلاح عبدالصبور تقابل حركة الصعود و الهبوط للمد و الجزر في نص شيركو بيكەس. في النص الأول يأخذ ثبوت الموت زمام المبادرة مقابل حركية الحياة.. و في النص الثاني

يأخذ (المد) لتخليد الحب ناصية المبادرة مقابل (الجزر) الذي تخلقه العوائق و العناصر المعارضة لتحقيق هذه الرغبة. و يمكننا رصد التباين في وظائف الوحدات العاملة في النصين على هذا النحو:

النص/الوحدات العاملة	المؤتي	المؤتى اليه	الفاعل	الموضوع	المساعد	المعارض
موت فلاح	الحياة	اهل القرية	فلاح	الزرع	الكدح	الموت
القمر و البحر	الحب	القمر	البحر	تخليد الحب	التموج	الغرق

ان التحول من طور الى طور استوجب علاقة جدلية بين الوحدات العاملة للخطاب السردي، و هذا ما افصح عنه النصان. و ان هذا التحول ولد دورة للحياة و الحب تتراءى و كأنها تعيد نفسها باستمرار مقابل الموت و الغرق. و من وراء هذه الحركية التي يصورها الكاتبان الساردان.. ثمة تساؤلان يطرحهما الكاتبان الشاعران: ينبع التساؤل الأول من قلق الموت الجسدي مقابل حياة مشحونة بالموت الرمزي، اما التساؤل الثاني فينبع من امكانية البحث عن حركية الحياة و الحب مقابل ثبوت الموت و الغرق.

تبين مما سبق ان الشعرية و السردية تمثلان وظيفتين مختلفتين لجنسين ادبيين مستقلين، حيث تقوم الأولى على الانزياح بالدرجة الأساس، فيما تقوم الثانية على التراتبية للوصول الى غاية محددة. و رغم وجود دارسين يشيرون الى تبعية السردية للشعرية، على اعتبار ان الشعرية هي الوظيفة الجامعة بين جميع الاجناس الأدبية. لكننا تلمسنا ان كلا المستويين الشعري و السردي يحتفظان باستقلاليتهما في النصوص الشعرية التي توظف السرد، لأن الشعر قد ينطوي على ما هو غير شعري، و ان سياقه قد يحول السرد النثري الى سرد شعري، شريطة ان يعتمد هذا السياق على اسلوبية خاصة يشترك النص (الشعر) و الكاتب الأول (الشاعر) و الكاتب الضمني (السارد) في صياغتها و توظيفها.. فيما يشارك المتلقي (القارئ) في كشف خطوطها و استنطاق مستوياتها الدلالية. و في الجانب التطبيقي للبحث تمكننا من رصد المستويين الشعري و السردي من جانب، و رصد المستويين البنائي و الدلالي من جانب اخر لنصي صلاح عبد الصبور و شيركو بيكەس. و استنتجنا ان بامكان القارئ عندما يستخدم ادواته النظرية ومهاراته التأويلية ان يرصد المستويين الشعري والسردي للنصوص التي توظف السرد، و يرصد بالتالي هيكلهما البنائي، و يستنطق الشحنات الدلالية لتلك النصوص.. كما تبين ان النصين المذكورين احتفظا باستقلاليتهما في توظيف الشعرية و السردية، و نجح كل على حدة، في خلق فضاء مستقل مشحون بدلالات خاصة.. و اتضح ايضاً ان النموذج العاملي لنظرية كريماس حول الخطاب السردي ينطبق على كليهما، و لكن في سياقين شعريين مستقلين، و مستويين سيميائيين مختلفين.

الهوامش:

1-جان كوهن، بنية اللغة الشعرية. ت: محمد الولي ومحمد العمري. (ط1، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1986)، ص9.

2-المصدر نفسه، ص 191.

3-محمد الولي و محمد العمري، مقدمة المصدر السابق، ص6.

4-محمد ناصر العجيمي. في الخطاب السردي.. نظرية كريماس. (بلا: الدار العربية للكتاب، 1993)، ص 35.

5-عن: عبدالله ابراهيم، المتخيل السردي. (ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990)، ص 148.

6-ينظر : جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص9.

7-جيرمي هورثن، مدخل لدراسة الرواية. (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1996)، ص 9.

8-المرجع نفسه، ص9.

9-عدا ذلك هناك العديد من المنظومات الشعرية المطولة التي تضمنت وقائع و حوادث تاريخية في الآداب الشرقية و الغربية، ينظر بهذا الشأن: غلا محسين يوسفي، جشمه روشن ديدارى با شاعران. (ج 7، تهران: انتشارات علمي، 1376)، ص 174.

10-يقول ياكبسون: "من البديهي الا ينحصر العدد الكبير من الأدوات التي تدرسها الشعرية في فن اللغة. فنحن نعلم انه بالامكان نقل مرتفعات هيرلوفنت الى السينما، ونقل خرافات القرون الوسطى في شكل رسوم جدارية او صور مصغرة...". ينظر: رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي و مبارك حنون. (ط1، دار توبقال للنشر، 1988)، ص 24.

11-ينظر: عبدالله ابراهيم، المتخيل السردي، ص 17.

12-يرى صلاح عبد الصبور ان الشعر هو صاحب الحق الوحيد في المسرح، و ان المسرح النثري و بخاصة عندما تهبط افكاره و لغته ينحرف عن وظيفته. ينظر: ديوانه، (بيروت: دار العودة، 1977)، ج3، ص 211. و يذكر ان صلاح عبد الصبور قد كتب العديد من المسرحيات نظما، دون ان يخل بشعريتها و طاقاتها الايحائية، كما يتبين ذلك في مسرحية (الحلاج) و (بعد ان يموت الملك) و غيرهما..، ينظر بهذا الشأن: المصدر السابق، ص 217-220، ص 225-442.

13-يمتلك شيركو بيكه س تجربة متميزة في هذا المضمار، بدأها بشعرنة القصص القصيرة في مجموعته الشعرية (كازيوه – شيعرى پۆستەر، چاپخانـەی زانكۆی سلیمانی، 1978). و بعد ذلك من خلال تأليف قصص شعرية كـ(ابن البحر، ملحمة مامه ياره، بيت النار، ملحمة بـقردة قارقمـان) في ديوانه (روبار – ضيرۆكة شيعر، هةولير: نەمينداريّتى گشتى رۆشنبيرى و لاوان، 1984). و من ثم لجأ الى تأليف نصوص شعرية مطولة متضمنة للسرديات بشكل مكثف سماها بالروايات الشعرية، و منها (الصليب و الثعبان و مفكرة شاعر، سفر الروائح، مضيق الفراشات)، و قد ترجمت هذه الأخيرة الى اللغة العربية و تقع في (140) صفحة، و تتضمن العديد من المشاهد الحكائية و الروائية التي تتخلل فيها الشعرية بالسردية. ينظر: شيركو بيكاس، مضيق الفراشات، ت: ازاد برزنجي. (ط1، بيروت: دار الرازي، 1996).

14-كمال ابو ديب، في الشعرية. (ط1، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1987)، ص14.

15-جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص 202.

16-عن: محمد سالم سعدالله الشيخ علي، "السياق السيميائي للوحدات المجازية.. رؤية لنظم علاقات المجاز عند الجرجاني"، الموقف الثقافي، العدد 24، تشرين الثاني – كانون الأول، 1999، ص 89.

17-عن: المرجع نفسه، ص 89.

18-ديفيد وورد، الوجود و الزمان و السرد.. فلسفة بول ريكور. ت: سعيد الغانمي. (ط1، الدار البيضاء – بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999)، ص 39.

19-بول ريكور، "النص و التأويل". ت: منصف عبدالحق. مجلة العرب و الفكر العالمي، العدد الثالث – 1988، ص 37.

20-مباني نقدى ادبى. (ج1، تهران: نيلوفر، 1376)، ص 319.

21 ميخائيل باختين، "القول في الحياة و القول في الشعر"، ت: امينة رشيد و د. سيد البحراوي. مجلة الاداب. العدد 7 8، تموز اب/ 1988، ص 50.

22-المرجع السابق، ص50.

23-تون. ا. فان ديك، "النص: بناه و وظائفه مقدمة اولية لعلم النص"، ت: جورج ابي صالح. مجلة العرب و الفكر العالمي، العدد الخامس 1989، ص 67.

24 بيير جيرو، الاسلوب و الاسلوبية. (بيروت: مركز الانماء القومي، بلا)، ص 59.

25 المرجع السابق، ص 59.

26-ينظر: رامان سلدن، النظرية الادبية المعاصرة، ت: سعيد الغانمي. (ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1996)، ص 93. و كذلك: محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية كريماس، ص 40.

27 صلاح عبد الصبور، نص: موت فلاح. ديوانه. (ط1، بيروت: دار العودة، 1972)، ص 113-114.

28-روبرت شولز، سيمياء النص الشعري، ضمن كتاب: اللغة و الخطاب الادبي، (ط1، بيروت – الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1993)، ص 101.

29 نظرية كريماس في الخطاب السردي .، ص 40.

30 المرجع السابق، ص 42.

31 حول وظيفتي (المساعد و المعارض) في النموذج العاملي لنظرية كريماس، ينظر: المرجع السابق، ص 46.

32-شيركو بيكەس، مانگ و زەریا. (ديواني شيركو بيكەس، ستوكهولم، 1990)، ص 544 546.

33 نورثروب فراي، تحليل نقد، ت: صالح حسيني (ج1، تهران: نيلوفر، 1377)، ص 93.

34 جيرار جينيت و اخرون، نظرية السرد من وجهة النظر الى التبئير، ت: ناجي مصطفى. (ط1، الدار البيضاء منشورات الحوار الاكاديمي و الجامعي، 1989)، ص 41 42.

35-هربرت ريد، طبيعة الشعر، ت: د. عيسى علي العاكوب. (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1997)، ص 113.

36-حول هذه الصلة الاستتباعية ينظر: نظرية كريماس في الخطاب السردي، ص 40.

آزاد حمه : عصر المعلوماتية

مدخل الى فكر و نظرية مانويل كاستيلس



مانويل كاستيلس، عالم اجتماعي امريكي ذو اصل اسباني المولود عام 1942، الف كتابا ضخما في ثلاثة اجزاء حول تطور مجتمعات الشبكات المعلوماتية و تحت عنوان رئيسي هو "عصر المعلومات" او "عصر المعلوماتية"، طبع في الولايات المتحدة الامريكية بين اعوام 1996 1998. مانويل كاستيلس مختص في علم الاجتماع و التخطيط الاجتماعي و مسؤول مركز دراسات اوروبا الغربية بجامعة كاليفورنيا و بيركلي لخص الكاتب آزاد حمه المقيم في السويد الكتاب باللغة الكردية و قد طبع للمرة الاولى في السويد عام 2003 و من ثم طبع بدار سردم و بـ 350 صفحة حيث نقر فيه الثورة التكنولوجية المعلوماتية، الاقتصاد المعلوماتي و العولمة، شركات الشبكات المعلوماتية (نيتورك) و علاقتها بالثقافة و المؤسسات، المجتمع المعلوماتي الجديد و نتائج التغييرات المعلوماتية و الشكل الجديد للفقر. شبكة المعلومات و احلام العولمة، امريكا و ثقافة الديجيتال، دور عولمة المعلوماتية في تشكيل الهوية يقول الكاتب آزاد حمه ان للكتاب تاثيرا كبيرا على المجتمعات الاوروبية، حيث اعتبره القراء بمثابة (راس المال) لماركس، و يضاهي عند بعضهم كتاب (الاقتصاد و المجتمع) لماكس فيبر.

اطياف من ابداع الشاعر الرومانسي الكردي "مولوي" (1806-1882)

ترجمة و نقد: رؤوف عثمان

هذه القصيدة تحمل في ثناياها تجربة وجدانية صادقة لشاعر كردي رومانسي و هو عبد الرحيم مولوي (1806 1882) انها تتقطر عذوبة و صفاء وصدقا، و يكاد القاريء ان يلامس تلك الصور الرومانسية الشفافة، ان هذه التجربة الانسانية التي افصح عنها مولوي لا تنم عن احساس مفرط بسلطان البعاد و الفراق فقط، بل بتلك الصور الفنية النابعة من عبقرية قل نظيرها في الادب الكردي، ان السمة المفردة في هذه القصيدة هي بعدها عن الغموض القاتم و عتمة الرؤيا، مستعملا في جل صورها حواسه المرهفة التي لا تفلت منها ظاهرة جمالية، فالاستعادات و المجاز الموجودة فيها لا تنال من عضوية الصور و الأصالة و التخيل الابداعي، حيث يظل وجيب روحه الحيرى ايقاع حروفه الحالمة طورا، و المنتشية طورا اخر بقطرات اللقيا، ان تباريح الهوى و لواعج الغرام تظل شارة هذه القصيدة العصماء و هي من عيون الشعر الكردي.

اثر ذبول وجد حبيبتي الناصعة

تجمدت في عيني ساقية دم متدفق

لقد صفعت يد الجفاء و الونى صدر شوقي

فالهبت النار في احشائي و صفائي

ان علقم الشقاء سير اغوار هنائي

فأمست لواعج الاسى تبارك دائي

****

مع كل شهقة انفث شلو فؤادي

فيتدفق قيح جرحي الفائر

فالمحن كتاجر ينادي في ثنايا القلب

بمئة ايقاع

معلنا عن بيع متاع

لقد اصمتني سهام بعادها

وا قلباه..

واضرم في القلب اوار هجيرها

وا حرقتاه..

****

نواحا يا رفاقي لم اطق مصابي

فظلمها اقتلع جذور فؤادي

اغيثوني فحالي ترثى لها

اناء الليل و اطراف النهار

و اضحى قلبي فحمة من طول فراقها

صيرني الحزن و الكمد مبتور الجذور

هلمي يا ذات العنق الفضي.. ايتها الساقية

امنحيني كأسا من ثمالة العشاق و الحيارى

علها تستأصل شأفة وجودي

و انت يا ذا الناي.. نوحي بعزف لحن شجي

حتى يسكر قلبي كلها ترحمني

****

ان وصف الطبيعة من الأغراض المهمة التي تشرق فيها الروحية الرومانتيكية، فـ(مولوي) اشتهر بها و ذاع صيته في اجوائها، حيث اوهب عينا نفاذة لا يفلت من مطالعتها شيء، و يمتاز بطاقة خلاقة في تشخيص ظواهر الطبيعة و بث روح الحركة و الدفء في افنانها و كأنه خلق لتصوير هذه الطبيعة بسحرها الأخاذ و هام بجمالها هياما، (فالتصالح المطلق في الفن الرومانسي عبارة عن فعل يتم في قرارة النفس، و صحيح ان هذا الفعل يعبر عن ذاته خارجيا، لكنه لا يتعرف في هذا التعبير الخارجي شكله الحقيقي و مضمونه و هدفه الاصليين) اذا كان هيجل في مقولته هذه، يبحث عن الروح المطلقة في مشاهد و لوحات الطبيعة فإن مولوي ينفث في عناصرها عبقرية روحه الولهى الهائمة بلوحات الطبيعة الكردستانية التي يرى في طواياها الروح الألهية المطلقة المتخفية في كل جميل و رائع، و تعامله مع دقائق الطبيعة كالفنان الذي يخط يراعه ابهى اللوحات بحس فني لا يفلت من عقاله شيء، يقول مولوي في فراق صاحبته:

اواه.. كان اللقاء صعبا.. محالا

حتى الركب عاجز عن ايصالي اليك

ان اهات النوى اضرمت في نارا

فحولتني حريقاً.. هشيما

حتى النسيم لا ينشر رائحة احتراقي

بربك ايها الخريف...

اجعل من اصفرار اوراقك الذاوية

ازارها الذهبي

و انت يا جليد الجبال كن مرآة

كي تعكس بريقها الأخاذ

يا غيوم الوديان و الذرى

كوني خمارا فوق وجهها الألق

لقد امتطى مولوي صهوة خيال ابداعي و اطلق العنان لجموحه، بحثا عن صور تجسد عواطفه ومكابداته فاحساسه المفرط بمظاهر الطبيعة يجعلها نتفهم لا اسرار نفسه فقط، بل و نظرته الى الكون يقول مولوي في احدى مناجاته:

ايتها السحائب

ان الفراق يستنطق القلوب الصخرية القاسية

كما يستنطق قلبي الحزين

حينما تلفح الغيوم قلوب الجبال

و انت ايتها السحائب هل تمطرين زخات دمائك مدرارا!!

رفقا.. مهلاً كفي عن الهطول

لأن حبيبتي سائرة في الطريق

فالغيوم التي كست صفحة فؤادي الشجي

تمانع حتى عبور اطياف ذكراها

فكيف السير و الأمطار تبكي عليها منهمرة

ايتها السحائب

ان تلحي على هطول زخاتك

و تداهمي صاحبتي بغيومك

فمهلاً.. رفقا

هاك ألسنة دخان جسدي الحريق

هاك سيول عيني

****

يقول جوته (علينا ان نبحث في الشرق عن أسمى المواد و الصور الرومانتنيكية) يتعامل مولوي مع عناصر الطبيعة بعين اخاذة و بحس انساني رهيف، من خلال وصف مولوي لهذه الشجرة التي تتلقى زخات الأمطار و الرعود نطالع عذابا انسانيا مريرا، قلبا يعيش لحظات احتضار رهيبة، قلبا يتعذب لحظة اثر لحظة، دون ان يملك من مصيره المحتوم، كلمة، فالالام و العذابات التي تجتاح قلب الشاعر تحفر اخاديد عميقة في البقية من عمره، ان الطاقة التطهيرية التي تحملها هذه الأبيات تمثل ذلك الحزن الرومانسي النقي الذي يلقي بظلاله على جل لوحات مولوي، حقا ان الشاعر (هو المستكشف في ميدان التجارب الانسانية و هو يتيح للآخرين فرصة التعرف على تلك التجارب من خلاله مكشفا و معبرا عنها بعد العناء، بحيث تصبح وكأنها خبراتهم الذاتية و بحيث يتمثلونها).

اضحى قلبي شجرة رابية

انهكتها الأعاصير و زخات المطر

فعرت جذورها المدثرة بالطين

و الآن بانتظار ريح تقلع جذورها

كي تهدأ هدوءها الأبدي

ان حب مولوي مزيج حي من معان تصوفية وفلسفية انه بحث متواصل وراء الحقيقة، ان الألم خميرة روحية تعج بها احرفه و كلمه، لقد فقد الشاعر عينيه قبل سبع سنوات من رحيل عمر الأليم اثر حادثة مفجعة، حيث اغمض عينيه كي لا يرى اكثر من ذلك مرارة الحياة و بشاعة مصابها، لقد رثى رحيل عينيه الأبدي و بكى ظلام حياته المتبقية بكاء يهز المتلقي من الأعماق، و غدا رهين ذلك السجن السرمدي، حيث لاخلاص له الا عندما يشعل حلكة عينيه قنديل نور سماوي، لقد فرقت انات قلبه الحائر ستائر الكون و صنعت له هذه المحنة المعذبة جبالا من الونى و الحرمان فلا يقوى على الصعود بقدمين عاريتين:

عندما نذرت عيني لهواك السرمدي

بات اللقاء يوم الحشر.. بعيدا.. بعيدا

اواه يا عزيز الروح

وددت لو اطيل الكلام عن صحائف حزني

لكن قلبي الولهان شل لساني

متنبأ بهذه الفجيعة

ان دخان فؤادي المكتوى

ادمع (ما) و (من) في الوجود

فسحت زخة دموع بل دم.. مدرارا

مراثيه لزوجته عنبر خاتون

هذه القصائد تجسد حالة انسانية رهيبة، حيث تمتد فضاءاتها بين عواطف متوهجة طورا و نهايات فصول اوراق الحياة المتساقطة طورا اخر، انها بمثابة شعاعات لمرايا متشظية ينوي مولوي بخيالها التركيبي الحالم ان يلملم اطيافها الشاردة، فيرينا من خلالها زوجته (عنبر خاتون) و هي عروسة كردية لا ترفل بأزاهير الجبال و اريجها فقط، بل و بلآلئ من دموع ابداعه الحرى، فيجعل من وهج روحه قبلات تنطفئ فوق خدود الانتظار، لكن الموت اشاح بوجهه المخيف، واقفا كالمارد الجبار، حيث ينتهي امام سطوته اللامحدودة ملكوت كل شيئ، الا شعاع قصائد تنفذ اعتى الأسوار و اوجعها، ان قصائده هذه لظى عواطف لا يخمد لها اوار، بل وجيب قلب ينبض ابدا بخلود الكلمة و امتداداتها السحرية، انه يحرق الام الشوق و مكابداته، تجسدها صور انسانية تظل على مر الأيام جمرات تتوهج كلما تهب عليها رياح سنين ذاوية.

حينما اودعت زوجته عنبر خاتون الثرى لازم مولوي ضريحها الحزين في مقبرة (صحابة) و لم يغادرها الا بعد ان قضى ثلاثة ايام بلياليها التعبى، اذ هو بجوار رمسها الأبدي و يرسل له من قريته ما يسد به رمقه، حيث يهيل على رأسه التراب و يتلو القرآن بصوت شجي و يناجي ذكرياتها بأحر الاهات، فحينما اعادوه الى القرية من المقبرة، كان مضطرب الحال، خائر القوى، مصفر المحيا، وكست الأتربة والغبار لحيته النورانية و شرقت عيناه بلآلئ من دموع قصائد عصماء، لقد غدا مولوي اثر هذا المصاب الجلل، صوتا شجيا تملأ اطيافه لافضاءات ادب الشرق فقط بل ادب الانسانية جمعاء.

مراثي مولوي لزوجته [عنبر خاتون]

القصيدة الأولى

يبدو ان بعادك يحدث جللاً

لكن شوكة الآلام تعمق جرحاً في كبدي

جرحاً يريني صورتك في كل شيئ

و كأن قلبي محاصر بسوار الأحزان

كلما يهل قمر تضطرب حالي

لأنه يضاهي حاجبك

لا راحة ليلاً و لا سعادة نهارا

فالليل يذكرني بضفائرك

و النهار بمحياك

ان لمح شجرة (الشمشاد) و النرجس و البنفسج

يؤذي عيني

تحرقني حسرة وحدتك

لكنها لا تبلغ شأم ذكرى بقائك وحيدة في الضريح

قسما بموتك يا عزيزتي

انا على باب الرحيل ايضا

سآتي اليك اليوم او غدا

ايها المغني اعلن صدى موتي

حيث دائي عضال

و انت ايها الساقي..

امنحني كأس المنون

حيث غاليتي بانتظاري

القصيدة الثانية[1]

حان يوم العاشوراء و مصابه

حيث اقبل المحرم و غابت الحريم

انها تئن في فيافي مدينة العدم

اما انا ففي مأتم صحارى كربلاء

انها اسيرة (يزيد[2]) الموت

اما انا فمحاصر بـ(زياد[3]) الفجيعة

الهي.. هذه الدنيا سوق و تجارة

فأقبل منا حياتنا الرثة الفانية

و امنحنا حياتنا الباقية

وا ويلتاه.. فحينما تشرق الشمس غدا

اين يحل راسي و اين بدني؟

1-يبدو انها ماتت في ايام العاشوراء.

2-يقصد بـ(يزيد بن معاوية).

3-يقصد بـ(عبيد الله بن زياد) قائد جيوش يزيد.

القصيدة الثالثة

يا قلبي المترع بخمرة هوى ليلى

انت الان طريح رمسها الأبدي

يا قلبي.. امسى مربعك

اوكار جداثل تضوع مسكاً

لحدا صخرياً يضيق بكلينا

يا قلبي الهائم كفراشة

تطوف حول شمعة قرارها

كن ترجمانا لآلام جوارحي..

ابلغ ليلاي..

اني لمحت صاحبك

بقلب ولهان و عين دامعة

و خاطر غشته غمامة الأحزان

و جسد شب في ثناياه

ضرام نيران

ان انينه يعلو بمئة ايقاع

كل حين..

ان نواحه في رثاء ليلى

يذيب القلوب الصخرية

انه حينا يغمى عليه كالموتى

و ريثما يعود الى رشده

يئن من الام جسد هامد

و بكاء لفراقك. و نظرات هائمة وراءك

انه يعاني من مواجهة اشد الجراحات مرة

و من مرابع خاوية اخرى

كلما يشاهد الطرقات و مرابعها

تلطم هامته يد الحسرة قائلاً

حالم انا ام فاقد وعي؟

كذب هذا ام صدق؟

انه يمزج قصائده بالام (فرهاد[1])

ذاك الذي يعبر عن جليل مصابه قائلا[2]:

افدي بروحي هذه الديار لأنها

مرابع (شيرينه) التي تفوح من ضفائرها

رائحة العبير

اذ وطأت قدماها حيناً هذه الصخور

و نزعت عن صفحة وجهها برقع الدلال

لقد صوبت نظراتها من هذا المرصد

جاعلة جراحات القلوب المصابة الفا
و من هذا الحزون تنثر ماء الأزهار
مسترخصة المسك و العبير
حيث تصفو جبهتها الجميلة
و تريك حظ الق البدر
من هنا تتفوه حلو الكلمات
و تمسح غيوم مذاق الام البعاد
ان اشراقة ليلى في مرابعها
تضاهي نواح مصاب بجنون
هل بمقدوري وصف الحالة لخادمك
املي الا تسمح انت و اصدقاؤك الخير
يا (معدوم[3]).. ان قضاء الله يباغتك
و يجرف العاقل كما يجرف غيره
اين عرفانك؟ انى فهمك؟
الا تدرك ان لا نهاية لرحمة الأله؟
فاليوم هكذا تشرق الرحمة..
و اما غدا فيقحم اخر في باحة العمل
حيث لا نهاية
ان اية اخفاء للطائفه
تنم عن ظهور اخرى
و لا يدرك هذا الا ذوو القلوب الصافية
اذا لم تهاوت قدماك في فخ الأحزان؟
من رأى ارباب العقول في الخطب الى هذا الحد؟
اليوم على اعتاب رحيلها
تتألق رحمة الأله
حيث يسقيها ملاك الموت
المرشفة الأبدية

1-فرهاد: عاشق اسطوري احب (شيرين) و ضحى في سبيلها
2-القول بعد (قائلاً:) لـ فرهاد
3-التخلص الشعري لـ (مولوي)

القصيدة الرابعة

ان الأتربة و الغبار كست
ضريح ليلى
فما علي الا مسحه و نثر رذاذ الماء عليه
حيث حفاظ اضرحة الغيد الحسان
من نصيبي..
اما عيناي الدامعتان فتنثران الماء
و اما رموشي الحدباء فتمسح الضريح
كي لا يعلو الغبار فرارها الجديد
و يجمع القذى و الأوساخ في باحتها العطرة
ان البحث عن رقة و جمال ليلى
و مزارها الحديث مثار التذكير
لأنه قبلة يؤمها قيس
امل ان ارى قامتها الفرعاء
بعيني ام بعين قلبي خلسة و انحناءة
يبدو ان الحميا الهب جسد (معدوم)
حيث يهذي و يهذي..
ان هذه الحميا اصابتني بالهذيان
و لا اقر على حال
ان ايام لقاء الأحبة كانت حلما زائفاً
شاهدناه و لم نشاهد
ان البحث عن رحيل الأحبة اضغاث احلام
فعودة العمر لا محالة
فارتكن الى زوايا السفن مخمورا

او في امواج بحار القضاء و القدر

حدق في لمعان النجوم

و اشكر الأله على نعم مشاهدة الطريق

ان يصف قلبك ازاء الأله

فلست بحاجة الى الربان

يا رب متى تهب رياح اللقاء من اليابسة

كي تدفع زورق الخلاص صوب المرافئ

و انجو من هذا العذاب

القصيدة الخامسة

الى متى تظلين في عيني ايتها البصيرة؟

اتركيني يا كدرة دموعي

سحي دمي مدرارا

لم عزمت صاحبتي على الرحيل؟

و استأصلت جذور اسراري و احاسيسي

اه.. كم كنت قاسيا شقياً ماحييت بعدك

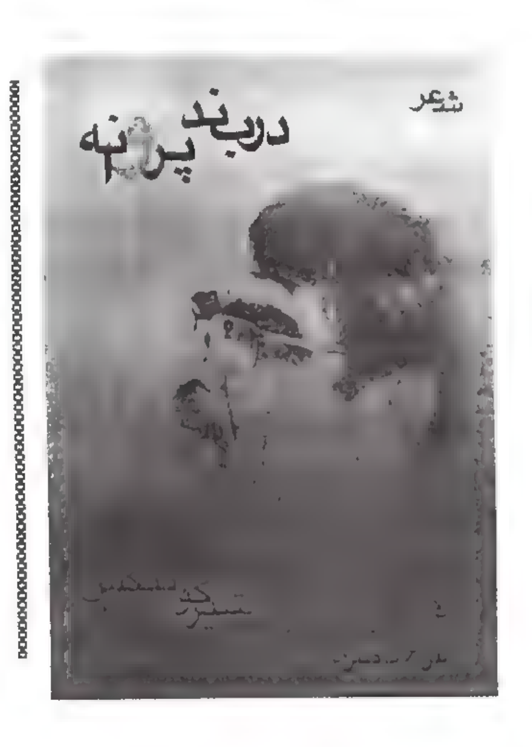
يا بصيرة روحي الحزينة

ان ضرام النوى عن قامتك الهيفاء

و لهيب حرمان اللقيا بغبار خطوك

اوقدا في احشائي نارا

لم يبق في ثناياها موطئ لذكراك.



دربند پروانه

مضيق الفراشات

رائعة شيركو بيكه س

باللغة الفارسية

ترجمها من الكردية الى الفارسيه

عزيز ناصري

الروائي "ماريو بارغاس يوسّا" يكتب عن كرد مابعد صدام

عماد فؤاد-بروكسيل

جاء هذا الكتاب نتيجة رحلة استمرت إثني عشر يوماً فقط، قام بها الروائي البيروفي الشهير "ماريو بارغاس يوسا" إلى العراق، بدأت في 25 يونيو/حزيران وانتهت في السادس من يوليو/تموز 2003، ورغم أن هذه اليوميات التي جمعها "يوسا" تحت عنوان "يوميات من العراق" وصدرت في الأسبانية أواخر العام الماضي، لاقت اهتمام العديد من وسائل الإعلام العالمية ونشرت في عشرات المجلات والصحف سواء في أوربا أو أمريكا اللاتينية، إلا أننا لم نسمع بها في عالمنا العربي حتى الآن، على الرغم من ترجمة الكتاب إلى العديد من اللغات الأخرى، منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية، وكانت أحدث هذه الترجمات هي اللغة الهولندية والتي صدرت في شهر مارس الماضي عن دار نشر "Meulenhoff" بأمستردام، وهي النسخة التي ننقل عنها الجزء المنشور مع المقالة من الكتاب.

كتب "يوسا" هذه اليوميات بسرعة شديدة على حد تعبيره في مقدمته للكتاب، ولكنه عندما عاد إلى أسبانيا حيث يعيش حالياً، أدخل عليها العديد من التعديلات والإضافات، ونشرها مسلسلة في البداية في صحيفة "البابيس" الأسبانية واسعة الانتشار منذ شهر أغسطس 2003، ولأن كثيرا من الجرائد التي أقدمت على نشر يوميات "يوسا" فيما بعد لم تكن أمينة على نصه كما فعلت البابيس، حيث حذفت الكثير من الصحف والجرائد التي قامت بترجمة حلقات يوميات "يوسا" عن الصحف الأسبانية العديد من الفقرات الهامة، فقد رأى صاحب "دفاتر دون ريغو بيرتو" و"مديح زوجة الأب" جمع يومياته العراقية في كتاب، كي تكون آراؤه واضحة كما يريد لها، وأضاف على اليوميات التي تتكون من ثمانية فصول أربع دراسات له عن الحرب الأمريكية على العراق، كان قد نشر ثلاثاً منها قبل قيامه بالرحلة، والرابعة كتبها بعد الاعتداء على مركز

الأمم المتحدة في بغداد في أغسطس/آب الماضي، ومن يقرأ الكتاب كاملاً سيجد أن "ماريو بارغاس يوسا" يعبر عن رأي مناقض تماماً لما عرف عنه قبل الغزو الأميركي للعراق، حيث لم يعد ضد الحرب الأمريكية ضد العراق كما كان يعلن قبل قيامه بالرحلة من خلال مقالاته الأسبوعية في الصحف الأسبانية، وهو ما يشرحه الكاتب في يومياته من خلال شروح عديدة ومستفيضة، يضيق المجال عن إيرادها هنا.

قسم "يوسا" كتابه إلى جزءين رئيسين، الأول يضم يومياته عن العراق، والتي جاءت في ثمانية فصول، كانت عناوينها على النحو الآتي: "الحرية البربرية"، "الناس في بغداد"، "المتدينون"، "ناهبون وكتب"، "فاصوليا بيضاء"، "عطيل .. من اليمين إلى اليسار"، "الكرد"، "الرجل الثاني"، أما القسم الثاني فيضم دراساته الأربع عن الحرب على العراق، والتي حملت عناوين: "كوارث الحرب"، "بق الوبر"، "ديموقراطية الأطلال"، "ميت في درعه"، كما ضم الكتاب العديد من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها "مورجانا" ابنة يوسا، والتي كانت فيما يبدو سبباً آخر لقيام الكاتب العالمي برحلته هذه إلى العراق، حيث كانت تعمل في بغداد قبل شهرين من قيام والدها برحلته، والمعروف أنها مصورة صحافية من مواليد العام 1974، عملت في العديد من الصحف الشهيرة في أسبانيا وفرنسا وبريطانيا، منها "البابيس" و"باريس ماتش" وغيرها، كما عملت لمدة سنوات في منظمة اليونيسيف العالمية، وفي العراق كانت مورجانا بارغاس يوسا تعمل ضمن فريق مؤسسة "Iberoamérica-Europa" كمصورة فوتوغرافية لأحداث الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، والنص الذي ننقله هنا، هو الفصل السابع من يوميات ماريو بارغاس يوسا العراقية، والذي عنونه الكاتب بـ"الكرد".

الكرد

ماريو بارغاس يوسا

ترجمها عن الهولندية:

عماد فؤاد وليبست فانهيه

عندما تسافر من بغداد إلى كردستان العراقية في الشمال، يتغير الفضاء المحيط بك، كما تتغير اللغة والثقافة، والآن تتغير مناظر القرى وأشباه المدن التي تراها من حين إلى آخر، بعد مسيرة أربع ساعات في الصحراء المنبسطة القاحلة، ستجد قرى البدو الرحل متناثرة هنا وهناك، أو بقايا حطام دبابة أو جثث عربات جيش مصفحة، ستجد في الفضاء المترامي أمامك جبال كردستان، نحن الآن في منطقة البترول حول مدينة كركوك، وعندما تترك المدينة خلفك وتسير جهة السليمانية، ستجد الطرق تصعد بك نحو قمة أرضية منبسطة، والخضرة تزداد على ضفتي الطريق كلما مضيت في مسيرك، سوف تمرُ على غابات من أشجار الصنوبر وجداول مياه صغيرة، وعلى حدود هذه الغابات ستجد فلاحين يعملون في أراضيهم، لهم بشرة محروقة وتجاعيد غائرة، ونظرات عيونهم لا تحدها أزمنة، لن تظن أنه كانت هناك حرب دائرة في البلاد، وهي الفكرة

التي تزداد أكثر وأكثر في السليمانية ذاتها، مدينة ذات شكل لطيف، لها شوارع نظيفة وواسعة تحيط بها الأشجار من كل جانب، شرطة المرور تتواجد في كل مكان، وفتياتها يرتدين ملابسهن على الطرز الغربية، محلات انترنت كافيه، ماكدونالد، وغابة حقيقية من أطباق الستالايت تحتل أسطح البيوت، كنت أعرف أن الحرب لم تصل بعد إلى السليمانية، لكنني لم أكن أتوقع الأمور على النحو الذي رأيته هنا، لم أتوقع أيضاً رؤية لافتات تحمل عبارات شكر للرئيس الأميركي "جورج بوش" لتحريره العراق، أو لافتات أخرى ترحب بـ "بول بيريمر"، المسؤول الاميركي الذي زار البلاد منذ وقت قصير لكي يلتقي قائدي الحكومتين الكرديتين اللتين فصلتا عن العراق في ظل الحرب الدائرة الآن، حزب "الاتحاد الوطني الكردستاني" في السليمانية بقيادة جلال طالباني، و"الحزب الديموقراطي الكردستاني" في مدينة أربيل التي تقع أقصى الشمال بقيادة مسعود البارزاني، الخصومة القوية التي تجمعهما (في العام 1994 قتل في الصراع والمعارك الطاحنة بينهما أكثر من ثلاثة آلاف قتيل) أضعفت مركز الكرد الذين يبلغ تعدادهم أقل من أربع ملايين نسمة (يمثلون 20 ٪ من مجمل تعداد الشعب العراقي) بقوة، صدام حسين الذي اضطهدهم بشكل منظم ومنهجي إبان ثورتهم عليه ثلاث مرات (1975 - 1988 - 1991) ضربهم بيد من حديد، كان الكرد يقاومون تعريب قراهم عنوة من قبله بضراوة، لكنه كان يجبرهم على الرحيل عن ديارهم أو قتلهم وإسكان عرب سنيين في منازلهم، في مارس 1988 أطلق صدام الغاز على عدة آلاف من الكرد في قرية "حلبجة"، وقتل أكثر من أربعة آلاف شخص منهم بالسلاح الكيمياوي.

لكن عندما تسير الآن في شوارع السليمانية، سيبدو لك أن كل ما رويناه سابقاً وتقشعر له الأبدان هو ماض سحيق، لن ترى ظلاً لجندي أميركي هنا، (قيل لي إنهم يرتدون ملابس مدنية ويجلسون في المقاهي والمطاعم ويحاولون التآخي مع الشعب المحلي من الكرد، هكذا حكى لي "شالاو عسكري")، العسكر الوحيدون الذين ستراهم هنا هم المحاربون المحليون (جنود البيشمركة)، الذين يحاربون من أجل حرية الكرد، والذين يرتدون أزياء شبه موحدة سراويل فضفاضة وعمائم ضخمة وثقيلة ذات أشكال باروكية، وكأنهم سرقوا وحي أزيائهم من بورتريهات "رمبرانت" التي رسمها لنفسه، وكأحزمة تلف أجسادهم وضعوا أقمشة عريضة مطرزة حول خصورهم.

بعد حرب الخليج الأولى، تغير شمال العراق بأكمله، وتحول إلى منطقة كردية ذات حكم ذاتي مستقل لم تكن لصدام حسين عليها أية سيطرة، استخدم الكرد الحكم الذاتي خلال أكثر من إثني عشر عاماً بشكل ناجح وفعال، لم يكونوا قادرين فقط على تكوين حكومة خاصة بهم للمرة الأولى في تاريخهم، بل استطاعوا أيضاً أن يبنوا ازدهاراً اقتصادياً هائلاً، وهو ما يبدو بشدة في

السليمانية المباني السكنية الجديدة، المحلات المملوءة بالبضائع المستوردة من شتى أنحاء العالم، خيمات المشروبات الغازية في الميادين، المقاهي والمطاعم العديدة التي تزدحم بها شوارع المدينة، لكن رغم كل هذا، لن يسمع الأجنبي الذي يمرّ بالمدينة من أي من سكانها الكرد أنهم يريدون الاستقلال عن العراق، هم يكررون في كورال متناغم أنهم يريدون أن يبقوا ضمن العراق الديمقراطي الاتحادي، الذي يضمن لهم استمرار حكمهم الذاتي الذي بدأ قبل إثني عشر عاماً على السليمانية، هم يعرفون ويدركون جيداً الخوف الذي تشعر به تركيا حيال فكرة كردستان مستقلة، لأن بها إثني عشر مليون كردي يعيشون على أراضيها وغير راضين عن سياسة الحكومة التركية تجاههم.

كل ما سبق شرح لي بإنجليزية "شالاو عسكري" المتقنة (درس في أميركا وانجلترا)، وهو الوزير الشاب والنشط للعلاقات الخارجية في حكومة جلال طالباني، قابلني بترحاب بدلاً من رئيسه، في الحقيقة كنت على موعد مع جلال طالباني، لكنه اضطر للسفر فجأة إلى موسكو، (من قديم كان حزبه ماركسياً، وكان يحصل على دعم كبير من السوفيت، لكن الحزب غيّر اتجاهه فجأة إلى الرأسمالية، والآن أصبح حليفاً مناضلاً مع دول التحالف التي تقودها أميركا، في الحرب الماضية كان الأمريكيون يعملون بشكل يكاد يكون متحداً مع البيشمركة، لذلك خرجت المنطقة من الغزو الأمريكي للعراق دون أضرار تذكر).

"نحن نعتبر أميركا دولة صديقة، فهم محررو العراق، ونحن نشكرهم لأنهم أزاحوا الطاغية"، يقول لي "عسكري"، الذي أستطيع أن أتحدث معه الآن دون ضغوط، لكن عندما وصلت منذ دقائق قليلة إلى مكتبه، أصابتني الدهشة، الوزير كان ينتظرني وفي صحبته عدد من المستشارين ورجال الأعمال والمقاولين، وأدركت على الفور أن بينهم سوء تفاهم كبير بسببي، فـ"عسكري" ومن معه كانوا يتوقعون أنهم سيروا شخصاً يعمل في مجال توظيف رؤوس الأموال، يمنحهم مبالغ طائلة للمشاركة في إعادة إعمار وتطوير المنطقة الكردستانية التي يقطنونها! بدأوا مباشرة بمحاولات إقناعي بأهمية ما لديهم: "مستشفى يضم 400 سرير على أن تتكفل الحكومة بتوفير الأرض وتصميمات البناء (التي من الممكن لي أن أطلع عليها إن شئت)، والتي لن تتكلف سوى 40 مليون دولار، مجزرة كبيرة للحيوانات في السليمانية ستتكلف 14 مليون دولار فقط". ما حزّ في قلبي وآلمني هو أنني مضطر أن أقول لهم: "إنني لست إلا مندوباً عن نفسي فقط، وإنني كاتب من أمريكا الجنوبية جاء ليكتب عن الأوضاع في البلاد بعد زوال حكم صدام حسين"، بدا الوزير الشاب "شالاو عسكري" ممتقع الوجه وهو يجاهد كي يبتلع ريقه الجاف (ما الذي كان في استطاعته أن

يفعله سوى محاولة الابتسام): "نحن الكرد تعلمنا الدرس"، حكى لي: "لذلك لا نريد أن نستمر في مواصلة اجترار أحزاننا على عذابات شعبنا تحت حكم الديكتاتور، أو الاختلافات العديدة التي تشق صفنا نحن الكرد والتي أساءت لموقفنا أمام عيون العالم، لكننا نريد ان نشترك في بناء عراق ديموقراطي حر لنحيا في سلام مع بقية الشعوب الأخرى، نحن نطبق هذا في كردستان منذ إثني عشر عاماً، ألم نعد نحترم التركمان هنا (أقلية صغيرة تتحدث التركية في شمال العراق)، وأصبحت لهم جميع الحقوق في نشر وقول ما يريدون، ألا تتمتع أحزابهم السياسية بجميع الحريات، إذن علينا أن نمنح التيارات الأخرى نفس الحقوق والحريات، الشيعيين والسنيين والمسيحيين وجميع الأديان في هذا البلد، هناك متسع للجميع، نحن مجرد تخطيط مبدئي لما سيكون عليه عراق المستقبل".

عندما أسأل "شالاو عسكري" عما إذا كان حزب جلال طالباني سيكون جزءا من مجلس الحكم العراقي الذي يشرف "بول بريمر" على تكوينه حالياً، يؤكد لي أنهم اتفقوا على هذه النقطة تحديدا خلال الزيارة التي قام بها "بول بريمر" مؤخرا إلى كردستان، (وهو ما تأكد لي بعد أيام قلائل، حيث كان اسمي جلال طالباني ومسعود بارزاني في مقدمة الأسماء التي تعلنها وسائل الإعلام للساسة العراقيين المرشحين لتولي مراكز مهمة في مجلس الحكم العراقي المرتقب).

"الكلمة الأساس للسلام هي العمل"، هذا هو رأي "شالاو عسكري"، صاحب القامة المشوقة، الإيجابي، والمتفاني في عمله، عندما كان يتحدث كان يحرك يديه بشكل مستمر ليؤكد على أهمية كلماته كما يفعل الإيطاليون: "عندما يجد كل العاطلين عملاً لهم سيختفي التطرف الإسلامي ويذوب مثل كرة هشة من الثلج، فعندما لا يكون لديك ما تفعله في يومك يكون من السهل عليك أن تذهب خمس مرات إلى المسجد، وتصبح نفسك سجينة الكلمات التي تسمعها هناك، لكن عندما تعمل ثماني ساعات في اليوم، إضافة إلى الوقت الذي يقطعه ذهابك وإيابك من العمل، والوقت الذي تقضيه مع أسرتك، فلن يصبح الدين هو الشيء الوحيد في حياتك، تستطيع أن تقول إنك هكذا لن تملك الوقت الكافي لكي تصبح إرهابياً، الأفكار الملتوية في رأسك ستختفي وتنفتح روحك لأفكار حديثة وحرة".

في رأي "عسكري"، أن العنف الذي بدأ في الفترة الأخيرة ضد قوات التحالف (الهجمات والكمائن التي صارت تسلب يومياً حياة واحد أو أكثر من الجنود الأمريكيين) ليس فقط من عمل بقايا الحرس الجمهوري العراقي، وإنما يشير بإصبع الاتهام أيضاً إلى قوات كوماندوز أجنبية أرسلت من قبل تنظيم القاعدة، وإلى الإرهابيين الإيرانيين الذين يحصلون على دعم دوائر المحافظين هناك: "يخشى شيوخ المحافظين في إيران أكثر من أي شخص آخر في العالم مجيء

عراق ديموقراطي حر، لكنهم في الوقت نفسه مؤمنون بأن أمريكا ستجتاح بلادهم إن عاجلاً أو آجلاً، ومن ثم قرروا أن يجعلوا الحرب تنفجر أولاً في العراق". لكن "عسكري" موقن بأنه لو بني استقرار وتفاهم بين التحالف والحكومة العراقية المزمع تكوينها فسوف يستطيعان سوياً تحطيم القوى الإرهابية الأخرى في الجوار.

يرسم الوزير الشاب حلمه الذي لا يشك فيه: "عراق حرفيين وتقنيين منفتحين على ثقافات العالم ومحررين من العقائد السياسية والدينية، بلد يجذب رؤوس الأموال من كل أنحاء العالم لتوظيف ثرواته وإمكانياته المهولة، وطن توفر فيه الحرية والعدل والتسامح المتبادل بين الفئات المختلفة، عراق يكون محركه الأساسي هو المجال الخاص"، يقول "عسكري" جملته الأخيرة وهو يشير إلى المقاولين الذين يحيطون به، والذين بدوا وكأنهم شمروا عن سواعدهم استعدادا للعمل رغم المشاكل الكبيرة التي تقابل المستثمرين هنا، ذلك لأن الموقف ليس واضحاً بعد، بل إنه محير، فليست هناك بنوك تعمل بشكل جيد، حتى أنه ليست هناك عملة موحدة للعراق نفسه حتى الآن، فهنا في كردستان لن تجد دنانير تحمل صورة صدام حسين كما هو الحال في كل أنحاء العراق، بل ستجدهم يتعاملون بعملات مختلفة كانت موجودة قبل مجيء صدام للحكم، (في الحقيقة تغير الاقتصاد المحلي هنا بسرعة شديدة نحو الدولار).

يتحدث "عسكري" بحرص حين أسأله: "هل صحيح أن جلال طالباني ومسعود بارزاني قدما وعدا لـ"بول بريمر" بأن يوحدا حكومتيهما (في السليمانية وأربيل) في حكومة واحدة؟، لكي يتحدث الكرد في الحكومة المستقبلية للعراق التي من المنتظر لها أن تتكون بصوت واحد ممثلاً للكرد في قلب بغداد، وكنت أعلم أن "بول بريمر" جاء ليناقش هذه النقطة تحديدا مع الشقيقين العدوين طالباني وبارزاني، يقول "عسكري": "نحن نعمل سوياً واختلافات الرأي القديمة تذوب بيننا شيئاً فشيئاً، إرادة أن نتوحد موجودة، الأمر فقط مسألة وقت"، كنت أسمع الحروف تخرج من فمه ضعيفة ومكسورة، وكانت المرة الوحيدة في محادثاتنا الطويلة التي أشعر فيها بأن الوزير الشاب يتحدث معي بشكل رسمي.

لكنني أوقن أن "عسكري" كان صريحاً معي عندما قال إن طالباني وبارزاني لا يريدان كردستان مستقلة عن العراق، وهو ما ستقاومه الحكومة التركية بكل الوسائل: "جميع الكرد متفقون على هذه النقطة، نحن لا نناضل من أجل انفصال، بل نريد أن نبقى جزءا من العراق الذي يحترم حقوقنا"، ويضيف عسكري ملمّحاً: "ألم ترتكب تركيا حماقة، كان من الممكن لها أن تحصل على 40 مليار دولار من الأمريكان لو سمحت لقوات التحالف بالعبور عبر أراضيها لتحرير العراق، أليست هذه حماقة كبرى، فإضافة إلى المال كانوا سيحصلون على

حليف قوي ممثلاً في الأمريكيين، مؤكدا أنها خسارة فادحة لهم".

"كيف تستطيع أصلاً أن تنفذ أعمالاً تجارية في هذه الفوضى؟"، أسأل الوزير الشاب، لكن "ناجي الجاف" أحد المقاولين الواقفين معه، يضحك متهللاً وهو يقول: "غدا سننتظر هنا وفدا من رجال بنوك سويسرا الذين استطعنا إقناعهم بافتتاح بنك في السليمانية"، ويذكرني الوزير الشاب بأن الرأسمالية تجري دائماً مثل نهر نحو الأماكن التي بها ربح، والأماكن التي تتمتع بموقف مستقر، ويضيف واثقاً: "ونحن نملك الشرطين".

بعد انتهاء المناقشة، أخذني "ناجي الجاف" معه إلى ما وصفه بأنه "جنة صغيرة"، ولم يزد في الشرح، تحيط بالسليمانية هضبة خضراء ناعمة الحواف، سلكنا في البداية طريقاً حديثة أوصلتنا إلى غابة من أشجار الصنوبر، ومنها صعدنا إلى إحدى قمم الهضبة، من هناك تستطيع أن ترى منظرا بديعاً للمنطقة الواسعة في الأسفل، في الأفق سترى السليمانية مترامية الأطراف وشاسعة، تزينها الأنوار الأولى التي بدأت تشعل في بيوت المدينة الصغيرة البيضاء التي تحيط بها الأشجار من كل جانب، من هذا الارتفاع تختفي حدة الحرارة التي تخنقك في الأسفل وتسمح بعبور قليل من الهواء المنعش ذي الرائحة الصمغية، أسر عديدة وفرق أصدقاء أغلبهم من الشباب اختاروا أسفل الشجيرات تحت الهضبة مكاناً لمؤانساتهم، أشعل أغلبهم ناراً يطبخون عليها عشاءهم وفي الوقت نفسه يتحدثون ويشربون وأحياناً يغنون، كل مكان تنظر إليه ستجد كل شيء فيه هادئ وجميل ومسالم، كنت أحاول أن أذكر نفسي بأن ما أراه هنا سطحي ومزيف، فأنا في بلد ارتكبت فيه منذ قليل جرائم وحشية، وكثيرون ممن سيعجبون بعد قليل بالنجوم التي ستبدو لامعة في السماء (لم يسبق لي أن شاهدت كل هذا العدد المهول من النجوم اللامعة في أي مكان من العالم) سيتأسفون على من مات أو تعذب أو تشوه منهم، من ضحايا الديكتاتور الدموي صدام حسين، أو قتل الأشقاء الأعمى وسط الكرد أنفسهم.

في الصباح التالي أزور سوق السليمانية والشوارع المحيطة به، وكل من تحدثت إليه يزيد من شعوري الإيجابي الذي صرت أملكه، أن الأشياء تمضي هنا نحو الأفضل، على رغم الإرث التراجيدي الذي حدث بالأمس، والصعوبات الموجودة اليوم، فإن الأمل يحيا وسط الناس هنا، وهم مصمّمون على أن يخلفوا ماضيهم البشع وراءهم وإلى الأبد.

لكن قبل أن أقرر الرحيل، تقودني المصادفة إلى محادثة في الفندق مع أحد المقاولين من أربيل بصحبة فنجان قهوة قوي ومكثف، ينزل أقدامي من جديد إلى أرض الواقع: "لا يجب أن تغادر وأنت فرح بما رأيته هنا"، يقول لي بصوت منخفض، بعد أن كنت أحكي له كم أنا متأثر بزيارتي القصيرة للسليمانية: "عليك ألا تكون ساذجاً، صحيح أن هناك تطورا كبيراً بالمقارنة مع الماضي الدموي، لكن تبقى هناك مشاكل جمة، كردستان العراقي ما زالت منقسمة بين حزبين يكرهان بعضهما البعض،

حزبين نظم كل منـهما حكومـة انفرادية تريد احتكار الحكم وحدها، وكل منهما تحكم منطقتها الخاصة، فهل تظن أن نظام الحـزب الواحـد يمكن أن يكون ديموقراطياً حقيقياً، أم يصبـح شـكلاً نسـبياً وفاسـداً مـن الديموقراطيـة؟، الدويـلات الكرديـة الصغيرة معطوبة، عندما تريد أن تبـدأ هنـا أو في أربيـل عمـل اسـتثماري عليـك أن تدفـع عمـولات ورشـاوى ضخمـة لحـزب الحكومـة او لقـادة هـذه الحكومة، هؤلاء الذين أثروا أنفسهم بشكل مجنون في السـنوات الأخـيرة، لأنـه ليست في يـد طالبـاني أو بارزاني أيـة رقابة أو سيطرة حقيقية على أعمال حكومتيهما".

هذا المقاول يقول الحقيقـة أم يـهول مـن الأمـور؟ انتقـاده موضوعـي أم نتيجـة سـخط شـخصي؟، لا أستطيع أن اكتشف هذا، ولكن عندما كنت أستقل سيارة الأجرة الجماعية المتجهة إلى بغداد، كنت أحس في فمي بطعم شيء مرّ اسمه الغضب.

اسم الكتاب: Dagboek Irak

اسم المؤلف: Mario en Morgana Vargas Llosa

الناشر: Meulenhoff Amsterdam

الطبعة الأولى : مارس 2004

www.elaph.com



ماريو بارغاس يوسا — يوسا في السليمانيه امام لافتات تشكر جورج بوش على تحرير العراق

حرب وسلام الاصابع

شعر: كزال ابراهيم خدر - ترجمة: حليم ابو زيد- قامشلي

-1-

بين اصابعنا انا و انت

الان انا مثل اعمى

لا اميز اصابعي

منذ يوم تشابكت فيه اصابعي و اصابعك

و اخذت الوان و رائحة بعضها

لا تستطيعان الافتراق

-2-

اصابع يدي اليسرى

كثيرا ما كالعدو

تهاجم يدي اليمنى

اتعلم لماذا تحسدها؟

لأن اصابع يدي اليمنى

هي التي تصافح يدك

-3-

اتذكر منذ ان كنت طفلة

كيف كانت امي تهددني

بالسبابة

و تقول بصوت عال

انت فتاة

لا تذهبي الى هناك، عيب

و لا الى تلك الناصية عار

لا يجوز ان تذهبي

و عندما كبرت

علمتني اصابعك

ان اكسر تلك الاصبع

عندما تهددني

-4-

في صغري

كنت قد تعودت مص

اصبعي بشفتي

حتى و بدون رحمة

كووا ابهامي بجمر سيكارة ابي

تخيل لو وردت مثلما كنت طفلة
ان امص جميع اصابعك
هل سيطاوعك قلبك
بأن تكويني؟

-5-

يقولون كفار اولئك الذين
لا يبللون اصابعهم
خمس مرات في اليوم
لانها تظل بدون وضوء
انا في الفرائض الخمس
اغسل اصابعي بمطر عيونك
و على صفحة خدك
اصلي صلاة العشق

-6-

العشاق ينظرون الى عيونك
و انا انظر الى اصابعك
اولئك العشاق ليسوا عشاقا حقيقيين مثلي
لانهم لا يفهمون مثلي
لغة رقص و تشابك الاصابع

-7-

في زاوية دفتر احد البيشمركة
و بأنفاس اصابعك
كتبت هذه الاسطر
لأحد رفاقك

ايها الرفيق العزيز
عندما ترفع تحب العشق
و تردد نشيد الشهادة
هناك امرأة في ظل قمر عال
تدق ابواب السماء من شدة الجوع
من يدري انها امك
من يدري الان اين قبرها؟

-8-

انت شيخ كبير
و انا فتاة صغيرة
اسمح لي ان اركع امامك
و اسجد لعظمتك
و بإستحياء اشبع اصابعك قبلات

-9-

كم متلهفة انا
لشم اصابعك!
تلك الاصابع المباركة
التي لا رائحة دموع النساء تبعث منها
و لا رائحة دم الرجال

-10-

كل اصابعك جميلة
عدا تلك الاصبع التي
تطوقها حلقة..

طاعن في الخيبة

كولاله نوري

"اما انا فأتوء بهذا العبأ

و يقرع خفق خطاي في وضح النهار كأني اجوب

انحاء مدينة

هجرها اهلها."

الشاعر الاسباني: ليو بولدو دي لويس.

عتمة

و حوافر ذكرى

و صهيل امطار يدغدغ اندفاعة ما

او شحنة داخل الدم تسكعت طويلا

امام هواء ثلج بعيد.

ثمة خيبة

و مقاعد مهجورة

و قناصين اشباح

و حنين فائض لتواريخ

منشرحة صالحة للتدوين،

نبيذ و قنديل و امرأة مفردة

و قلب حافٍ كطريد مستتر

في ليل مكتث بالغياب،

تجول الوقت فينا بعد ان تركنا التخطي البرئ

فالطرقات تطلق الحشائش بدل الفراشات،

تلتقطنا الارصفة كفتات زمن

خارج الموسم.

اين نجمة الميلاد؟ تسأل المسافة بين عام و عام..

الاجراس شاغرة

و التفكك عال في الكلام

و نحن نتساقط معا

كما الخلايا في كوة حريق

الطبول تدق لرقصة الرماد

و العشاق تركوا موضة القبلة الاخيرة

فما بين الشفتين فيض من لعنات

و تركات

و اشياء مخلوطة بين الموت و اللاموت.

اشاطر المرآة بقايا عام

فينبت بكاء

تتزاحم فيه خطوات انوثة عاطلة

ويدان مستسلمتان للفراغ

و اغنية شوق جنوبية ليكتمل المشهد

(...ردتك تمر طيف

... ردتك تمر ضيف)[1]

وحيدا

يأتي اول نهار بحيرة

تجهل خلاصاً.

يد نائمة على صدرك

كي تتذكر انك تخفق،

حسرة في الوريد

و رأس مقسم بين الغيم و ريح ثالثة

نومك يقظة و يقظتك نوم،

تتيتم الأحلام من جديد

ما بين الأبواق

و الدخان

و نهر يجري من عصارتك ضدك.

تدق الساعة

لا أمراء

و لا شبيهات ساندريللا

تدق الساعة

و الغطاء محكم

و البرد محكم، و صداك شاهدة

على تبجج الجغرافيا

فجارك اللصيق جدا

لا يشبهك ابدا

وجهك مقطوف من بحر غريق

و وجهه منتفخ من شدة الحياد

تستند الى نشيدك الأخرس المحاصر

بغيار يثيره..

حصانك المطعون.

الهامش:

(1)مقطع من اغنية عراقية

سكان الفورمالين

قصة: لطفية الدليمي

(...حتى لا اظل وحيدا ازاء محنتي ارجأت دوماً الاعتراف بما حل بي و كنت في انتظاري اليائس انتظر التماعة خاطفة تجتاحني و احرض عقلي ليقدح شرارة قد تزيح رماد العجز عني و مخيلتي لا تستجيب للحث و تظهر خطأ بيانياً ساكنا و مستقيماً كالموت و المرآة ترتاب بي و بذراعي و تطمس بالضحك ريبتها ثم تموه السخرية بافتعال المرح و اعرف انها احبتني يوماً و انا الذي نصبتها وثنا متألقا اسفح امامه حبي و تخيلاتي واعرف ان المرآة الوثن لا تبذل لمن يحبها غير بريق المعدن الذي تتزين به و صمت الحجارة و تتخفى في دخان غموضها و اما الذي يقف في الضحك و يبرز من كل الجهات فانه يسخر من خرابي الذي يدركه كأنه خرابه.. ويضحك مني و ينجز حياته في حيازة شهوات و امكنة و كنوز على مد الزمان و يصطادنا من احتراقنا في رعبنا و يتقدم فوقنا لاغياً كل احد عداه و اما المتفرجون فإنهم يستديرون الى ربيع البث الفضائي او يجنحون الى شتاء الخرافة و هو يشكل من الماء مستقبلاً و يرسم الرعشة عليه دم.. دم.. دم..)

(...انه يضللهم بادعاء اكتماله و انا امرأة تقرفني التبجحات و يحاول ابهامي بالرصانة و اراه يهرج مثل فتى مهووس مع النساء و يكرر خرافاته و حكاياه و يوحي الى لامبالاتي به بصعود نجمه و اراه ينحدر على السفح و يساقط الأوراق من جفاف بساتينه و انا غير آبهة بهذا او سواه و امشط شعري الليلي الطويل تاركة حفيف اشواقي يتدفق الى رجل جديد بسماواتي واما هو فانه يتهاوى في قنوطه و يقف هاذياً بحبي و الضجة تجرف النعاس عني و تبخر قطرات العطر و ما تبقى من ذهول احلامي وهو يترنح مثل كائن من تجاويف موصلة الى بعضها بسداة من اكاذيب و الكتب التي تحيط به ترتجف رعباً من غدره الوشيك بها و بأشيائه الأخرى و اكاد ارى القصائد ترتعش و اسمع للقصص و الروايات عويلاً و للفلسفة جدل الضوء مع الأباطيل وللأساطير طبولاً تدمدم فأهرع و اوصد منافذ الخوف بقمصاني و اراه في البعد يتلصص على المشهد من ثقب في الليل و يشحب وجهه و يتهدل و الطبول: دم.. دم.. دم)

(...انا الذي كتب ما لا يحصى من القصص المبهجة و اجساد الناس ماثلة في رهافة القهر و التماعة الدية و الجوع افة ملكية تنسف قلاع اوهامنا و انا اروج للجمال و اعلن النحافة موضة العقد التسعيني و امجد الهزال الذي يفضي الى شبحية الأطياف و اما ما عدا ذلك فأهمله و اسدد نصوصي لإطراء الموتى و تمجيد الغابرين و اطلق النار على الغد و المصائر تستلقي على عتبات الجنون و سرعان ما يتصاعد الجسد المتبقي بكل نقصانه و يطالب بما خلق من اجله و الناس يستعطفون القيظ و النهار يسخر منهم و يتكثف في غضون و تجاعيد تؤرخ سحناتهم و رأسي لا يستجيب لأي حافز و المرأة تتجاهلني و ترسل نظراتها الشامتة الى الأرض و توقع بقدميها –نافذة الصبر- ايقاعاً سريعاً للضجر: دم.. دم.. دم..)

(ينغلق جنسنا البشري في لحظته الراهنة على رغبات دمرتها المواريث و بلاغة الكتاب و اطلاقة بعد قذيفة يردينا الآخرون داخل اجسادنا و يقلبوننا على السقافيد في اردية من الاسبست يذكروننا بأنفسنا و يعجزون عن التحكم بما فينا و تتفتح اسماؤنا على بهاء تهدده انفجارات صواريخ (كروز) فوق دورتنا القمرية التي من دم وفقاعات اوكسجين و الرجل مرتعب على امجاده الزائفة و خلوده المرتجى و يتساءل امامي:

-اترى انا ندخل عتمة ممرات الجنون؟..

وليس لي سوى ضحكة تتردد و في ضحكي استدعي تصورات المخيلة و اساند الصحو باستحضار مشاهد الموت و ارانا في لقطات سريعة: يعلونا الصدأ في رطوبة الدمع و العرق الليلي و النزف بفعل امراض تعترينا وتتاكل معادننا في الخفاء و انا التي من فضة، اكاسيدي قاتمة و هو من نحاس يأكله صدأ اخضر و اما الواقف في الجهات فانه من حديد هش و اكاسيده من دم متخثر وهو يحشرنا في الهلع لنمضغ اجسادنا الفلزية مملحة بتوابل الأحزان ثم نحتسي شراباً من حامض الخليك او بيكاربونات الصوديوم نيسر له هضم اشلائنا والعقل يفر من فظاعات الشراهة و نواصل الهضم حتى نمضغ في اخر الحفل السنتنا خلافاً لميكانزم الهضم لدى الأحياء و ترتطم قطع المعادن في اجوافنا و يضج صوت تصادمها في الأعماق: دم.. دم.. دم..)

(..مصادفة علمت بما حدث و سأعلم البكم الجدد فن الايماء و اجمع ثروة من اشاعة الصمت بين الناس و اتقاضى رجالاً يبادلون النطق بالإشارات و تسخر مني المرأة و هي لا تريد ان تغفل عن انهياراتي و لكني سأغمض عيني و اتقدم و اعلم البكم رسم كلماتهم في الهواء لتطير اللغة الى جهات الدنيا و امرهم ان يتآلفوا مع خرسهم كتآلفهم مع الثغرات التي اوجدها العقد التسعيني في ارواحهم و سأطلب اليهم ان يوصدوا كوى الصوت باستبداد الصمت و يبيدوا الكتب و الكراسي و الصور و يحطموا الأوثان و يدمروا اللوحات و الأقداح و المرايا و اجهزة تحميص الخبز و خلاطات الفواكه و الشوايات الكهربائية و كل الأشياء التي ابطل العصر الحصاري التسعيني مفعولها و سأعلمهم كيف يخدرون الرغبات و يميتون الشهوات التي توقظها الذاكرة في الجوارح..)

(..هو يتراكض في اوهامه و يبتدع مبررات جديدة لما يقوم به و يرتب عشرات التخطيطات والبورتريهات و اللقطات الغريبة لوجهه في حالات تقمص مختلفة تمثل ظهوراته امام الجمهور في ندوات و محاضرات او افلام و يعيد تنظيم وجوهه و عيونه و افواهه ثم يخلط القسمات و يوزعها متضرعا لما لا يدريه ان يشفيه و يعيد اليه تلك الطاقة السرية الغاربة التي كرسته للجذب و انا اقتفي رائحة قمح محروق و تستدرجني الى باب الخبز الوحيد لأقف بين المنتظرين و تتساقط مني احلام الرفاه المحرم والخباز يساومنا:

-اقايضكم الرغيف بمخيلة كل واحد و اسراره..

و يذهلني افصاحه عن ابتزازه لنا و يخترع له بعض الناس اسرارا قابلة للصرف و التداول و ينتزعون من شق خلفي في الجمجمة جوهرة بشكل عين بشرية تحدق في البعيد و يضعون العيون المهدورة على نضد الأرغفة فيضحك الخباز و يهز الأرغفة الحارة امامهم و يقفز شيء ما من رأسي عندما يدرك انني موشكة على هدره و مقايضته بالرغيف و يفلت مني كعصفور ازرق يقفز نحو الشارع فتدهسه سيارة مرسيدس انيقة و يتبدد رحيقه على الاسفلت فأركض نحو الأشلاء اجمعها و لكن لا احظى بالخبز الذي له عبق بترول و نكهة ارض و اسمع الرجل يتقي فراستي و يموه خرابه بادعاء العشق ثم يراودني على بقايا مخيلتي بتفاحة من اكاذيب عفنة و انا اركض في الصباح ناجية بما تبقى لي و قلبي يوقع نبضه: دم.. دم.. دم..)

(..هذه المرأة تحيرني بذبولها، فهل تراها فقدت ما فقدته؟ و هل اصدق ان الحب يفقس من غدة الأدرينالين قبل ان يتوطن في القلب؟ لقد كانت اوهامي تبتكر لي عاشقات و حبيبات و عروشا ومغامرات و اعاجيب و مدنا مفتوحة و ثروات و تخترع لي وسامة و كتبا خارقة سأكتبها و تؤرخني في انحاء الكوكب الأرضي و يضاء اسمي على واجهات المنتجعات في جزر البهاما و بلاد الأرجنتين و كوريا والسويد و بروناي، كتب ستخرق اتجاهات المستقبل و تغير مسالك الغواصات الذرية و تحرف مسارات صواريخ (توما هوك) و ثبت اسمي و مآثري عبر شبكات (الانترنيت) و ها انا الآن اقاوم تبددي في الخسائر الدائمة و المرأة تواصل لعبها معي و الآخرون يستغيثون من الويل الذي يعطل شجاعتهم وتتدلى احشاء البعض من بطون مبقورة و هم يزحفون مثل (الزومبيز) بأذرع و افواه مدماة.. و انا اركض و يخنق صراخ الزومبيز لهاثي و صرخات الناس فقد ملأ الواقف في الضحك افواههم و اجسادهم بالقش المجبول بأقوال عتيقة و نداءات حماسة و افتخار..)

(..ها هو منشغل بأساطير لم يبتدعها و يحاول اللحاق بموكب يسبقه و نحن الذين لا تعنينا مآثره الزائفة و احلام خلوده نتوجه ضد الأفول و ننبش اكوام المنبوذات اليومية لمدينتنا بحثا عن تلك العيون الداخلية التي قايض بها الناس خبزهم و علمنا انهم نبذوها فوق تلال القمامة فلم نعثر الا على بريق

قطعة زنجفر و خرزة كريستال احيت رغبات نسيناها و لما يئسنا من البحث ارجعنا المنبوذات الى حاويات النفايات و طوينا اذرعنا على ضحكات ملوثة، و اعترض طريقنا عند التقاطعات قطيع من المتسولين، عاملونا كغزاة لمالك القمامة فمنحنا بعضهم ابتسامات غامضة او عبارات ردع و اطلقنا على صلف المعاندين منهم صرخة تهديد لها ايقاع دم.. دم.. دم..)

(..ايتها المرأة لو تسمعينني اذن لتوقفت منذ اللحظة عن استجداء حبك و بدأت محاولة حذفك من ولعي و انت التي افلتت من فخاخي، دعيني لمرة اخيرة اقول لك و لكنك لا تسمعينني و لا بأس لا بأس، ساقول ما ينبغي لمثلي ان يصرح به.. و سأعترف لك افتراضا دون الآخرين بأنني في اعوامي المنتجة كنت اتقي الاخر وجموح النصوص بمقايضات تؤمن لي رخاء طيبا في طمأنينة الاغفال او تقدم لي جرعات شهرة في مزاد تسحق قوانينه الكنايات و تغيب نتوءات الرموز و تموجات الدلالة، مؤكد انك و سواك تعرفونني شخصا لن يكرر القدر عبقريته الا مرة كل قرن و انني احببتك لأنك تمثلين نقيضي و لكني لم افز من تعلقي بك الا بما يفوق الكره او يساوي العداوة فلماذا تدفعينني للاعتراف بسر خرابي و كنت سأجد المبرر لو انك ممن يعنون باشتغال العقل في مسافة الابتكار و لكنك امرأة لا تبرر نفسها الا بما هو منسوب الى عجرفة الأنوثة وتحولاتها و انا مرصود لسقطة فاجعة و لا افهم تعجلك لغيابي فدعيني الآن و كفي عن السخرية و تقدمي خطوة باتجاهي لا لرغبة اخيرة انشدها فيك بل لتسمعيني حسب، اتسمعين؟..)

(..هو رجل لحظته و اعرف كيف يساوم على مصيره بانتهاك المصير و اطباق قبضته على غنيمة زائفة و يبث اوهام حب مضحك الى من لا تأبه به، و يغنم من كل فعل ليبقى و من الحب يتخذ ذرائع لإعلان مظالمه و يقول لي:

-توقفي.. انصتي الي ايتها الواقفة على خرائبي.. تقدمي و انصتي الي..

يحدثني و كأنني احدى خلائقه، تلك الكائنات الخفيفة التي من حبر و خيال و تلفيقات يحركها كما تقتضي اللحظة، هذا الموهوم بسلطة الكتابة و الواثق من خلوده و اما انا فسأطلب اليه ان يكف عن اصطناع الأقنعة و يصمت و يدع كل اخر يندرج فيما يختار لنفسه و سأقول له: توقف عن كل شيء فأنت مرشح للسقوط من ذاكرة الكوكب الأرضي فليس فيك ما يؤهلك للبقاء و اعرف انك ترتضي حذف نصف من نصوصك خشية التأويل و توافق على بتر الربع الآخر لتضمن مطابقته للقياس المعلن و تسحب ما تبقى من المسخ الى الحظيرة العامة بينما تدع عقلك المقتلع يتحمص في فرن الكتروني او تتركه سابحا مثل جنين هلامي مجهض في سائل الفورمالين و انت تردد:

-انا مالك الحقيقة دون سواي..

و كنت اختلج بالضحك و اقول لك:

-الحقيقة وهم يمر بين تعسف الآخر و رضوخنا..

تصمت و تغادر المشهد و انت تؤسس لخلود جلدك و اظفارك و نصوصك المسوخة داخل زجاجات الفورمالين.)

(..مهما حدث و مهما تحاولين يا امرأة احبها فلن ترغميني على البوح بسري و سأقاومك قبل الجميع ولن اتيح لك الاستمتاع بدماري و اما الاخرون فإني سأسرب جرثومة الخراب اليهم و ادعها تتفشى في الهواء و اللحم و اصطادهم في الشبكة التي انسجها لمصائرهم ثم اطلق شائعة النهاية: (الرحيل المبجل للعبقرية، الاختفاء الرومانسي في اللحظة المختارة..)..)

(...لكل من مصيره ما يليق به، و انا امتلك القرائن و البراهين و هو لا يصدق بمعرفتي و حدوسي ويحكم على الآخر بدليل قناعاته هو و انا ارقب هزاله و ذبول القسمات و رعشة الأصابع على الورق و الورد يذوي اذ تلفحه انفاسه و هو بما هو فيه يعمد الى تمويه وجهه بمساحيق و غلالات و يضللنا عما يخلفه الخمر و النحيب الليلي و الفكرة الفاحلة من رماد و عتمات في روحه و قشرته ثم اراه ينهض محمولاً على ذرائع جديدة و يندس في الموكب الذي تقوده مشعوذة موشومة الوجه و اليدين و هي تهز مبخرتها و تهذر بكلام مطلسم و هو وراءها يردد لازمته المعهودة:

-لست الوحيد.. لست الوحيد فالاخرون قد سبقوني..

و يأخذه ذهول الانجراف و يوقظه نذير الوقت بدقات ساعة حائط قديمة يضخم انين رقاصها النحاسي و الليل يتعالى و تدهمه الرتابة: دم.. دم.. دم..)

(.. الحقيقة؟ ما هي الحقيقة؟.. ان كل شيء يبدو سهلاً اذا الصقناه بالحقيقة و يبدو حقيقياً لأوهامنا اذا اعتبرناه ممكناً، و قد صدق الكثيرون بأنني احد الذين يموتون من اجل الحقيقة و لكني اخذ من الأمر ما لا يميتني و لا شأن لي بما هو حقيقي لدى الآخر و حقيقتي تؤلمني بوخزها مثل خطيئة قديمة، حقيقتي التي ترقد في قبو روحي و تملكني في اليوم الراهن و تقبلني في حلم الخلود، حقيقتي و بشاعة عجزي ونضوبي تؤلمني مثل طعنة رمح و تمحوني و انا انتهك المحو بادعاءاتي..)

(الرجل يهذي بمجده القادم و يفكر بإعادة صياغة بعض نصوصه باعتبارها نتاج نضجه و يموه حقيقتها بعناوين جديدة على وفق تحولاته ليطلقها على نهاية القرن و يبث اعلانات الترويج لها في محطات التلفزة وعلى شبكة الانترنيت و يكتب اسمه على بالونات الكرنفالات و قمصان المراهقين و يقول للقرن القادم:

-ها اناذا قادم اليك بأمجادي..

و بغتة ينكص عن خططه و يعود الى تعاطي الحياة مثل الجموع التي تجرفه في موجها المتحرك بعد ان تدبرت النجاة بالركوع و شرعت قانون الخلاص بالتدفق على ايقاع دم.. دم.. دم)

(..بلا عظمة مدعاة اعلن ان الحلول التقليدية لعضلات العالم لم تفقد جدواها، و ها انا انجز المشهد الأخير مثل فصل من رواية محكمة و سوف اطيح بالذين يحاولون التصدي لي و نبذي دون ان انتظر قدرا او معجزة و سوف اختم الضربة برسائل انذرهم فيها بوجود مكائد يدبرها احدهم للآخر وسوف ادرج تفاصيل عن كل مكيدة و انثر في الحبكة نساء يظهرن في المشهد كأنما بمحض مصادفة و يزودن المتربصين ببعضهم بما يعدونه هبات الغواية التي تستدرج المحرومين لمتع النساء، ثم يسحبن الفرائس الى حضيضهن وعندئذ سوف اختفي و انا موقن من انهم تحولوا مثلي الى طريق النضوب و دخلوا كهف النهاية فلا يجرؤ احد منهم على ملاحقتي..)

(..دون تلك المهابة الزائفة التي يتعالى بها رأيته يحوم في الغسق و كأنه يحاول النفاذ الى الجانب الأبدي من العالم و يسخر الوقت و طوابع البريد و الحبكة البوليسية لانجاز اخر مشهدياته و معاركه الوضيعة مع من يضادونه و لمحته في الضوء القزحي الباهت الذي يرسله القمر المفزوع من شناعات الأرض رأيته يمد الى نافذتي مجسات عنكبوتية و يسبر عيون الطريق و يتسلق اقواس النباتات و يبث صوته في تكرار مميت الى هوائي وقلت سأخرج اليه و اقول:

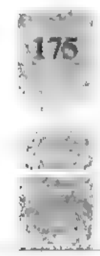
-كف عن هذا العبث فما تردده بصوتك البائس ابتذلته الألسنة و الصحائف و ما تردده غير جدير بالاصغاء و اما من يليق بي فانه يستولد التماعات عظمى في فيوض الظلمات و ينتهك الوصايا التي تتحامى بها و انت تناور ما بين ازدهاراتي به و خرابك بنفسك و تحيي العتمة حتى في وسط النهار..

و قلت سأصرخ به ان: اصمت.. اصمت..

و ابدده في ضياعه الذي انضجه التكدس في سائل الفورمالين داخل القوارير المغلقة و هو لم يعد يعنيني الا كما يعنيني كائن له استحكامات ضبع وحيد، وسوف اخرج لمواجهته بما اعرف و ما يدعي.. لكنه، بغتة ينطلق بسيارته و كأنه ادرك نواياي و يمضي على الطريق السريع فاندفع في ملاحقته بأقصى ما تبذله سيارتي من سرعة دون ان افكر بالهدف الذي يمضي و امضي اليه..)

(..اتخذت قراري و لكن كنت اتوق الى لقائها قبل ذلك فلماذا تأخرت؟.. و ها انا اعلن نفسي و اقر بانهياري و جفاف مخيلتي و سأذهب و ادع الاخرين في محرقة اخر مشهد روائي ابتكرت تفاصيله على وتر الثأر و ساذهب فإما التسليم بالنهاية او استعادة السطوع و المجد دون منافسين..)..

(...رغم استبعادي لفكرة اقدامه على الانتحار الا انني كنت ادرك ما تحدثه التبدلات المريعة التي يؤدي اليها خراب البؤرة الوهجية و جدب الروح لديه و لكن مؤشرات تاريخه و سلوكه الماضي تقدم لي ضمانات معكوسة، لا.. مثله لا ينتحر فهو يتشبث بكل شيء ليبقى..



بغتة و انا الاحقه عن بعد رأيته ينعطف يميناً و يتوغل عابرا من بوابة حديد ضخمة الى (غابة بغداد) ويغيب بسيارته بين احراج الزيزفون و الصنوبر فأتابع الملاحقة القلقة و هو يجتاز غابة النخل نحو الأعماق الظليلة المعتمة حيث يختزل الاخضرار الى سواد له كثافة سر، و بين اونة و مدى تفلت بؤر ضوئية من سطوح عاكسة غير مرئية و تخرق العتمة الكثيفة، و ارى الرجل فوق جسر حجري يتقوس فوق بركة يسبح فيها البجع و البط و يتخفى السمك بين اجمات البردي و صفائح اللوتس، و بضغطة مفاجئة على دواسة الوقود يتعالى صوت محرك سيارته فيفزز اسراب الزاغ و الشحارير و سيارتي تتخفى بين اشجار الغار الرمادية الأوراق لقطف منها غصناً واحدا و اتابع الشهد و فجأة يبرز في الضوء التالي مبنى من رخام و برونز و زجاج عاكس معتم فيهبط الرجل من سيارته و يضغط على الجرس و يتحدث عبر جهاز (الأنتركوم) و سرعان ما يفتح له رجل ذو ثياب مختبرية خضراء و يسحبه كالمقبوض عليه الى عتمات الداخل ثم يغيبان في الصمت، عندئذ اسرع الى المبنى لأتبين عن قرب تلك الكلمات الذهبية المرصوصة كالأحجية على الرخام الأسود:

(مركز احياء المخيلة و زرعها..)

اضع غصن الغار عليها و اعود..

بغداد 1998

دم البومة

قصة: كاروان عمر كاكه سوور

ترجمة: كاروان أنور

حينما انقطع التيار الكهربائي و انطفأت المصابيح، كنت منهمكة بتلميع اظافري، و كأنني ابلغت غيبا بأن التيار ينقطع في الليل، لذا ذهبت الى زميلتي شيلان و قصصت شعري حسب اخر صرعة و تزينت بمكياج جميل، و لبست قميصي و تنورتي الجديدة بانسجام كامل مع الوان تراجي و قراصة شعري واحذيتي، و كنت متيقنة بأن هذه الأمسية ايضا كبقية الأماسي يقف هو مع اصدقائه امام مكتبة (دواروز)، مررت من امامه بغنج قاتل للشباب و حسبت و كأني لم اره، علمت بأني ملأت جميع شرايينه بالحب، والحنين و الرغبة و الشهوة، حيث جعلته يشعر بإثارة، لا اعتقد بأنه يتحمل اكثر من ذلك.

ها.. قد يأتي متسائلاً عن الفانوس و يدق الباب، آنذاك اعلم كيف افتح له الباب، يا ليتني كنت فتحت له الباب بنفسي في الأسبوع المنصرم، لم اعلم بأن الطارق هو، فلو علمت بأنه الزائر لذهبت بنفسي مسرعة لفتح الباب، و لكن من الافضل بأني لم اذهب لاني لم اهيئ ما اقوله و لم تكن لي خطة مدروسة! فكان من المحتمل ان ارتبك و لم أبح له ما بصدري، فكان عدم فتح الباب له بنفسي أحسن لي.. فلو يراني اليوم بهذا الشكل و بكل هذا الجمال لأحسن وأفضل بكثير.. فمنذ اسبوع اهيئ نفسي، كيف افتح الباب له و ما اقوله وكيف اعبر.. فلما دق على الباب احمل احد الفوانيس مسرعة و الافضل ان اكون قريبة من الباب، فلا اسمح لوالدتي أن تتحرك ساكناً و اصل الباب الخارجي، هناك اقف لبرهة، و اسأله بدلال انثوي:

-من الطارق؟

-انا.. هاوار.

-من هو هاوار؟ لا اعرف احدا بهذا الاسم؟

-انا هاوار.. جاركم.

-دعني أسأل والدتي.

-امي.. هل لدينا جار باسم هاوار؟

و لماذا أبلغ امي؟ لمَ أثيرها؟ لمَ لا أقول له بنفسي؟

-عذرا انا لا اعرفك.

-انا هاوار.. مؤجر مام صابر الخباز.

لا اقول شيئاً.. لا اقول (اي نعم عرفتك) لكي لا يشعر بأني فكرت به، بل افتح الباب بشكل و كأني لا اعرفه البته بل و اني خائفة ايضاً.

ارفع الفانوس، كي يفهمني بأني اريد رؤية وجهه، و لكن في الحقيقة كي اريه هندامي الرشيق، كي يراني و يرى عينيَّ الخضراوين و قامتي الطويلة لكي يمعن النظر فيَّ و لا يبقى مجال للحديث و يحتضنني ويعانقني، اريد ان اختصر طريق الشهور و السنين الى ثوانٍ، مللت من الاحاديث التي تجري بين الشباب والفتيات قبل زواجهما.

تختلط ظلانا فوق واجهة الجدار، كبيران و ضخمان، من دون خجل و استحياء يعانقان بعضهما وويتبادلان القبلات ، و نحن ننظر اليهما..

كلا.. فأنا لا ابوح بما عندي و كأني لا احبه، كفتاة متزنة افلت جسدي من بين يديه، و لكني لا اصرخ عالياً وكأن رجلاً غريباً حاول معاكستي و مهاجمتي و يلم حولنا الناس والجيران ، اعرف كيف اتصرف معه، و لكن الشيء الوحيد الذي علي الا انساه هو أني لا اتصرف مع الذكور ببساطة، اعقد الأمور معهم قدر المستطاع، كنت ساذجة و جدا ساذجة، يا ليت ما اعرفه الآن عرفته سابقاً، لما آل ما آلت اليه الآن، غروري وتعاليَّ الآن افضل بكثير مما كنت عليه سابقاً كساعة الكنيسة و قلبي مفتوح للشباب يقرأه الجميع.

كنت معروفة بينهم بطراوة كلامي و طرافتي وخفة ظلي ، بعض الذكور كانوا يحبونني فقط لحلاوة كلامي و لأني لم اكن خجولة كبقية الفتيات الأخريات بل فتاة رجولية، في يوم ما قال لي (سالار) من قسم الفيزياء:

-من يكون معك لا يشيخ ابدا.

لا اعلم كيف قلت له دون خجل:

-ماذا تقول لو عشنا سوية معا ، لكي لا تشيخ ابدا..

ياللجواب المهين و المحفوظ!!!

-كيف تقولين هذا؟ أنتِ مثل اختي تماماً..؟!

يا لسذاجتي و غفلتي، لمْ أفهم اكاذيبهم..!! كنت حبيبتهم دوما، و كان اسمي دائماً على السنتهم،

والفتيات اللائي لم يختلطن بالذكور كنّ مكان سخطهم و ازدرائهم وانتقاداتهم بل و سبهم. و حتى الفتيات اللائي كن محافظات و لم يكن اختلاطهن مباشرة و صريحة مع الذكور، ولا يمشين مع الشباب في الأمسيات امام الجامعة او مشاركة النزهات ايام الجمع الى الغابات، و مع هذا تفاجأت عندما سمعت:

"-سازكار و سمكو يحبان بعضهما"

-ئەيمان و هلو يموتان لبعضهما"

"-شيلان و ريبوار اتفقا وانهيا كل الامور اللازمة"

"-برزان عقد قرانه مع ناسك"

هم.. و خاصة الماركسيون منهم تأثروا بجرأتي، على اساس انني الفتاة الواعية الوحيدة، لا اهتم بالكياج و التزين و المظاهر البرجوازية، الفتاة الوحيدة التي ازالت الحدود بينها و بين الرجال، و لكن ظهر بأن الفتيات الأخريات كن مرغوبات، لأنهن حافظن على حرمتهن و عورتهن.. احد الذين تمنى ان تكون اخته مثلي رجالية قال لـ(جوان):

"-ما لها هذه الشقية؟! تتدخل في شأن الجميع"

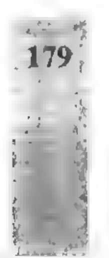
مثلما يقول جميع الرجال (الفتاة السمراء جميلة) و كل الاغنيات تدور حول السمراء، و لكن البيضاء مرغوبة كما كان الحال عندنا، فكان التنافس عليهن على اشده رغم انهن لم يحيّن على الشباب و لم يجلسن و لو لمرة واحدة فقط معهم في الكافتريا، انا استغرب الآن كيف و اين و متى التقوا بالبعض خلال السنوات الاربع، انذاك كنت عمياء و لم أغر في سبر أغوار الشباب..!!

ما كان هذا الولد الثرثار!! بعد قبولي بايام قلائل في الكلية ظهر امامي و نصحني و قال لي:

-المرأة كطائر الحسون، كلاهما ناعمان، لكنهما ليسا متشابهين من حيث الشجاعة، طائر الحسون اشجع من المرأة، بل و من جميع الطيور، النسر بكل شهامته و شجاعته يعشعش بعيدا عن تجمعات الانسان، و الحسون يبني عشه الجميل داخل غرف الانسان، بشجاعته هذه جعل من الانسان أن يدافع عنه بل و يقدسه ايضاً ويعتقد بأن البيت الذي يعشعش فيه الحسون يكون ذا قدسية و تملأ بالخير والأرزاق، كي لا يبلعكِ الرجال ولكي يقدسوكِ عليكِ ان تكوني حسوناً ايضاً.

اقشعر جسدي، اعطيته بسرعة ذلك الدفتر الاسود الذي اشتريته لمادة (تاريخ اوروبا للقرون الوسطى) وطلبت منه ان يكتبه لي، فكتبه لي بخط انيق و جميل في الصفحة الاولى، و فرحت جداً، لأن الصفحة الاولى من دفتري زينتها تلك الحكمة، من كثر ما قرأتها حفظتها عن ظهر قلب، و كنت اردد تلك الحكمة في جميع مجالسنا حتى دون مناسبة تذكر فقالت لي (شرمن) ذات يوم:

-انك خرجت عن المألوف، كل من يحدثك شخص ما و انت تقلبين بالموضوع الى طائر الحسون.



لا اعلم كيف لم اخجل، اي خجل.. بل و اجبتها مسرعة:

-اريد ان اجعل منكم طيور الحسون.

-هراء!! اي حسون!! كوني قوية و اجعلي من نفسك حسوناً. و اتركينا على ما نحن عليه.

كانت على حق.. كنت بومة لقيط، اتظاهر و كأنني طائر الحسون، لانني خرجت من رحم غير طاهر، ورضعت من لبن حرام، تربيت في حضن ام غانية و سيئة، ما لي و ما لطائر مقدس كالحسون، حيث ورد اسمه عشرات المرات في الكتب السماوية..

يقال بأن طائر الغراب قلد ادوار الطيور الاخرى كما افعلها انا، و يوما ما، شاهد نسرا يحمل خروفا صغيرا بأنيابه، و قام الغراب بمهاجمة تيس عجوز ظناً منه انه يقدر ان يحمله معه و يطير به، و لكن اظافره الضعيفة تعلقت بصوفه الكثيف و علق الغراب بظهر التيس، فاشلاً كل محاولاته في انقاذ نفسه، حتى وصل اليه الراعي و أخذه الى اطفاله بعد ان قص جناحيه..

و يسألون اطفاله:

-بابا.. ما اسم هذا الطائر؟

-انه غراب.. و لكنه يريد ان يكون نسرا.

و انا كنت ابنة (ناهدة) الحفافة، جميع زعاطيط و سيئوا السمعة والاخلاق في المدينة يعرفونها و وشموا اسمها على أذرعهم، ما الذي يحولني الى طائر الحسون. لماذا نسيت نفسي؟

هنّ لم يكنّ مثلي، اصبحن طيور الحسون و جعلن من بيوت هؤلاء الشباب اعشاشاً لهن، و انا البومة ابنة البومة عدت ادراجي خائبة مكسور الخاطر الى خربتي و دنوت رأسي الى رأس البومة الأخرى:

-من يكون بهذه السذاجة بحيث يأخذ الى بيته طائر البومة المشؤومة و القبيحة و يهوى تربيتها وتدجينها..

خسرت فرصة ثمينة، كنت سعيدة لأنهم لم يعرفوني و لم يعرفوا بأني من طائفة البوم، لماذا فعلت هذا بنفسي؟ و تقطرت حياتي و اصبحت على لسان المراهقين، و مع هذا ايضاً، عندما شعرت بنفسي و كياني كانت الأمور منتهية، و اختلقوا حولي العشرات من القصص الغريبة والاقاويل السيئة، و احدهم قام باكتشاف سيرتي و قصة تاريخ حياتي:

-المطية، كانت بومة بالأصل و افهمتنا بأنها طائر الحسون.

-انا انظر في وجه المرأة و اعرف ماهيتها، اول مارايتها عرفت بأنها ناقصة.

و في الليالي عندما انعقد الذكور جلسات الشرب وشكلوا مجاميعهم، بدأوا يغنون و يرقصون حد الثمالة وبعد ذلك كان نصيبي.

قيل عني في غرفة الماركسيين:

-الحرية هي فهم القوانين الموضوعية و استخدامها لصالح العمال و الكادحين، و ليست البغاء، مارأيته من تلك الفتاة (و من يقول انها فتاة!! انها بومة) لم ارها عند غيرها.

"وجود الملكية الخاصة مصدر جميع الاضطهادات و الانحرافات داخل المجتمع، و لكن الفقر و الحاجة لم يدفع تلك المرأة ان تبيع جسدها، و انما الرغبة و اللذة المجردة."

"انها من الحثالات التي اشارا اليها ماركس و انجلس في المانيفيست."

و قيل عني في غرفة (القوميين):

-"العرب و التركمان يجربونها ايضا."

-"انها بومة امية.. و لم نعرف بها نحن.!!"

-"لا بالله لا تجعلوها للضحك..!! انها ليست للسخرية، بل يجب ان نضع لها حدودا، لأنها تمددت في حالها كثيرا."

"لا يا اولاد انقهر عليها، و لكني اعرف كيف طأطأت رؤوسنا"

و في غرفة الطلاب الذين لم يتقربوا السياسة قيل:

"جربت الكثير من النساء، و لكني لم ار مثلها حلاوة و طراوة."

"بنت الـ ...لها جسد عجيب."

"لها نهدان، عندما امصهما، يسحرانني و يدخلانني في غيبوبة، بحيث اذا ضربني عشرة اشخاص لا اشعر بالالم."

"كل ما شاهدت في الأفلام و المجلات الخليعة منذ سنين، جربت جميعها عليها، و هي تعرف الكثير وعلمتني الكثير ايضاً."

"و انت حمار ايضاً.. الم تسمع بأن فرخ البط عوام."

"و انت اكثر سذاجة من الحمار، لانها ليست فرخ البط، بل فرخ البومة."

"اتعلمون يا اولاد بأن اسمها على المسمى..؟!"

"بل العكس صحيح، لأني كلما ذهبت اليها و تذكرت اسمها اصابني الخمول."

"ماذا تقول اذا ناديناها بـ(الحسون) من اجلك، و هي مفتونة بهذا الاسم..؟!"

"هذه المومس كيف لها ان تصبح حسوناً، هل هناك اقدس من الحسون، انا لا اكفر حتى و ان كنت ثملاً."

قيل عني ما سمعتموه دون ان اعلم، و هذا الشخص الذي دون ما قيل عني في صفحتين فولسكاب ووضعها خلسة بين طيات دفتري الأسود، فعلها خدمة لِيَ ام كان هو واحدا منهم ايضاً؟ كيفما كانت نياته

جزاه الله خيرا و لكنه لم يفدني بشيء، و تمنيت أن لم اعرفها ابدا، تلك الأخبار الفجائية جعلت من روحي غرباًلاً.. و لم تكن مفاجأة؟ تيقنت بأن هؤلاء الناس لديهم شيء خاص معي، لم يكن اعتباطياً ابتعاد زملائي مني يوماً بعد يوم، نظراتهم خلقت لدي آلاف الاسئلة، همساتهم لم تكن من دون سبب.. كم اكره الهمسات وايماءات الرأس، انهما اسرع طريقة لنشر الاخبار.

متى وصلتني تلك الانباء؟ صباحاً ام ظهرا..؟!

غطت السحب السوداء عنان السماء، او كانت الشمس تنتقم من الأرض، لا اعلم لا.. لم اكن ارى شيئاً، لا اعلم كيف وصلت الى غرفتي و تمددت على السرير..؟! لا اعلم و لا اعلم لماذا كنت عارية؟ أ نزعت ملابسي بيدي ام بيد غيري؟.. نزعتها بنفسي اتذكرها، الظنون جعلتني افعلها، دون ان اعرف بنفسي دخلت في مجموعتهم، انا فرد و هم مجاميع، انا قليل و هم كثر، لمَ يكذبون هؤلاء و انا صادقة؟! استذكرت جميع ايام تلك السنون الاربعة، لا أعرف متى و اين قمت بجميع تلك المغامرات، لم اتذكر شيئاً و دون ان اصدق نفسي، قلت ربما اصبت بداء النسيان، لأنني قرات في احدى المجلات بأن فتاة في الثامنة عشرة من عمرها اصابت بمرض النسيان و نست جميع الأمور الهامة و لكن الأمور الجانبية البسيطة بقت في اذهانها، هذا ما حفزني ان اسحب الطاولة الى أمام المرآة العمودية الملصقة بالحائط، و افرغت الطاولة من الكتب و الدفاتر والامشاط و علب المكياج لي و لـ(مهاباد) و (روناك) و بعثرتها هنا و هناك، تمددت فوق الطاولة و رفعت ساقيَ الى السماء، لكي أرى كل شيء بوضوح تام، بدأت اصابعي تعمل عملها، تبحث رويدا رويدا.. و لكن عن ماذا؟ ما اريد ان اثبته لنفسي؟ و ليس لنفسي و انما للآخرين. و اني كنت واحدة منهم، كانت تدغدغني او تخيفني؟؟ كان خوفاً خوف، علي ان اخاف، كنت العب بالنار، عشرات المرات عاقبتني امي على اشياء اقل منها و صرخت عليَ و كثيرا ما نصحتني هادئة:

-لا تقلدي الذكور، لا تلعبي جميع الالعاب.

كنت طفلة انذاك و لم استوعب جيدا اقوال امي، و بعدها فهمت قصدها، و هذا ما قالته امهات جميع صديقاتي. في أحد الدروس شرحت لنا (ست كولاله) مدرسة الاحياء الجهاز التناسلي للأناث، و علقت صورة كبيرة على السبورة، وضعت اصبعها عليها اولاً، ثم تغيرت لون وجهها و ارتبكت خوفاً او خجلاً حتى قالت ململمة:

-ايتها الفتيات، هذه هي البطاقة التي يجب ان تحملنها عندما تدخلن بيت الزوج.

و انا عدا داري التي تشبه عشاً لبومة، لم انو دخول دار اخرى، و لم احمل البطاقة معي، و لم اهتم لوجودها، اردت فقط ان اثبت لنفسي صحة ما يقولونه عني، و هذا ما كان باستطاعتي تحقيقها و افند ما قيل عني، و لكن يا لغباوتك و سذاجتك كنت تتورطين و تجعلين ما قيل عنك حقيقة، لولا دخول (مهاباد)

و (روناك) الى الغرفة، فما كان الذي يحدث، و ماذا بقي يحدث، ماوجه الخلاف في قضيتي؟

لا تقولي هذا يا فتاة كان الاختلاف كبيرا، الا ترى هذا الشاب كيف جن و تعلق بي، و تتبعني اينما اذهب، يتمنى ان لا أكشر وجهي معه، لا يتحمل غنجي و غمزي، فلينتظر كيف اضعه في شباكي، سأجعله يرضى بي، و لكن علي ان لا اتظاهر بحقيقة حبي له، لأن الذكور يعجبون بالفتيات اللاتي لا يسلمن قلوبهن بسرعة، و الرجل متى حصل على جميع اسرار النساء فلا يبقى عند المرأة شيء و لا يحتاجه الرجل فيما بعد، و انا من الآن فصاعدا لا اكون كما كنت على الألسن ولا مائعة، بل صخرة صلبة و عليه ان يسخر جل حياته لكي يلينني، ساورطه بشكل لا يبقى لديه ادنى مجال ليبحث في ماضيّ وسيرتي، هو ليس من الصنف الذي يجيد المراوغة و المتابعة و الا من رأى شخصاً يبحث عن النور في بيت البومة؟ النور له مدلول اخر عنده ، ويقصدني انا، و الا لمَ يأتي لبيتنا فقط، اعطف عليه، من يقول انه يشبه الاخرين!! و لماذا اكون قاسية معه و انتقم منه ما تجرعته من الاخرين؟ و انه ترك اهله و مدينته لكي يكمل دراسته هنا.

واه.. واه.. ماذا اقول انا؟ لماذا أنسى وعودي بهذه العجالة، الم اقل بأني لا اتعاطف مع اي ذكر؟! و لا ادير اهتماماً لألف منهم حتى اذا ماتوا تحت قدمي، فكم يصعب علي تغيير ما بقلبي، لذا من المستحسن اقتلاعه، او حصول قلب اخر على الأقل واحد للحب و الآخر للكره، و ربما هذا ليس بحل لأنني استعملهما في غير مكانهما و الأفضل ان استخدام ما للحب للبنات و ما للكره للشباب، و هذا ايضاً قد لا يكون منصفاً لأن البنات لم تكن قسوتهن عليّ اقل من الذكور، فـ(روناك) و(مهاباد) كانتا صديقتان حميمتان لي و جعلتا مني اضحوكة، و من حقهما ايضاً، لأنهما رأياني في موقف مخز، علماً اني اغلقت الباب على نفسي، و لكن نسيت بأن لديهما مفتاحاهما الخاصان، فجأة سمعت رقرقة الباب، و تحجرتُ في مكاني و لم الحق أن افعل شيئاً، فتح الباب فدخلا الغرفة، صعقا و ابقيا الباب مفتوحاً، وقفا امامي، كصنمين، و انا كنت ممدة على تلك الطاولة عارية، كالصورة التي علقتها ست كولاله على السبورة.. كان عليهما ان يقولا شيئاً، و نطقتا فانهالا علي بكلامهما:

-جميع هؤلاء الذكور لا يطفئون نارك؟؟!! ايتها السيئة.

-ام سبع عيون يا غانية، امثالك جعلت من جنس النساء لا سمعة لنا.

-لو لم تكوني عقيمة، لكنا انهمكنا بتربية اطفالك فقط.

-اي اطفال!!.. بل قولي فراخ البومة.

سبياني حسب اهوائهما و خرجتا من الغرفة، لم يشأ أن يريا شخصاً غارقاً في الخطايا و الذنوب، و من الأحسن انهما تركاني و الا لبقيت فوق الطاولة ممدة عارية مدى الحياة، كنت خجلة الى اقصى الحدود و لم اتجرأ النظر في عينيهما، حاولت جاهدة و اقفلت الباب على نفسي، لم اشأ أن البس ملابسي فدخلت الفراش

عارية، و لكن لماذا لم اقل لهما حقيقة ما كنت انا فاعلة!؟ لماذا لم ادافع عن نفسي؟ ماذا افعل اذا انا اشك في نفسي، هذا الشك الذي ظل يطاردني حتى الآن، كبومة مشؤومة ظل ينقر داخل خرابة رأسي، ما أنكر صوت البومة!

فكيف عرفا انني عاقرة؟ و انا اخر من يعرف نفسه، و لا اعرف نفسي، جميع الأمور اراها كعلامات الاستفهام و لعلامة الاستفهام مناجل وحدوات حادة تقلع عيني، و ما هي تلك الروح الوسخة التي احبها، لو كان غيري في مكاني لشرب منذ دهر قدحاً من السم، او علق نفسه من رقبته، و انا كان علي ان اؤود نفسي ذلك اليوم الذي رأياني عارية على الطاولة، حاولت الانتحار بشكل لم تجربه اي مومس اخر.. هل كان ذنبي لم انجح فيها؟ او ذنب هؤلاء الناس الذين لم يفرقوا بين امرأة عارية و بومة، و لكن تلك لم تكن حقيقة وانما كابوساً فقط، و لكني اعتبرها حقيقة، حيث خرجت عارية دون ان اخاف او اخجل من شيء، اي خجل!؟ اردت ان اجمع سكان المدينة حول نفسي لكي يرجموني بكل ما اوتوا من قوة و يكسروا عظامي، ولكن لم تكن الحال هكذا، كل من رآني وقف في مكانه و تجمد فاغرا فاه قائلاً:

-ما اكبر و ما أغرب هذه البومة..!!

و أنا كنت اكثر اندهاشاً و استغراباً منهم.

تيقنت لأول مرة بأني من سلالة البومة، و سابقاً كنت اعتبرها لقباً و كنية فقط، غالباً ما كنت اسمع جيراننا يقولون بأن والدي كان ابن سيد مشهور لمنطقة كرميان و والدتي كانت ابنة غجرية، و بائعة لخردوات، حيث دخلت تكية جدي، بعد ان رآه والدي عشقها، و لكن غضب جدي لسماع هذا الخبر، و ابي لم يدر اهتماماً لرأي جدي و لم ينفذ اوامره، حيث يترك القرية مع الغجرية الى المدينة، و يتوسل جدي لربه ان يجعل المرأة الغجرية بومة حتى لا يقدر ابي ان يقترب منها، و يستجيب ربنا لدعاء جدي، و تغدو المرأة الغجرية الجميلة بومة مشؤومة مقززة، و مع هذا لا ينتهي حب والدي لها، رغم انه يعلم بأن والدتي تخونه و هي حامل من غيره و الجنين يكون انا.. لا يمسها بكلمة و لكن ينتحر و يقتل نفسه.

هذه المعارك التي خضتها مع الاخرين، و الجدل و النقاشات التي دارت فيما بيننا حول هذه المسألة، مع هذا كل ما قالوه كان حقيقة و ظهر لي بأنني كم دنيسة و مقززة و مقرفة، و الأنكى و الأقبح مني هي والدتي.

و والدي الله لا يسامحه حتى في قبره، لماذا لم يقتلني و انا في رحم والدتي؟

لا اعلم أ بشر انا ام بومة؟

اعتب على والدي و اني لست اشجع منه، ما اصعب القتل!

ذات ليلة حاولت ان اقتل امي، فهيأت نفسي للعملية منذ المساء، و ضعت المدية تحت وسادتي و تظاهرت

بالنوم، و انتظرتها حتى تنام، بعد ان نامت مددت يدي الى المدية و لم تكن من اليسر، حيث اقشعر بدني وارتجفت يداي لدرجة لم استطع ان امسك بالمدية، تخيلت عشرات الأشياء الغريبة و العجيبة، تصورت غرفتي كهفاً مظلماً او عشاً لبومة، و سمعت اصوات البوم و اصوات مخيفة اخرى داخل رأسي، مع هذه المخاوف كنت مصرة على تنفيذ ما برأسي، وصلت الى فراشها، اردت ان ادخل المدية في قلبها ثم اقطع جسدها ارباً، و لكن لم اقدر ان احرك يدي، تلك المدية التي كنت استخدمها يومياً في المطبخ لم اقدر ان احركها، لذا حاولت ان استنكر جميع ما مر في من المصائب منذ الساعة التي خرجت من رحمها الى اليوم الذي لعنتني فيه أقرب و أعز زميلاتي، اصطكت اسناني و تقلصت اوردتي، تصخر قلبي، فغدت المدية في يدي قلماً وكأنني اريد ان اكتب بها رسالة عشق، تلك الرسالة التي تمنيت طوال حياتي ان اكتبها الى شاب و قلبي مليء بالرغبة و العنفوان و عيناي مليئتان بالدموع و لكن لم اكتبها..

بجرأة كبيرة رفعت اللحاف من فوق رأسها و جلبت وسادتي حتى اضعها فوق وجهها و انهي كل شيء خلال ثوان، و لكن بدأ جسدي و يدي تقشعر من جديد و ترتجف، و هذه المرة لم يكن الخوف وحده العائق بل الحنين و العاطفة، لماذا اعطف على شخص ولدت جرذا مقززا مثلي و ادخلتني في زوبعة الحياة؟! و هذه القطعة المتعفنة من لحم الخنزير قُطعت و وُضعت داخل قفص صدري كقلب لي بحيث تجعلني اقول: "يا امي المقززة.. كم احبك!!"

"يا امي المقززة ما هو السر الذي يمنعني أن انتقم منك، رغم انك مارست جميع الخطايا معي".

لم استطع ان اقتلك في تلك الليلة و اعتبر نفسي مذنبة لأني حاولت قتلك، لا استطيع ان امحو ذلك المشهد الذي رفعت فيه اللحاف على رأسك و كنت نائمة و حزينة، كم ألفتك تستحقين العطف و الحنان، ومن حسن حظك انني اخفيت المدية، عندما فتحت عينيك تحتضنيني بكل حنان و عطف، و انا بكيت بحرارة، جعلتك تتصورين بأنني رأيت كابوساً مزعجاً، لم يكن كابوساً يا امي، لم اقتلك، و لكن اعتبر نفسي قاتلتك، لذا منذ ذلك اليوم ابكي عليك بحرارة دون ان تعلمي، اشعر و كأني عاشقتك، يا لهذه العقدة النفسية!!

اريد ان اقتلك من جهة و من جهة اخرى اعطف عليك؟! و لم اترك فكرة قتلك، في يوم ما اتجرأ و ازيل صورتك امامي، و بعد موتك اما اركع امام تمثالك الى الأبد داعية ان تغفري لي ذنوبي، و اما انساك لأبد الآبدين.

قتلك اصبح هاجسي، و من المحال اخراج الفكرة من رأسي و كان على والدي ان ينفذ تلك الفكرة منذ دهور و لكنه ترك التطبيق والتنفيذ لِيَ، و اني ارى قتل نفسي اهون بكثير من قتلك، و لا اريد قتل نفسي، لأن حياتي اصبحت اسئلة، قبل ان احصل على اجابات لتلك الاسئلة لا افكر بقتل نفسي، انا سؤال بحالي

وابحث عن الاجابة، و نادمة جدا على محاولتي قتل نفسي ذات مرة، بل اعطيت جسدي للآخرين ليقتلوني، حسناً فعلت ذلك لأنني اثبت لنفسي بأني بومة حقيقية، و لم اصل الى الحقيقة بعد، بل كثرت ظنوني وشكوكي حول وجودي، و دخلت الأساطير في حياتي، ماذا فعلت؟ دخلت بين الآخرين و انا عارية؟ من الغريب انهم لم يقطعوني ارباً، كلما اتذكرها يرتجف بدني و ترتجف روحي، و الآن لا اتجرأ أفعلها ثانية، لم يقتلوني، و لكن رأيت الموت بعيني.

صخبت تلك المدينة بالكامل، تركوا ارباب العمل اعمالهم، اغلقت المدارس و الدوائر و المعامل و الملاهي ومئات البواب الأخرى اغلقت، و فتحت ابواب الكنائس و المساجد، مئات الملالي و اشباههم تضرعوا و توسلوا من رب العباد ان يبعد عنهم هذا الش، نواقيس الكنائس لم تتوقف عن الرنين، و سكان القرى المجاورة جلبوا بمواشيهم الى المدينة و ذبحوا العديد منها حتى احمرت الأرض، و البرجوازيون و اصحاب الرساميل توعدوا بخمس و ثلاثين ساعة عمل في الاسبوع مع يومين عطلة، المعلمون تعاهدوا مع ربهم ان لا يرسبون احداً من طلابهم، بناء على طلب من وزير الأوقاف و بأمر من مدير الأمن شكلت مفرزة من اقوى الرجال للمحافظة على حياتي خوفاً من ان يغتالني احد الهوسين، حفاظاً على قدسية ارض هذه المدينة المقدسة ومن اجل ان لا تدنسها دمائي، هذه المدينة التي دفنت فيها عشرات الانبياء العظام ك(يونس) و (جرجيس) و (شيت) حسب فتوى لوزير الأوقاف قطرة من دمي تدنس هذه الأرض المقدسة و لا تنبت عليها عشباً و لا تقبل عليها صلاة احد، فتوسلوا متضرعين ان يبعدهم الله عن شر هذه المصيبة و كانوا يعلنون انفسهم ويقولون: "ما اقترفنا من ذنوب و خطايا، حتى ارانا الله هذه البومة الضخمة..؟!" و من حقهم هذا الهلع والرهبة، لأنهم يخافون البومة منذ الأزل، و حتى ذكر اسم البومة كان مخافة، و الان في مدينتهم بومة ضخمة اكبر من البومة الاعتيادية مئات المرات.. حتى قال بعض الصالحين:

"-ما ترونه انتم ليست بومة، بل فتاة عارية"

لم يخيفهم هذا المشهد كثيرا و قالوا ايضاً:

"-لا يراها على شكل البومة سوى المتورطين في الخيانة الجنسية"

و كان لسماع هذا الخبر وقع هائل و كبير، بحيث اثر فيهم كثيرا و كأنه يوم النشور.. كنت اسير لا مبالية دون ان اعرف وجهتي.. سألت نفسي:

-من فيهم يقول الحقيقة؟

-ما انا؟

-أ بومة ام بشر انا؟

نسيت النطق و الا افهمتهم الحقيقة و لكن بماذا؟

لم اعرف ما انا.؟ و لا اعرف الآن

-آه يا ربي.. كم عجيب و غريب خلقي!! لا أغرب مني في الكون.. تصوروا كيف اصبحت دجالاً و تعكرت صفو هذه المدينة.. بحيث اصبحت ميزاناً للعدل فيها.. من قال عني "هذه بومة" صنف مع الخونة والزناة..

عدا فئة قليلة جدا ممن قضوا حياتهم في العبادة و لم يروا محارم اية أمرأة و لم يكتشفوا محارم زوجاتهم كاملاً.. ما عدا هؤلاء.. فكان الجميع من الزناة، من بين نساء المدينة كلهن لم تكن هناك عذراء واحدة، فكانت الأيادي تفتح الى السماء مرتجفة و كانت الالسن تقرأ الآيات و الأحاديث..

و الرجال الى ذلك الحين لم يعرفوا مدى خيانة زوجاتهم و مدى الافعال الشنيعة التي مارسهن خلف ظهورهم، لذا بدأ الرجال بمعاقبة زوجاتهم و اخواتهم و بناتهم بسحبهن من شعرهن و وضعهن على الظهر و ادخال السكين في فرجهن و تقسيمهن الى النصفين، ثم رفعوا اليد الملطخة بالدماء و السكين الى السماء وبدأوا بالدعاء و التوسل و التضرع.

يا للهول و يا لكثرة انصاف النساء المقطعة و الموضوعة فوق بعضها و لكثرة الدماء التي نزفت من اجسادهن المقطعة الى نصفين، باءت جميع المحاولات للفيمنستيين بالفشل الذريع بالمساواة بين الرجال والنساء، و لكن رجال تلك المدينة استطاعوا ان يساووا و يعادلوا نصف المراة مع نصفها الأخر، و كأنهم عملوا طوال حياتهم في تقطيع النساء الى نصفين متساويين بحيث لم يزد النصف عن نصفه الآخر قيد شعرة و لم يكن وزن النصف اكثر من نصفه الآخر غراما واحدا الا اذا كانت المرأة تنقصها اصبعاً واحدة، او يدا، او كلية و هذا ليس من خطايا الرجال..

بومة مشؤومة مثلي خلقت تلك القيامة لهذه المدينة، تعالوا حلقوا شعر رأسي، ارجموني، و لكن امهلوني فترة حتى انتقم لنفسي من تلك البومة الأخرى، اعدكم بأني لا ادعها تفلت من يدي هذه المرة، الآن اهاجمها و اخنقها بيدي لا ادع دمها تسكب فوق ارضكم، و بعدها فيأتي دوري كيفما تشاؤون انتقموا مني..

واه.. واه.. ماذا اقول؟ رجاءً لا تقتلوني، ليس لأنني احب الحياة، بل لأنني اعيش من اجل الاسئلة منذ ثمانية و عشرين عاماً فأمهلوني على الأقل ثمانية و عشرون عاماً اخرى للحصول على الاجابات، امهلوني حتى يدق هذا الشاب على بابي.. لأني منذ ان خلقت اسأل نفسي:

-أبومة انا ام انسان؟ و الأهم من هذا السؤال هو هل انا موجود او لا؟

هذا الشاب دمر أمري و الا انهيته منذ زمان، و قلت لكم الآن هاتوا سكاكينكم، هو الذي ادخلني عالم الظنون و الشكوك و الا منذ ذلك اليوم الشبيه بالقيامة تأكدت بأني غير موجود، و ان وجدت فأنا بومة مشؤومة.. بعد برهة تظهر الحقائق فاستمعوا معي.. الآن او بعد برهة يطرق الباب، و لكن اغمضوا اعينكم، لأنه ليس مثلي يخجل منكم و الاحسن ان تختبئوا عسى ان لا يراكم و يخجل منكم..

فاسرعوا نفذوا ما قلته لكم.. انتم تريدون قتلي بسرعة، و انا انتظر قدومه على النار، فيحمل معه اجوبة اسئلتي، اعلم بوجودي عندما اتيقن بأن هناك من يحبني و الأصح ان اتأكد من حبه لي.. الان تظهر الحقيقة لي و لكم.

-لماذا تأخر؟ المرة السابقة قدم مبكرا و المرة الأسبق قدم أبكر.

-واه.. بدأ قلبي يدق بسرعة و روحي ترتجف، امسكوا بيدي لأقف على قدمي، لأفتح الباب الخارجي واتطلع الشارع و انظر في شباك غرفته، عسى ان لا يجلب فانوساً من مكان اخر..!! اسرعوا امسكوا يدي رويدا رويدا لا تسحبوني رجاء، احملوني و ارفعوني لا استطيع ان امشي و اخطو، الباحة مظلمة، ليجلب احدكم الفانونس و يسير امامي، و اوصلوني خارج الدار اريد ان اخرج ما بأحشائي، لا تسيروا على مهلكم اسرعوا.. هذا هو الباب افتحوا الباب بسرعة.. دعوني ارى ذلك الشباك..

-يا لنكستي و وجعي، ذلك الفانوس الذي ينير غرفته لأية فتاة من فتيات المحلة؟

يا لعمري الفائت!! انها يد اي واحد منكم حول رقبتي، لا اكاد استطيع التنفس؟! انها مدية اي واحد منكم تخطو نحو قلبي، اتألم. بصاق اي منكم اثقلت رموشي؟ لماذا خدعتموني؟ لماذا لم تدعوني انتقم بنفسي؟!.. اين انا..!! و اين ذهبوا جميعاً؟ ماذا حل بهم؟

انني حية و باقية لست ميتة

لست متأكدة.. أ هذه انا وضعت رأسي في حضن والدتي و تمددت.. اتظن ذلك؟!

انها تلمع اظافري، لأني لم استطع تلميعها في الظلام، أواه.. لذلك اللون القبيح و المرعب!! يشبه لون الدم..

انها دم البومة، ام دماء فتاة اسطورية تلمع فوق اظافري؟!

كل ما اعرفه انها ليست دماء الحسون.

مسرحية

الأحدب..

سيار تمر صديق - دهوك

المكان/!!!!!!!!!

الزمان/!!!!!!!!!!

الشخصيات/ رجل احدب!!!!

من فجر يوم قد لا يعود الينا

و ظلام ليل.. قد لا يطول العمر فيه

لإنسان فاقد عزيمته قبل خبزه...!

و مجنون يحاول عبثا ان يسعد نفسه

الثورة.. طالت

و العزة فانت.. (صمت.. ساخرا)

فكل ما بقي

قف من أنت؟...

انا الفقير

خذ رأسك للسياف...

فلا حياة للفقراء..

(ينظر لجهة اخرى)

قف من انت..؟

انا الحر

خذ رأسك للسياف فلا حر في دولة القانون...

قف من انت..؟

انا القانون

اذا خذ رأسك للسياف

فلا قانون في دولة القوة.. (يضحك.. ساخرا)

ففي دولتي..

حماة الوطن

يحترفون تقسيم رغيف الخبز

كما يحترفون مهنة تقسيم

جسد الشعب..

الاحدب: (يجمع قواه.. و بدون مبالاة).. اليوم سوف اعلن بأننا يجب ان نواجه الموقف.. او عذرا ياسادة.. لأقولها بهذا الشكل افضل (يستعد من جديد للحديث)..

اليوم على كل واحد منا ان يكون صاحب قضية.. اه اظنني قد اخطأت ثانية.. او.. لا.. لا.. قليلاً.. (من جديد يتأهب)

اليوم سوف تجمعنا قضية واحدة.. تخصني كما تخص الملايين من البشر (صمت. يحاور نفسه) جيد اظنني قد اطلقتها.. (يعود لحديثه) و لكن!! قد

يتساءل البعض ما هي تلك القضية التي تجمعني بانسان ما واعدته في يوم ما..؟ (صمت قليل) فقط الصفة التي يقاسمني بها هو اننا نعيش تحت سقف اسم واحد.. الانسان.. (ينظر الى احد الجالسين) لا تنظر الي هكذا.. فأنا افقد الكلمات. (بهدوء) كما اني افقد السيطرة على نفسي.. لذا اخاف ان اتفوه بجمل قد لا تكون لها اية صلة بما اخاطبكم انا به الان.. او (يحاول ان يبرر موقفه اكثر) او قد تكون جارحة لكم بعض الشيء.. (بعصبية) قلت كف عن النظر الي هكذا (و كأنه ينصرف عنه و يعود لحديثه الأول).. اذن (بصوت عال) هل من سؤال؟ اه.. عفوا مازلت في بداية حديثي.. (صمت) لا اعرف ماذا اقول؟ و لكن (يتردد قليلاً. صمت جديد) اسمعوني.. قد يتساءل البعض منكم ماذا يمكن لرجل مثلي وبهذا المظهر ان يقول و لكن.. جل ما اريد ان اقوله هو.. هل من مخرج للأزمة الانسانية؟ و اظن ان هذا كفيل بأن نمعن النظر معاً في الأمر..

(يتغير صوت الموسيقى يدخل في حوار مع نفسه و كأنه يحاول ان يصور الحالة التي يعيشها الانسان.. بهمس يعلو شيئاً فشيئاً) (بلا حركة).. (يرفع راسه نحو الجمهور).. (الموسيقى مستمرة) نبادر الى قتل الحقيقة.. و نسعى لأن نضعف روح المثابرة لدى الآخرين.. نرفض ان نكون طرفاً في الحياة.. ونكتفي بالحلول المستهلكة نحمل في خفايا اعيننا الاف الأوجه.. (يستمر) صار الصمت يحتوينا.. و صرنا كالشيء الذي يقع في مهب الريح.. فلا نرفض.. و لا نتكلم.. لا نقف و لا نبدي الرأي.. او نقبل بالرأي الآخر.. (يضحك ساخرا) بل لا نعرف حتى ماذا نريد؟ كل شيء صار مبهماً لنا.. المقابل.. الحقيقة.. الكلمة.. الضحك.. البكاء.. الشمس.. الليل.. البحر الطبيعة.. الذات.. السماء.. البقاء، الموت، الطفولة.. نحن انفسنا (صمت و بتعب) كل شيء صار يقبع تحت تلال من الرماد المتعفن.. الزمن الصارخ من الالام.. و اللحظات الجارحة و الغارقة في الضياع (بسرعة يحاول ان يغير مكانه)..

الكل يزوره الموت و في اية لحظة شاء. (و كأنه يشرح الموقف) يأتيك و انت جالس في بيتك.. او يأتيك و انت تتسكع في شوارع مدينتك باحثاً عن لقمة العيش.. او قد يأتيك و انت منهمك في امور حياتك التي صارت لا حياة.. (بعصبية غير مبررة) فلا تعرف الى اي شيء انت منتم (يعلو صوته) أ الى الفناء او الى اللافناء؟ (صمت.. يسترخي و بهدوء) ام صرت من اعوان اللاانتماء نفسه. (بسخرية اكثر) لأننا البشر نولد فعلينا ان نموت ايضاً.. و لأن غيرنا يضحك فلابد لنا نحن ان نبكي.. لأن غيرنا لا يبالي بالألم البشري فعلينا نحن ان نتألم و ان نجمع الدموع في حفلة تكريم الوجع الانساني.. (صمت) ماذا يمكننا ان نفعل الآن؟ كنا نحلم منذ ان كنا صغارا.. و الان و نحن صرنا ندق ابواب اخر العمر مازلنا نحلم بكيفية تغير حلمنا غير المجدي.. غير المرئي.. بل الراقد في خفايا الكهوف المنسية.. اه.. عظمتنا تكمن في انه مازال يطلق علينا لقب البشر.. انظروا اللوجع الادمي الأزلي.. فالمرأة بين لحظة الصراخ الأبدي و لحظة تدفق الدم تخرج بانسان من

خفاياها المظلمة.. ليصرخ هو الاخر في اولى لحظاته باكياً متألماً من المجهول الذي ينتظره.. فلا يعرف ان كان قادما من الموت الى الحياة؟ ام من الحياة الى الموت؟ ام من بين يدي الاله.. الى الموت بين فكي الانسان.. حيث لا قيمة و لا اعتبار فيها لأحد.. حينها تصلب كل الاسئلة في جسد اللاجواب و يبقى المرء منا مصلوباً في جسد اللاعنوان.. يراوح مكانه حيناً و احياناً ينطلق مسرعاً دون ان يعرف وجهته.. و احياناً كثيرة.. يكتفي بالصمت و اخرى بالبكاء عله يرتاح من الضياع.. (يحك ظهره وينظف شعره ثم يضحك ساخرا من نفسه).

اه يا ايها الانسان كم سيكون بكاؤك هذا جميلاً ان كان بكاءا لانسان حر غير مقيد باملاءات القديم و غير ملزم بتداعيات الحاضر. (يعلل كلامه قائلا) كي لا يواكب الآتي دون رأي شخصي يسعفه من السلطوية و الأحادية و من فراغات الأصولية الجاهلية.. او حتى من شعارات التقدمية الزائفة.. ومن اسطوانة التقليد (بجدية مفرطة) بكاء يحس فيه المرء بقيمته الموجبة تواجدها و خلقها. بكاء يولد في النفس لحظات من السعادة الحقيقية والرغبة في فرز حالات التعايش و الأضداد لأننا يجب ان نرفض ان نكون مجرد هوامش في الحياة. (يخرج من حالته تلك.. و يخاطب الجمهور.. الموسيقى تتقطع يبدا باستجماع قواه متحمسا بعض الشيء وساخرا بعض الشيء).

يا ايها الناس.. النائمون منكم و الراقدون ابدا ما هم الا لوحة لمعنى واحد.. اللاوجود. و لهذا نرى اولى اطياف شروق الشمس تخاف شيطانا مهووسا يقتحم الحلم الهادئ.. فتموتون انتم و لا بقعة ارض تحتضنكم.. اسمعوا انين الشمس الباكية.. اسمعوا صوت لهاث الجسد و الألم الذي يحتوي الأرض الغارقة في الهمس الجارح..

اسمعوا صوت حوافر الخيول و هي تلطم وجه القمر العالي بصهيلها غير المجدي و بحثها غير الموعود.. فاعلموا.. ان الجنة ضاعت و كل من صلى لينالها قد فني.. و النجوم صارت قطرات من الدموع تقذفها عين السماء. فلا تجد لنفسها مأوى.. والشيطان صار اخرس يراقص جراحاته و يودع تطلعاته غير الافقية.. فلم يبق سوى شيء هو ان على الانسان ان يعيش وسط كل هذا!!! بصورة افضل!! كيف؟ متى؟ و لماذا الان؟ (يتجاهل كل شيء.. و كأنه لا يعرف شيئاً)

انا لا اعلم شيئاً.. لا اعلم.. إلا (يتذكر شيئا) ان النار التي هشمت العش اليابس و الأخضر هي نفسها ولدت روح البقاء لدى الانسان.. (يبرئ نفسه من كل شيء)

انا اخاطبكم يا ايها الانسان و لست منكم كما لست خارجكم انما انا احياناً البقاء.. و احياناً الموت.. انا الحزن و السعادة.. الشك و اليقين.. انا في الأصل الموجود.. اين؟ هناك في اوجهكم و على ارصفة الطموحات.. و بين بقايا امنيات موعودة خاسرة و اخرى مصلوبة.. ايها الانسان.. من صحارى الرمال الحارقة و المتعطشة للماء.. تتعطش ارواحكم الى الدم.. و الى قتل الضمير و كأنكم بقيتم ليقتل بعضكم بعضا.. بل لتصنعوا المآسي. اه.. اني اخاف

من الآتي لأني ارى قناعاتكم الفوضوية تبلغ اعلاها سوءا فتقتنعوا ختاما بأن الحياة لاقيمة و لا اهمية لها اصلا.. و كأن واحدا يهمس في اذن الآخر حكايات الحزن مما يجعل المرء منكم يسقط باردا شاحبا وكأنه الموت نفسه.. (يضحك دون رغبة في ذلك) اغبياء اغبياء لا تملكون الا ان تراوحوا اماكنكم.. (بلهجة عصبية) انظروا الى الطير و هو يحتل قلب السماء عاليا.. و لا تسقط سقطة ابدية الا بغدر منكم يا ايها الضعفاء (بحماس) حاولوا ان تتحركوا.. ابدأوا باظهار حالة الانسان الحقيقية من وسط كل تلك الأوجه الزائفة للانسانية ابدأوا بطرد الغيظ الساكن في قلوبكم تجاه الآخرين. و لا تأبوا من تكرار المحاولة. ابدأوا بأن تفهموا معنى الانسان معنى الحياة!!!!! (تظهر عليه علامات التعب. و كأن شيئا بدأ يمزق جسده و يشعر بالخوف).

صرت اخاف البرد و تلك الرياح العابثة بأوراق العمر.. اه لا اعلم الى متى سيطول هذا الشتاء؟. فالنار صارت ترقص خلف اسوار الثلوج البيضاء والورود كلها ذبلت اما من البرد او من السنة اللهب الحمراء.. اني اشعر دائما بشيء يضرب جسدي كالسوط و لكنني لا اراه (صمت متأسفا) اتذكر ذات يوم ان كذا انسانا ماتوا جراء الثلوج النازحة من قمم الجبال لتستقر في الأرض الضمئا دافنا بين خفاياه الانسان..

او (يحاول ان يتذكر شيء اخر) من اناس اخرين مات جراء غضب المياه الفائضة (يضحك ساخرا) لا اعلم ان كان الانسان يستحق كل هذا ام لا؟ (بجدية)

و لكن (صمت) طالما عاش الانسان و كانت الطبيعة له ندا. فلماذا نستغرب من تلك الأحاديث؟ الم يقتل البشر الطبيعة مئات المرات؟ (بلا مبالاة.. صمت) ولكن مالي و لهذه الأحاديث غير المجدية؟ (يفقد السيطرة على نفسه) اين كنت من قبل؟ ماذا كنت اقول؟ ماذا؟ ها انا كنت اتحدث عن السياسة لا. لا اظنني تحدثت عنها سابقا (صمت. يتراجع قليلا.. ثم يتقدم نحو الأمام اكثر. يفكر) و لكن لم لا، ليكن الحديث عنها (ينظر الى الجمهور).

عبر التأريخ.. او عبر العقول التي صنعت التاريخ كانت هنالك عقول كثيرة و كثيرة صنعت مصيرنا ضمن جملة المصائر المجهولة (صمت و باستهزاء) وطبعا كان لبعض منا اليد في ذلك! (بجدية) لاقولها بهذا الشكل.. انظروا اليها. الشعارات كانت و لازالت واحدة. و لكن القادة هم فقط من تغير و (بعصبية) كل نادى بالحرية و الديمقراطية و كل ارتكب بعدهما المذابح و الزيف التشريعي و الانسان المحطم.. قادتنا كانوا ثوريين الا ان ثورتهم تلك جلبت لهم فقط الرفاهية و العزة. و جلبت لنا كشعب الذل و الفقر.. ثورتهم جلبت منهم للانسانية الوجه الكاذب للتاريخ فصنعوا الامجاد الزائفة على ملايين من الجماجم و العقول الطموحة (بتأن و الم)

كل من جاء الى السلطة كانت اولى كلماته اخاطبكم باسم الحرية و ما كنا نعلم بأن حريتهم تلك كانت اقسى شراسة من قسوة القضبان الحديدية التي طالما سدت الطريق امام احلام

البسطاء (بحزن و بكاء) اي شعب حر نحن و لا يحق لنا ان نقول.. لا في وجه الزعماء؟! اي شعب حر نحن و الأرض التي تحملنا ترفضنا لأننا نرفض بعضنا.. اه (و كأنه يتذكر اشياء عن الماضي. يحاول ان يختصر في كلامه) سلطاتنا حملت عنا عبئنا.. كما حملت فينا العبء الأكبر.. من لا يصفق ليس نزيها من لا يمجد ليس وطنيا من لا يكبر صار متمردا ومن لا يحفظ تعاليم السلطة المقدسة صار ملحدا فكل الأبوة هم و كل الحرية هم و كل الشرف شرفهم و كل الأحلام يجب ان لا ترى الا باستئذان من الحاكم الأكبر.. الطاعة لهم و الخير لهم و الثورة لهم و العزة لهم و الحياة لهم.. اما الموت و التضحية فمن نصيب الشعب و نصيب كل من يؤمن حق الايمان بالحرية و بالعيش السعيد (يسخر وبعصبية).

اي صور للتاريخ تلك تبثونها في عقول الشعب. ان من يرغب في ان يصنع تاريخا حقيقيا.. فعليه اولا ان يصنع داخل نفسه انسانا حقيقيا. صادقا، فنحن صح لم نعد نملك شيئا سوى الانسان و هو الذي يعني لنا كل شيء. اما البقية (صمت، يلتفت) فما ان تنظر الى حولك حتى ترى ان هناك يوما هزيلا و هناك يوما اخر جريحا.. و هناك يوما ممتلئا بالدموع.. و اخر يوم ضاع بالبحث عن الرغيف.. و هذه طبعا ايام معدودات.. اما باقي العمر. (بهدوء جارح) فضاع بالتضحية و الثورات (يحس بشيء من الندم.. يبكي عميقا و يحاول ان يبحث عن شيء هو نفسه لا يعرف عن ماذا يبحث).

اطفالي.. لم يعد لي اطفال.. طموحاتي. لم تعد لي اية طموحات.. احلامي كلها صارت اكذوبة.. واماني صارت الجزء البسيط. او المنسي من امنيات التحرير (يخاطب حبيبته).

حبيبتي الغالية.. باكرا ارافق وجه الشمس لاصاحب يوما جديدا (لا يستطيع ان يتنفس بشكل طبيعي) فاداعب احلام العصافير و هي تراقص اوراق الشجر و اسبح في نسيم هواء انفاسك.. حبيبتي (يقوي من عزيمته) انا الان ماكث في لحظة الفصل بين ان اكون او لا اكون.. بين ان اجد معنى للبقاء او لا اجد اصلا. (يسرع الى الجهة الأخرى من المسرح) ماكث في لحظة تقربني احيانا من عينيك.. و احيانا لا اجد كل تلك المساحات من صدرك الحنون.. (بصوت معاتب) فبعيدا عن الثورة. نبتكر كل يوم وجها لنخفي به وجه الأمس الكاذب و قريبا عن الثورة ايضا نعلن اننا بشر حسب الطلب (يرفض كل ما يدور من حوله) انا لن اكون ابدا جزءا منكم مادمت و لو للحظة احس بأنني غريب وسط كل هذه الأعمال.. فلا القناعة قناعتي. و لا التفكير تفكيري. و لا الرغبة رغبتي.. جسد فارغ يمتلئ بما يملي عليه. كلامنا صار يقاس بالربح والخسارة.. احساسنا يدنس، عاطفتنا تسلب.. انسانيتنا تقتل. اه (صمت قليلا ينظر لما حوله وبهدوء) الان ماكث انا في لحظة الفصل بين رحيل الشمس.. و ظهور وجه القمر. فلا يبقى سوى ان نكرر الفعل. الأمس.. اليوم.. و غدا.. النضال.. الثورة.. الذل. و التاريخ الكاذب.. فبالأمس كنا نحلم

حلما نزيها و كنا نعشق.. و نكبر. فعشنا حتى وصلنا للحظة الحاضرة (صمت) عسانا ان نغادر الى الغد (يضحك ساخرا) الى الحرية و لكني (بابتسامة خجولة) ادركت ان باسم الحرية تلك ترتكب اكبر الجرائم و ادركت ايضا من انني مهما قلت فان كلامي سوف يسحب و ان الأرض من تحتي سوف تدنس (يغادر الى جهة اخرى من المسرح حاملا صورا لأمنيات قديمة يحاول ان يتذكرها. يصمت.. ثم يضحك قليلا و نبرات البكاء تسيطر على الضحك. يريد ان يقول كلاما و لكنه يشعر بالخجل و الاهانة. صمت جديد. ثم)

(بهمس عال) صغيرتي لم يعد لي شيء اتشبث به سوى صور و نكريات احيانا اتغلب عليها و كثيرا ما تتغلب علي جراحاتي تلك (صمت. و بألم) من مقبرة الأحلام المرسومة بالألوان البراقة نصبح فريسة الأوهام.. ما ان نقتل حلما كاذبا تولد مئات الأحلام.. حينها لا نستطيع ان نواجه الحلم المر ذاته و لا الواقع الأمر منه.. (يلقي من جديد بعض ابيات القصيدة).

مجلة رهند في عددها الجديد

"رهند" مجلة فكرية فصلية تصدر عن مركز رهند للدراسات الكردية في اوروبا وكردستان في وقت واحد. تنصب اهتماماتها بالدرجة الأساس على الدراسات الفكرية والفلسفية والسوسيولوجية والتأريخية والنقدية. صدر هذه الأيام عددها المزدوج (16-17) ويحتوي على المواضيع الآتية:

المجتمع الشاب - المجتمع الهرم دراسة حول سوسيولوجية الاعمار وتمظهراتها بقلم الاستاذ شاهو سعيد، الشهيد دراسة حول الاستعمالات السياسية للموت بقلم بختيار علي، الهوية والصراع في مجتمع مابعد الحرب بقلم آراس فتاح، القومية والحركات القومية بقلم مريوان وريا قانع، تأملات حول الطاقة والحياة في المجتمع الامريكي بقلم مجيد عزيز، انتحار المراة وسر اختيار النار بقلم عطا نهائي، من السلفية اليسارية الى السلفية اليمينية بقلم بختيار علي، حوار مع يورغن هابرماس بعنوان ايران واحتمالات اصلاح المجتمع الديني، اضافة الى مواضيع اخرى.

هل نهاية صدام نهاية البعثية؟

حوار مترجم مع الشاعر و الروائي بختيار علي

اجراه: بروا علاء الدين

ترجمه: امين بوتاني

***في اخر لقاء لك مع جريدة (كوردستاني نوى) تقول بأن الصراع القادم في العراق سيكون صراعاً بين الديمقراطية و الدين. لكن هل بمقدورك ان ترينا ماهية تلك القوى الديمقراطية؟ لأنك في مكان اخر تقول، اننا يميناً و يساراً، دينيين و غير دينيين، كلنا نتاج و فاعلي ذلك المجتمع التواق للموت، المهوس للعزاء. ذلك المجتمع الذي يقف حد النخاع بالضد من المجتمع المدني و مفاهيم الانسنة و الديمقراطية؟**

بختيار علي: ان الحديث عن مجتمع العزاء لا يعني بأن مجتمعنا قلعة مغلقة، او خارج الدنيا، خارج التأريخ و التأثير، ذلك لا يعني بأننا نعيش في برج لا ينبت بداخله شيء، او ان البشر فيه قابعون على هوس الموت و ليس لقوة الحياة فيه أي وجود. او لا يوجد للحلم مكان فيه. هذا فهم خاطئ لمفهوم العزاء، فالمجتمع ليس بشيء يستطيع فيه أي واحد ان يختزله في مفهوم واحد. ان تمجيد الموت والعزائية و سيادة المآتم، يمثل مجموعة اليات داخلية مهمة في حياتنا الاجتماعية، الا انه في الأخير، المجتمع لا يتساوى مع هذه الأشياء.

مع البعث، مع الانتفاضة، مع الهجرة المليونية، مع الأقتتال الداخلي، مع الحروب المختلفة، وصل مؤشر (تمجيد الموت) في عالمنا الى درجة عالية، تذوقنا الموت الى ابعد الحدود، جربنا الموت بكل صنوفه، بكل المعاني المباشرة و الرمزية للموت والحياة، لقي تمجيد الموت في مجتمعنا نموا مرعباً وغير عادٍ، حيث ارتقى من التكوين الغريزي والمستويات غير الواعية و الخبيئة لدى الانسان الى الحد الذي عبر عن مكنونه على شاكلة الحزب والتنظير و الخطاب، مما حدا بحياتنا السياسية ان تكتسب ميلاً علنياً خالياً من الحياء نحو القتل والانتحار، وصل به الأمر ان يدمر معه سائر

التكوينات الاجتماعية و يفكك جميع البنى الاجتماعية، و كان مؤداه خلق تهديد عميق بوجه سيرورة الحياة.

فمن هنا نحن قبل حاجتنا الى الديمقراطية كتكوين سياسي، او كآلية للعمل و ادارة السلطة، نحن نفتقر الى الديمقراطية كحالة دفاع غريزية وحياتية من اجل البقاء و الحياة. فنحن الآن لسنا بحاجة الى الديمقراطية لتنظيم حياتنا السياسية، لكننا بحاجة اليها كجواب اوحد مقابل الموت، فلنتعمق اكثر كي نرى الأشياء اكثر وضوحاً. انا دائماً تطرقت الى مفهومين. المفهوم الأول و منذ البداية و الى اليوم و انا منصب عليه قدر الامكان هو (خطاب البقاء). و المفهوم الثاني (تمجيد الموت – محاباة الموت - الموتانية) او مفهوم (مجتمع العزاء)، مثلما تعلم ان خطاب البقاء لهو جزء من ابتغاء الحياة و جزء من غريزة البقاء، لكن مع هذا، فانني اجمع الاشكالية الرئيسة لهذا الخطاب في نقطتين رئيستين:

الأولى: تحول خطاب البقاء من خطاب جمعي – قومي عام، الى خطاب مجزأ و ممزق. اي تحوله من خطاب بقاء الأمة الى خطاب بقاء الفريق و الحزب، تحوله من خطاب بقاء (نحن) الى خطاب بقاء (أنا)، من هنا يفقد قدرته على حماية المجتمع، لأن بقائي ينفصم علاقته العضوية مع بقائك انت، و حياتي لا يتلاقى و السلسلة التي فيها حياتك، تنقطع الصلة بين وجودي و وجودك، انا ارى بأن كل ظواهر المجتمع العراقي و الكردي في العشرين سنة المنصرمة، بدءا من الصمت ازاء البعث الى المنفى، من اهمال مصير موتانا وصولاً الى الخنوع و اللامبالاة في النظر الى آلام بعضنا الى اعمال و نتاج بعضنا، كلها يمثل مرآة لتلك الصدع، و الآن الديمقراطية تمثل الجواب الوحيد كي تمكن المجتمع من خلالها مرأب قليل من صدع ذلك الخطاب و توحده.

الثانية: قيام خطاب البقاء بتوظيف تمجيد الموت (الموتانية) و ذلك من اجل اعادة انتاج نفسه. و استطيع ان اقول بأن خطاب البقاء يقع تحت طائلة الموتانية. و في بعض من محطاته نرى الموت يستعمل شعارات الحياة (مثلما حدث في الحرب الداخلية – اقتتال الأخوة في كردستان – المترجم) فهنا الشهادة تستخدم السياسة كقناة للتعبير، لا ان تحرك السياسة الشهادة كأسلوب نضالي، انها الحرب تستخدم الأحزاب و ليست الأحزاب تستخدم الحرب كامتداد للسياسة، هذا موت بعينه يتحدث عن الحياة لتشذيب لظى الاحتراب، لا ان تكون الحياة بحاجة الى قرابين للذود عن نفسها.و من الجلي، اذا اردنا ان نثبت هذه الحقائق على مستوياتها الميدانية، فأننا ازاء كم لا يحصى من الدلائل والأحداث التي لا تحتاج سوى الى ترتيب نظري يسير، كي نظهر وجهة النظر السالفة على شكل نظرية كاملة. لكن السؤال الآن يحمل منحى اخر. السؤال الآن حول مصير الديمقراطية، فلنطلق اسئلة اخرى قبل الكلام حول الديمقراطية و نقول: هل انهيار البعث سوف يغير الظرف الذي تعمل عليه الموتانية؟ هل الموتانية (تمجيد الموت) بعد صدام

تستطيع ان تعثر على عين الفضاء الحر للعمل؟ هذان السؤالان في غاية الأهمية، انا ارى بأن نظام صدام حسين السياسي كان بيئة مثالية لعمل الموتانية، و بعد زوال صدام يوجد شيئ الآن يمكن ان نسميه رجفة الحياة. ليست لهذا علاقة مباشرة بالديمقراطية، فبعد تلك التجربة المظلمة الطويلة، لا يستطيع ان يتصرف احد و كأن شيئا لم يحدث، الآن اعظم قوة للديمقراطية هي تخوفنا من الدكتاتورية، هي ذلك الخوف من الموت و الحرب والسلطة الفردية التي نبتت في داخلنا. الذخيرة الكبرى للديمقراطية اليوم هي ان كل كردي و كل عراقي و حتى الذين في جوارنا يعرفون تماماً الى أي مدى يمكن ان تسير النظم السياسية الدكتاتورية مع الخراب و الدمار، و بمقدورها ان تسلط أي عنف تجاه التكوينات الداخلية للمجتمع. توجد الآن غريزة ملحة للحياة و التي تقوي احتمالات الديمقراطية. مئات القوى و المجاميع على علم بأن وجودهم دون الديمقراطية شيء محال و دون الديمقراطية ليس لهم مستقبل. الديمقراطية في عراق اليوم لا تمثل تلك القناعة الاجتماعية الحضارية الوليدة عن نمو الفردانية او النمو الاقتصادي و تطور الواقع الفكري و التقني، لم تأت الديمقراطية على تلك الشاكلة بأننا غدونا مجتمعاً تمتلك قدرة وافرة من التسامح او ان يكون نظامنا التربوي قد تطور، او ان الفرد لدينا وصل الى مستوى يفكر فيه عن حقوقه، و سلطتنا امنت بالتداولية. و رؤساؤنا بدءوا يفكرون او بمقدورهم التفكير في التقاعد.. الديمقراطية التي انا اتحدث عنها هي نقلة من (جمهورية الخوف) الى ديمقراطية الخوف. ما يحدث في العراق هو الخوف من الفناء، الخوف من بعثة الطوفان، الخوف من ان لا يكون لك نصيب، الخوف من ان لا اجد لي مكاناً، الخوف من ان تبقى مفهوم الحق ابدا، مدعاة هذه المخاوف ان نفكر في بنية فيها شيء من الحق و التوازن..

اليوم لا توجد في العراق اية قوة ديمقراطية، من الأحزاب الكردية و الى الآخرين ايضاً، لا توجد اية قوة بذلك المعنى العميق للديمقراطية التي هي قناعة فكرية ايديولوجية و اخلاقية. بذلك المعنى ان تكون لدينا قوة سياسية و حزب ديمقراطي، ليس لدينا شيء من هذا القبيل..

الا ان الديمقراطية كنظام، ليس من الضروري ان تكون من نتاج النمو، بل على العكس، فإن للخوف في تأسيس الديمقراطية دوماً دور كبيراً، بمعنى انني لا اتحدث عن ديمقراطية الخوف بشكل سلبي، لكنني اتحدث عن تكوين، كل قوة فيه تحتاج الى فضاء حر للعمل لتقوية نفسها، وحتى احزابنا الكردية التي لا تحمل اية خصلة ظاهرة للديمقراطية على الصعيد السياسي الداخلي الكردي، انها اليوم و على الصعيد العراقي مجبرة على ان تدافع عن الديمقراطية بشكل مستميت، لأن بقاءها في التكوين السياسي العراقي انما مرهون بالديمقراطية..

أي ان في العراق القسم الأعظم من القوى السياسية يعلم بأنه لا يستطيع ان يتسلم السلطة

الكاملة. تلك القوى لا تمتلك الجماهيرية الكافية كي تحكم بمفردها. من هنا فإن الديمقراطية هي الضمانة الوحيدة لبقائها و استمرارها.

الدينيون (الأحزاب الدينية - المترجم) هم الوحيدون الذين لا يؤمن قسم اعظم منهم بالديمقراطية من الناحية النظرية و الشعاراتية والأرضية الفكرية. و يؤمنون بأنهم لوحدهم و دون اية قوة سياسية اخرى يستطيعون ان يديروا الحكم. و داخل ديمقراطية الخوف، فإن اقوى القوى هي التي تحمل ايماناً اقل بالديمقراطية من غيرها. لذا فالقوة التي لا تؤمن بالديمقراطية من اولها أي من سياقها الايديولوجي، فهي بالتأكيد ستكون القوة الوحيدة التي تعمل من اجل ارجاعنا القهقري من ديمقراطية الخوف الى جمهورية الخوف.

اذا تعلم بأن بعد ثورة ايران قمع الأسلاميون كل القوى الأخرى هناك. لكن اليوم اسلاميو العراق لا يستطيعون فعل ذات الشيء، لانهم يقفون على ارضية سياسية تختلف عما كان يقف عليها اسلاميو ايران بعد زوال الشاه.. و هنا لا اريد ان اتكلم عن سياسة الأحزاب الدينية. فهذا ليس من شأني، و لكن من الناحية النظرية انها (أي الأحزاب الدينية) تمثل القوة الوحيدة التي دائماً تبقى في ازمة فكرية و اخلاقية و نفسية ازاء الديمقراطية. ناهيك عن استحالة التفريق بين الديمقراطية و العلمانية. حيث الأسلاميون دائماً يريدون ان يفرقوا بين العلمانية و الديمقراطية. الحرب على هوية الدولة العراقية المستقبلية. فيما اذا كانت دولة علمانية او دينية. لهي النقطة الجوهرية في حرب الديمقراطية، يبدو انني اعلم بأن التحول العلماني ليس بالتحول الديمقراطي، و لكني اعلم بأن العلمانية شرط مسبق الى الديمقراطية، ليس شرطاً ان تكون الدولة العلمانية دولة ديمقراطية، و لكن بكل تأكيد فإن الدولة اللاعلمانية هي دولة غير ديمقراطية. و من هنا فإن الصراع بين الدينيين و سائر البنية السياسية في العراق حتمي بشكل من الأشكال، لا تنس انني اتحدث عن الصراع و ليس الأقتتال المسلح. و شرط رئيسي من شروط الديمقراطية هو ان تتاح الفرصة كي تضطلع القوى بصراعها في فضاء ديمقراطي. بمعنى اذا تسألني لم و مع كل هذا التشاؤم الذي احمله ازاء انعدام وجود قوة سياسية ديمقراطية. اؤمن بحدوث صراع بين الشكل الديمقراطي للادارة و الشكل الديني؟ فأنني ارى، بما انه ليست هنالك قوة ديمقراطية مؤثرة في واقعنا الراهن، الا انه في عين الوقت توجد ظروف تأريخية للديمقراطية، هنالك انتباهة محبة للحياة من قبل الافراد المستقلين في المجتمع هناك اشخاص ومثقفون يعملون من اجل الديمقراطية، هنالك الآلاف من الناس خارج الأحزاب يعلمون بأن الديمقراطية هي الدرب الوحيد لتجاوز البعثية. توجد العشرات من الفئات الاجتماعية تعلم بأنها فقط من خلال وجود مجتمع مدني ناشط تستطيع ان تبقى و تعيش. هنالك حلم لتجاوز هذا الظرف الاقتصادي المخيف والذي لا يتحقق دون امان طويل الأمد، هذه الأسباب و غيرها تدفعنا للاطمئنان بأن الدكتاتورية

والتوتالتارية لن تسودا ثانية هكذا بسهولة. بمعنى انني لست من اولئك الذين يفتخرون بالتشاؤم، انا اريد ان ارى الأشياء بهذا الشكل، و عندما اتكلم عن المساوئ، فمبعثه غير راجع الى نزعة مازوخية لايذاء الذات..

فمثلما من الخطأ القول بأن الديمقراطية سهلة و حتمية، هذا المفهوم خطأ ايضاً الذي يقول: هنال مجتمعات كتب على جباهها ان لا تكون ديمقراطية، ما نحن باستطاعتنا قراءتها هي تلك الحقائق التي بين ايدينا و ماثلة امامنا. و ليست فقط مخاوفنا و آمالنا و يأسنا، فالكلام حول الرذائل و المساوئ و الجوانب الدميمة للمجتمع، مختلف تماماً عن الرؤية الوهمية الابوكالبتية التي تصور المجتمع على نحو من الجهنمية المبتورة. انتم على علم بأنني في مكان آخر انتقدت هذه الرؤية التي ترشق الحاضر بنظرات لاعنة. في الوقت الذي ينم سؤالكم عن هذا المنحى بأنني احمل فكرة كهذه، انتقاد الواقع شيء يختلف تماماً عن جهنمة الواقع و ابلسة الواقع، فرؤية الاشكالات على الأرض شيء يختلف عن تصوير المجتمع على هيئة جهنم. فالكلام حول تمجيد الموت يختلف مع تلك الرؤية القدرية المحشرية التي بنظرتها الدينية تصيب كل القوى والظروف الأخرى التي بداخل الواقع، بوباء قذر.

يجب ان نكون يقظين تماماً و متمسكين بوعينا، و الا ندع بأن ينزلق نقدنا السياسي و الاجتماعي مقترباً من الرؤية التي تشبه الدنيا بالجحيم. كي يدخل بذلك خلسة حلول دينية.

من جانب آخر، ان الدينيين و الحوزويين و من الآن شرعوا بمهاجمة كل اشكال الحريات، و احد الرموز من هؤلاء على سبيل المثال (الفرطوسي) و الذي هو خريج هذه الحوزات و يصدر فتاوى لقتل النساء و منع الخمر و حرق دور السينما، انا لا افهم كيف للمرء ان يتشكك، بأن الناس كلهم لا يستطيعون ان ينقادوا و يسلموا انفسهم الى هذه الموضة الاستبدادية. لاشك بأن الاسلاميين المتطرفين الذين يقومون بتحطيم الحريات الفردية، بعض من هؤلاء لم يكونوا اعداء للبعث، و هم ليسوا اعداء لأمريكا، الا انهم بالدرجة الأولى اعداء لحرية الافراد.

في عمق و باطن سؤالك هكذا يتراءى، بانك قد فسرت مفهوم تمجيد الموت على نحو، حينما تذكر الموتانية ان لا يذهب الناس الى السينما، ان لا يذهب الى الانتخابات ان لا يفكر في الدين بايديولوجيا مختلفة، ان يكون حانقاً على العشق و المودة. او ان يمقت الأكل و الشرب. الذي يهاجمه الدينييون يعتبر في عداد المبادىء الأولية للحرية في الحياة هم الآن بصدد السطو على مساحات لم يتقرب منها البعث حتى، لذا فأنا لا افهم كيف للمرء ان يكون متردداً، بأن تمر عقلية هؤلاء (الملا الفرطوسي و اعوانه) دون دفاع و مجابهة؟

***في نفس اللقاء تقول بأن من المبادئ الرئيسة لإنتزاع المجتمع العراقي من البعث هو "البحث عن البعث في كل مكان"، هذا المشروع الجذري، بأي معايير التقييم و البحث، بأية نظرية نقدية و بأية**

تقنية للتشريح و منهج للقراءة سوف ينفذ؟ و اين هو ذلك المثقف الذي يجب ان يأخذ على عاتقه جزءاً كبيراً من هذا العمل؟

بختيار علي: انا قلت بأن في داخل كل منا صدام حسين صغيراً، لكن في الوقت ذاته يوجد في داخلنا ايضاً قاتل صدام حسين، هنالك داخل تكوين نفسية غالبيتنا دكتاتور صغير نائم و عبد صغير لهذا الدكتاتور هذا هو التراث و الأرث السايكولوجي الذي خلفه لنا صدام حسين. بمعنى ان امنيتي الأولى، في بداية و قبل كل شيء، ان يبحث كل منا في داخله عن البعث، ان يبحث عنه ثنايا نفسه، في تزمته، في علاقاته بالآخرين، في مقدرته على الاصغاء و تقبل الآخر، ان ينظر الى قوته على التسامح، ان يتأمل مدى ذلك الاحترام الذي يكنه بصورة عامة تجاه الانسان. الانسان بغض النظر عن انتمائه المكاني والحزبي و الديني، عليه ان يتمعن فيما اذا يقدس الحياة ام بعض الآراء و الأفكار، هل يقدس الانسان كمعجزة لا مثيل له ام يقدس الايديولوجيا.

بادئ ذي بدء ان البعث و البعثية بالضد من الأنسنة (هيومانزم) تماماً، اذا كنا الآن بصدد البحث عن منهج نستطيع من خلاله مجابهة تراث البعث، يجب ان يكون هذا المنهج دون شك، حاملاً لقطب مغاير ازاء تلك النظرة التصغيرية و التهميشية تجاه الانسان، تلك النظرة التي خلفها صدام للمجتمع و الأحزاب السياسية ايضاً، فموت البعث يبدأ من انبعاث الانسان الذي في داخلنا، الانسان الذي لا يصور الاخرين له كعدو، و لا ينظر الى الدنيا كشبكة مخيفة للتآمر تحاك له فقط، الانسان الذي لا يقول "ان الهجوم خير وسيلة للدفاع".

من الظاهر بأن السايكولوجيا و روح الفرد ليس بالأرضية و الميدان الوحيد لمحاربة البعث، و البعث كذلك ليس بالنظام الوحيد لإهانة الفرد، كما ليس بالنظام الوحيد ايضاً للإهانة و الانتقاص، اي انه بمنأى عن البعث فدنيانا مكتظة بأيديولوجيات وآراء سياسية و فكرية، ليس الانسان فيهما سوى قاعدة انشائية، ليس سوى كلمة دون محتوى، ليس سوى مفهوم بلاغي، و لكن عدا المستوى الروحي والسايكولوجي للافراد، هنالك ثلاثة فضاءات اخرى للاحتراب مع البعث، الأول – مجال السلطة، الثاني – مجال الحياة العامة، الثالث – المجال الفكري.

لا ريب ان هذه الحروب ليست باليسيرة و النصر في اي منها غير مضمون، و مناهج العمل ايضاً غير متاحة كي ادرج قائمة و أقول اننا بأتباع هذه المناهج نستطيع ان نتحرر من البعثية، فعقلية كتابة الروشيتة لن تقودنا الى مفازة سوى الآيديولوجيا، فلندع التماس الروشيتة، لأنه في حال طلب مثقف الروشيتة من مثقف آخر، انذاك يفتح ابواب الشرعية على مصراعيها كي يلتمس الأناس العاديون الروشيتة من السياسيين، و هذا في الأخير يكون في صالح تلك الايديولوجيات التي بمعيتها دوماً حلولاً مسبقة و اجوبة معدة سلفاً حتى و قبل ميلاد الأسئلة. كان البعث نظاماً توتاليتارياً شمولياً، و حينما نود الكلام عن التوتاليتارية، حينها بقدر سعة الحياة نحتاج الى مناهج و اساليب مختلفة

لمناهضتها.. البعثية تكثيف لتراث طويل سياسياً ودينياً و اجتماعياً، لذا لن نتمكن من الخلاص منها اذا اعتبرناها جسماً غريباً داخل جسد سليم وصحي. فكل سياسيي العراق من العرب الى الكرد. من التيارات و الفصائل اليسارية الى الاسلاميين كلهم يضعون فرقاً بين البعث و المجتمع، بين البعث و العراق. و من البدهي انا بالضد من وضع هذه الفوارق تماماً، و لكي اقطع اية فرصة امام سوء الفهم، يجب ان اقول: ان هذا لايعني بأنني اساوي بين البعث و العراق او البعث و المجتمع. هذا خطأ فادح لا يجوز ان نقع فيه، الا ان اظهار البعث كورم خبيث داخل جسد سليم يعتبر كذبة. فالجسد السياسي و الفكري و الاجتماعي في العراق مصاب بالمرض، و الذين يقولون بأن العراق حسن بينما كان البعث سيئاً، هؤلاء يطلقون كذبة كبيرة. فالبعثية وليدة البنية السياسية العراقية و خرجت داخل التراث الاجتماعي العراقي، فليست هنالك مساحة داخل العراق لا تحتاج الى اعادة الترتيب. بدءاً بالمؤسسات الدينية وصولاً الى المؤسسات الأكاديمية، البعث و منذ سنين طوال لا يحكم فقط عن طريق قوة الحرس الجمهوري، البعث يحكم و يؤازره في ذلك المئات من رجال الدين، يصطف خلف حكم البعث المئات من الاكاديميين و الرسامين والنحاتين و الشعراء و المسرحيين و الموسيقيين والمغنين. نحن الان بحاجة الى عمر مديد للبحث والعثور على العلاقة بين الفن و الفاشية في العراق فحتى الذين لم يرق لهم صدام حسين، الا انهم في الاخير من الصعب عليهم ان يتطهروا من الموضة البعثية للحياة بسهولة، مثلهم كمثل عصفور كافكا الذي يبحث بنفسه عن القفص. فالبعث غير رؤيتنا ازاء العالم. الان شتان بين غصن زيتون قبل البعث و بعده، فتصورنا و شكل نظرتنا للسماء و الأرض و الطيور بعد البعث، ليس كالذي رأينا به السماء و الأرض والطيور قبل البعث، و حتى اسلوب مشاهدتنا واصغائنا، اسلوب كلامنا و استنطاقنا للبعض، كلها اعدتها سيميائية البعث و فضائه الاشاري، البعث حاضر في الأشكال العمرانية و شق الطرق، البعث موجود في اساليب الأكل و تنظيم المأدب و التعامل مع الحيوان و النبات و الطير، لكن في البداية، المعضلة ليست في كيفية البحث عن البعثية، المعضلة هي ان القوى السياسية العاملة في العراق لا ترى اننا في حاجة للبحث عن البعث، لأنهم اختصروا البعث في تمثال صدام حسين المهشم. اختصروا البعث في قصوره، صحيح بأن تماثيل صدام غير المرئية غير مخيفة الآن، الا ان تماثيله غير المرئية. و الموضة السيئة التي ابتدعه صدام للسلطة لا تزال مخيفة و لا يمكن تهشيمها بسهولة. فمادام تراثنا السياسي و الديني و الاجتماعي ينتج العنف فإن صدام لم يمت، فمادام ينتج تغرير الذات فإن صدام لم يمت، الى ان نسمع تلكم البلاغة التافهة التي تتكلم عن العظمة، و تنزل بآيات التفخيم والتبجيل على العراق و الأمة و الحزب و الطبقة والقائد و الشيوخ، الى ان نسمع تلك البلاغة التي تصف الانتخابات المزورة داخل حي او مدرسة او

مدينة كموضة كونية، فأن البعث لم يمت. فلو عدت الى بعض مقالاتي، سترى بسهولة، انني اؤكد على ضرورة وجود منهج للعمل قبل كل شيء، كي نتمكن من تطهير لغتنا من تلك البلاغة التي اصابت كل مناهج التفكير بالشلل. اليوم عندما نصغي الى اولئك الذين يتحدثون من بغداد، نفهم بأن البعث نظام لغوي قبل ان يكون نظاماً سياسياً، انه انتماء الى شكل من الحديث، انتماء الى قاموس صوري يمكن معه السيطرة على عملية الرؤية و التفكير، قبل ان يكون نظام انتماء حزبي. الشيء الذي دائماً يثير اعجابي و سيبقى دائماً مثار عجبي ايضاً، هو لم كل هؤلاء السياسيين الذين قضوا جل عمرهم لمناهضة البعث كنظام، حينما يأتي الدور على الكلام حول البعث، نراهم يمتلكون قاموساً سياسياً هزيلاً و يتكلمون بلغة سطحية؟ لم يبقون مكتوفي الايدي امام جعجعة و تخرصات الشوفينيين العرب، لماذا تكون بلاغة الجلاد بهذه القوة بينما بلاغة الضحية بهذا الضعف. في الحقيقة اذا تنظر، سوف يتكشف لك بأن السر يكمن في الضعف، الضعف ازاء رفض رؤية و تصورات البعث و من ثم الأتيان برؤية اخرى و تصورات اخرى بديلة. ليست من الممكن معاداة البعث بذات المنطق و اللغة التي غذت البعث، مثلاً، اخطر شيء في عراق المستقبل سيكون فهمنا وتفسيرنا لكلمة السلطة. فإلى هذه اللحظة، ان التصورات البعثية من الناحية البنيوية تحظى بالغلبة في فضاء المجتمع العراقي. فالسلطة اما ان تكون قوة شاملة، على غرار الآلة، تجمع في يدها كل القوى، و تستطيع في غمضة عين ان تطرح الأشياء جانباً و تحمل معها العلاج السحري و العنيف لكل مخالفة، او انها قوة خاوية و غير ذات اهمية، وليست لها ارادة، و اذ لم تضطلع بالوظائف التي انيطت بها، حينئذ يغدو المجتمع غابة و ميداناً للسلب و النهب و تقتيل البعض، هذه هي صورة السلطة في مجتمعنا، السلطة بمعناها الشمولي التوتاليتاري. هذه هي الإرث اللغوي للبعث. ارث تلك الصور التي انغرزت في خيالنا و تفكيرنا و ذهننا. الانسان العراقي الى الان لا يستطيع ان يفرق مفهوم السلطة عن صورة تلك القوة التي تحكم بقبضة فولاذية، هذا الانسان عندما لا يعثر على السلطة تلك، حينئذ بدل ان يتلذذ من الحرية، نراه يتلذذ بالعودة الى الفوضى و وحشية الغاب. فالسلطة في تصور هذا الانسان اما ان تكون تلك القوة التي تدهس رؤوسنا بالبوستال، او انها قوة هزيلة يمكننا نحن ان نؤدي دورها و نحل محلها و نحتل الفراغ الذي فقدته هي، أي انه كل فرد يصوغ قانوناً لموضته و مقاسه و سلطته، لذا فبين السلطة التي ليست لها حدود و بين ذهنية الانسان العراقي التي لا توجد فيها صورة اخرى للسلطة، ان الديمقراطية ايضاً كشكل للحكم تقع في ظرف كهذا..

فالانسان الذي يأتي بعد تراث البعث لا يحمل معه صورة حول تقسيم السلطة. ففي تصوره ان السلطة غير قابلة للقسمة، و احزابنا الكردية امثلة حية لتجربة كهذه، حيث لم تقدر ان تقسم السلطة، و لا تستطيع فعلها الآن ايضاً، الى هذه اللحظة ان

البارتي و الاتحاد يعملان وفق هذا المنطق و يقولان لبعضهما (انا سأحكم مئة في المئة و انت لا شيء، والا فالحرب يحكم بيننا)، هذا افضل مثال لعمل صور ما بعد البعث في كردستان، صحيح انها لم ترق الى عين المدى الدامي التراجيدي و الفاشي، الا ان شكل الالية و بنية التفكير و التراث اللغوي لم يتغير، أي ان تراث البعث لهو اكثر صلابة و جمودا من نظام البعث.

و الآن فالمنهج الرئيسي هو العثور على ملامح هذا التراث، و من ثم معالجته، فلأعطيك مثالاً ثانياً حول صور البعث و تراثه في حياتنا، انظر الى مفهوم الاستعجال، كان البعث من اكثر نظام العالم استعجالاً، فهو كان يهاجم اية ظاهرة حتى قبل اكتمالها. لم يكن مستحجلاً في قطع الرؤوس و الإذابة في الأسيد و ضرب المعارضة فحسب، بل كان مستعجلاً حتى في مشاريعه، انه ذهب الى حرب ايران قبل ان يكون مستعدا لها، ذهب الى حرب الكويت قبل ان يستعد لها، اذا فالعجالة جزء من التراث السياسي في العراق، فالأشياء التي لا تتحقق بسرعة، تغدو خرافة و اسطورة في ذهنية الفرد العراقي، انا تعجبت حينما رأيت البغداديين و لم يمر سوى يومين على انهيار صدام حسين، و هم يسألون "اين الديمقراطية؟ الديمقراطية اين؟" وكأن الديمقراطية شيء ينتشر في الهواء، او ان تكون نوعاً من الفاكهة تؤتى بالصناديق الى السوق، او ان يكون شخصاً نراه في الشوارع و نسلم عليه. فالبعث قد علم الفرد العراقي ان تكون له فكرة خرافية وميثولوجية حول كل الظواهر. و ازالة هذه الميثولوجيات لهي الجزء الأهم من عملية ازالة تراث البعث، يجب ان يتعلم الفرد لدينا بأن يتقصى مصادر تلك الظواهر التي يراها. فعملية البحث عن البعث التي تناولته في مقابلتي في صحيفة (كوردستانى نوى) و اؤكد عليه هنا ايضاً، هي عملية البحث عن المصادر، هي جينالوجيا الظواهر، هي البحث عن اصل الأشياء. عن المنابع التي تأتي منها، لكن كيف انه ليس من اليسير ان ينعتق الابن من تراث و شخصية الأب. هكذا نحن ايضاً، ليس بالحصين ان نتحرر من البعث، على اقل تقدير نحتاج الى ميلاد جيل آخر يعيش في ظل تراث آخر، الذي نستطيع انجازه الآن هو التقليل من ضرر تراث البعث و نضرائه.

***كان مطلب غارنر اثناء زيارته الى كردستان ان يستخدم برلمان كردستان في المستقبل بقصد التماهي، الا تشعر بأن موضة هذا النظام السياسي التي سادت طوال الأثني عشر عاماً سوف تقودنا مجددا نحو احتمال تشكل نظام الحزب الواحد وديكتاتورية الحزب و الاحتراب الداخلي؟**

بختيار علي: كان غارنر جنرالاً امريكياً في فيتنام، انه قادم من التصنيع العسكري الامريكي، لذلك فانا اشك في ماذا يعرف تماماً ما الذي تعنيه لنا مفردة الديمقراطية و ما تحمله لنا من قيمة ومعنى عميق. انا متشكك كونه عارفاً قدر انتظارنا الكبير من هذه الكلمة. انا و العشرات من الكتاب الآخرين قلنا مرارا بالايجوز مقارنة انفسنا بالبعث،

بالطبع ليس كبارتي او الاتحاد، لانه حتى الشيطان يعتبر افضل من البعث، الا ان غارنر قارن تجربة كردستان بتجربة البعث، انا و الملايين من الكرد كانت امنيتنا ان تغدو هذه التجربة انموذجاً ومثالا.

فلو اجريت انتخابات اخرى في فترة الاثنتي عشرة سنة. لو كانا البارتي و الاتحاد قسما السلطة في قرية واحدة بكل ديمقراطية، على اقل تقدير لو اثبتا بأن عقلية هذين الحزبين قد اخذت الدرس من تجربة الاقتتال الداخلي المريرة - فلو لم نر هذا الصراع و التنافس القاسي في كركوك لقلنا ان طارنر على صواب، لكن و الى الان ان البارتي و الاتحاد حول نصب ممثليهما كقائمقام في قصبة ما، او ان يفوز ممثل احدهما عنوة في الانتخابات، انهما على استعداد لبدء الأقتتال، في الحقيقة ان هذا لواقع مرير و مؤلم، ليس فقط من غير الممكن ان يحتذى كمثال لأناس آخرين. بل يحتاج الى محاولة شمشونية لاصلاحه، قبل مدة تحدث (مريوان وريا قانع) في برنامج تلفزيوني بأن لو اتخذت هذه التجربة لعموم العراق، فأي كوميديا سيحصل حينذاك، اي كوميديا سيكون لو ان كل حزب في العراق قد وضع ادارة خاصة به، كل قوة تكون سلطتها السياسية في احدى المدن اكثر غلبة، لطردت القوى الأخرى، اي حزب لم يتمكن من استعادة مدينة، يذهب ويستعين بقوة دولة اخرى، و ان تغرس الأحزاب حدود نفوذها بنقاط الكمارك. و على الصعيد الداخلي تضع اقتصاد الدولة تحت سلطة الحزب، وحتى ما تفككت الأحزاب ليذهب البرلمان الى البيت ويبقى اعضاءه سنوات طوال عاطلين.

يا عزيزي انت بنفسك ابدأ بتعميم هذا الموديل، خذ بهذه الصورة من كردستان و اجعل منها موضة للعراق، اية كارثة مخيفة خطرة سوف تنجم عنها؟ هذه ادامة سياسة الكذب مع الذات، اخطر شيء في السياسية الكردية هو هذا الكذب مع الذات. الآن توجد فرصة كبيرة كي تتحسن الأشياء. هنالك فرصة تأريخية ان تحدث اصلاح جذري في السياسة الكردية. ان يحدث اصلاح في النظام الاجتماعي، الآن من واجب الجميع ان يتحركوا و يطلبوا الأشياء، فالآن وقت تمتين المجتمع المدني في كردستان الذي هو الضامن الوحيد لمكتسبات شعب كردستان. والضامن الوحيد لشحن الفيدرالية بالمعاني، نحن لا نستطيع ان نجعل من تجربتنا موديلاً للعراق. لكن نستطيع ان نحاول بناء مجتمع مدني متكامل يكون نموذجاً للعراق. حدثت تغييرات كبيرة في العراق. انهيار البعث و حل ذلك الجيش الوحشي لصدام، وحل وزارة الاعلام حيث اتمنى ان يعقبه تغييرات جذرية للأعلام الحزبي ايضاً في كردستان، فهذه مكتساب كبيرة اذا ما كنا مجتمعاً حياً و لدينا قوة اجتماعية حقيقية، لأمكن دفع امور كثيرة نحو الأفضل، فزوال البعث و جيشه الفاشي امران اسطوريان، يلزمنا فترة لاباس به كي نفهم، اي مارد انهي وجوده، فلا يجوز ان نقلل من قيمة هذا الحدث، يجب ان نوظف انهيار البعث دائماً كصورة رمزية لمناهضة أي تراث دكتاتوري، فانهيار البعث

قوة دفع روحي لكلام دائم بغية توسيع الحريات، فليس من المنصف ان يلزم العلمانيون و اليساريون والليبراليون و الديمقراطيون القعود في اماكنهم ويلعنوا البارتي و الاتحاد، او ان يلوموا من تحت شفاههم بأن الأسلاميين قد صلب عودهم، فعلى المجتمع نفسه ان ينتج شعاراته، و ان تولد حركته الأجتماعية، البارتي و الاتحاد لا يقولان للنساء والطلبة و الكسبة لم لا تطالبون بحقوقكم كي نعطيكم اياه؟! فأي حزب على وجه البسيطة لو تسنت لها، سوف تحكم بمفردها السماء و الأرض كذلك. بينما من عمل المجتمع و القوى المدنية الأخرى ان يضعوا الحدود لهذه السلطة. انا اسألك انت لم لا نقرأ لمئات و الوف من كتابنا و فنانينا مقالاً او عمودا او لقاءا فيه تصوراتهم و وجهات نظرهم حول الواقع الراهن. الأدب الكردي زاخر بعشرات الأسماء اللامعة التي تقيم القيامة على فارزة او موضع نقطة، انهم مستعدون بسبب خطأ صغير في مقال ان يحاكموا الناس. انهم يثيرون الضجة بسبب حرف واحد، بينما لا يقولون شيئاً ازاء كل هذه التغييرات، انا اصغي و اجول، كي ارى واسمع اسلوب تفكيرهم، تصوراتهم و وجهات نظرهم، كي افهم انهم كيف يرون مجتمعهم، انه لن السخف ان تكون قاصاً او روائياً او تشكيلياً او مسرحياً او مترجماً او شاعرا و لا تكون لديك وجهة نظر واضحة حول الواقع الأجتماعي و افاقه. فأكثر كتاب العرب رداءة و اكثر المترجمين العرب نكرة الذين يأتون في مصاف الدرجة العاشرة قد تكلموا عن اوضاع العراق سوءا و حسناً، بينما لم نسمع من كبار المثقفين الكرد أي كلام و البعض من الذين نطقوا بأحرف. قالوها بصيغة، انا تمنيت لو لم يقولوها اصلاً، فهذا النوع من كم الافواه لم يصنعاه البارتي و الاتحاد. بل مؤداه ضعف البنية الفكرية. بدليل هنالك من بجوارهم لكنهم يتكلمون، هنالك كتاب اخرون يتكلمون. و كتاب اخرون يعبرون عن سخطهم و غضبهم باساليب و اشكال مختلفة فليست هنالك اية نظرية تقول بالا يتدخل المبدعون في شؤون مجتمعاتهم، و هذا التصامت (على وزن تمارض) من قبل الكتاب و المبدعين و الفنانين انما هو الذي يعيد نشأة الحزبية الفردية.

فكيف يمتحن الديمقراطية و يخضع للاختبار في مجتمع اهم نخبة فيها ترنو بصمت كهذا الى الواقع الاجتماعي؟ الآن دنا ذلك الموعد كي يقدم فيه مجموعة من المشاريع و البرامج و الاصلاحات السياسية و الاجتماعية الكبيرة، علينا الآن ان نحاول بصدق كي نجعل من كردستان مثالاً يحتذى لا كذباً، و لأجل هذا يجب اخضاع الديمقراطية للاختبار، فلم تختبر الديمقراطية يوماً في كردستان، و كل التجارب الصغيرة انما انتهت بشكل مأساوي ودراماتيكي. فلن نقدر من فهم قوة الديمقراطية ما لم نخضعه للأختبار اليومي القاسي. القضية الآن ان نتعلم هذا الأختبار الدائم، ان نجد له لغة، نتيح امامها فرصاً اكبر، و نكسر موانعه، يجب ان نعلم بأن هنالك حجج واهية جمة لقمع الديمقراطية واضطهادها، منها حجج الأمن و حفظ النظام وصولاً

الى حجج حماية الوحدة و الديـن و الأخـلاق، و لكن في جانبه الآخر هنالك حقيقة يجب ان نراها، و هي ان القوى المضطـهدة في هـذا الوقـت لا تستطيع ان تستثمر كل ما لديها من فانطازيا و تستخدمها بكل الطاقة التي في يدهـا.. فأنـا كروائـي خالق اساطير. لكنني لست كذلك على مستوى التفكير الأجتماعي، و انـني متـأكد بـأن ظـروف تنميـة الديمقراطيـة وتقويتها في كردستان الآن اوفر حظاً مـن أي مكان آخر في هذه المنطقة.. هنالك من يرى حينما يغـدوا البـارتي و الاتحـاد قيـادة و قـاعدة، ديمقراطيـان، انذاك يكون بمقدورنا الكلام عن الديمقراطية، فمـن الواضح انني اعلم ايضاً بأنه كان لهما الـدور الكبير لاعاقة التجربة الديمقراطيـة، و لكـنني اعلم كذلك بـأن البـارتي و الاتحاد قوتـان مـن المكـن ان يغـيرا بداخلـهما اشـياء كثـيرة عـن طريـق الضغوطـات الأجتماعيـة. سـأذكر لـك بعض الامثلـة تثبـت بـأن هنالك شيئاً في وطننا اسمه تهيئة ارضية العمل نحو الديمقراطية. انا اسأل: هل انت تعتقـد بـأن البارتي والاتحـاد جنحـا لتـهدأة الأقتتـال الداخلي هكـذا عـن رضى، و تخليا عن الأحـتراب المسلح طوعـاً؟ بـالطبع كان ذلك تحت ضغوطات الداخل و الخارج، هل تـرى بأن البارتي بعد الحادي و الثلاثين من اب قد تخلى عـن الستراتيجية الـتي تبناهـا انـذاك؟ بـالطبع كـلا فتخليـه كـان نتيجـة لتلـك الموجـة الكبـيرة مـن الاحتجـاج الغـاضب الـتي اجتـاحت غالبيـة المثقفـين ومن عامة الناس و اعضاء البارتي كذلك. هل تعتقد بـأن ذلـك التعديــل الطفيــف في قــانون الأحــوال الشخصية كان عن قناعة؟ لا ريـب كـان ذلـك بتـاثير الضغوطـات مـن قبـل النــاس، حيـث لا يعتـبر هـذا كعـامل ضعـف للأحـزاب، بـل علـى العكس تمامـاً، ان الاستعداد لتقبل الضغوطات و الالتزام به و الأهتمام بـردود افعـال النـاس كلها مؤشـرات ايجابيـة و دليـل علـى انـك لا تريـد ان تكون دكتــاتورا مــن جديــد، القضيــة هـي ان لا نمـارس الضغـوط بعــين القــوة في الوقت المناسب و بالنسبة للقضايـا الأخــرى، انــا في الأخير اود ان اقول لك بأن الديمقراطية لا علاقة لها فقط بالبارتي و الاتحاد. فالحزب لا يكون ديمقراطياً من تلقاء نفسها ابدا. بل يقبل قوانين الديمقراطيـة و حتـى في الغــرب فــان ضغـط المؤسسـات و ضغـط المجتمع المدني و الأحزاب السياسية الأخرى، و فصل الدين عن الدولة، ابعاد الجيش عـن السياسـية، هـذه الـتي تحمـي الديمقراطيـة و تحفظــها. بمعنــى ان الديمقراطية لها علاقة بقدرة المجتمع على الضغط و انتاج قوة الضغط. و في ظل تكوين ما ان يتفاعل ايجابيـاً مـع الضغـط، اليـوم توجـد مجموعـة مـن الاسباب المهمـة الـتي تسهل لعملية التغيير الجذري، على اقل تقدير ان العوامل الخارجية عمومـاً هـي في خدمـة مشروع كـهذا، لكـن العلـة في ضعـف البنـاء الداخلي، و تقوية هـذه البنيـة في حاجـة الى اعمـال كبيرة، في حاجة الى الضلوع في تحريك برنامج كـامل للاصلاحـات، فنحـن الآن مــن زوايـا عــدة لدينـا مؤسسات مدنية كارتونية، و تحريـر المجتمع المدني من الكارتونية لهو السبيل الوحيد لتقوية حظوظ الديمقراطية. عدا هذا اثبتت اعمال السلب و النهب

الأخير في كركوك و الموصل و بغداد، بأن عقلية واخلاقية بعض من النخبة السياسية الكردية اليوم، لم تتقدم سنتمترا واحدا و منذ عام 1991، فالذي كانوا يقومون به في عامي واحد و تسعين و اثنين وتسعين، الآن ايضاً يفعلون ذات الشيء. و الكلام الذي نسمعه طوال اثني عشر عاماً عن المدنية والاصلاحات و حكم القانون، انما لم يؤثر في بعض من اعضاء هذه الأحزاب، في حينه قالوا بأن هذا هو عقلية الجبل، و من مخلفات العقلية القبلية، او من مخلفات تراث البعث، لكن في الحقيقة، يظهر بأن هذا ليس بعقلية القبيلة، بل يمثل جزءا من عقلية الحزب ذاته، و يجب ان يصار الى معالجته هناك ايضاً.

و الآن اذا لم يك هناك كفاح حقيقي من اجل الديمقراطية. سواءا داخل الأحزاب او خارجها، اذا لا يكون هنالك اصوات قوية تتكلم داخل المجتمع المدني، اذا لا تحرر المنظمات و النقابات و المؤسسات المدنية نفسها من الاحتكار الحزبي، فأنني حينها لا افهم ما المبرر كي لا تديم السلطة الفردية بحياتها؟ على كل حال. فلدي الكثير الكثير مما اقوله حول هذه المسألة، لكنني لا استطيع هنا قول ما يكفي، الا انني اقول لك، بأن ضعف الديمقراطية في كردستان سوف توجه ضربة قاصمة للديمقراطية في العراق، حيث في الأخير، فقط نحن الكرد و الأحزاب الكردية سنصبح الضحية الكبرى لنموذج ديمقراطي مشوه و كارتوني في كردستان، و الذي بدوره يثبت ديمقراطية كارتونية في العراق، و نحن الكرد سنكون الضحية الكبرى انذاك لا غيرنا. فميلاد مجتمع مدني قوي في كردستان لهو تحد اخلاقي لعموم المجتمع العراقي. انا ارى بأن مصير الديمقراطية في العراق مرتبط بمصير الديمقراطية في كردستان و الآن نحن بحاجة الى برنامج للاصلاح الديمقراطي، الآن هو الوقت الذي في مقدور الحلم ان يحدث انقلاباً على الواقع، بمقدور الحلم الان ان يحل محل صدام حسين في السلطة، اذا لم تنتصر الديمقراطية هذه المرة، فالقوى الديمقراطية وحدها هي المسؤولة. اذ ليس المسؤول هو صدام حسين و لا الاسلاميين، فهاتان القوتان على الرغم من سعتهما القاعدية، الا انهما الآن و للمرة الأولى في التأريخ تكونان اقل حظاً من الديمقراطية على العيش.

***الآن و باسم قبول الأختلاف و التسامح والديمقراطية، يعطى الفرصة لجلادي الأمس (الخزرجي مثلاً) كي يصبحوا معارضي اليوم دون ان يحاكموا فأحترام حقوق الانسان غدا بأن يتحول قتلة ذلك الوقت الى هيومانست اليوم دون ان يعاقبوا. غدا بأن يجعل الدكتاتوريون و معدوا الكاريزما من انفسهم نواباً لأدب الأحتجاج دون ان يفنوا عن الوجود.. اريد ان تظهر لي مفهوم و معيار هذه المحاكمة، كي نستطيع ان نميز بين البعثي واللابعثي، بين الانفالست و المؤنفل، بين الجلاد والضحية؟**

بختيار علي: من الواضح انه من الصعب جدا على الكاتب ان يطالب بأكثر من التسامح و تعميق و تثبيت التسامح، فلا يجوز ان تكون شاعرا وتطالب

بالقتل، ان تكون شاعرا و تطالب بالثأر و الانتقام، صعب بالنسبة لي ان اطالب بفناء أي كان، هذا محال، انا احلم بأن لا يتضمن الدستور العراقي عقوبة الموت، احلم بقانون يكون اكثر ترحماً من المتهم، احلم بضحية يكون رؤوماً اكثر من الجلاد. أي ان قضيتي ليست مع مفهوم التسامح بذاته. بل مع اللعب بمفهوم التسامح، قبل سنوات قليلة قتل مجموعة من الكومونست بسبب عدم تخلية دار. فأذا كانت المسألة تخص التسامح، فهذا يعتبر بحد ذاته الدليل الاكبر على عدم وجود التسامح، أي ان الخطورة تكمن في توظيف التسامح لصالح السياسة (تسييس التسامح – المترجم) او ان تستخدمه لمارسة السياسية، او تستخدمه لاعطاء صفة اخلاقية لشيء لا يمت بالأخلاق صلة لا من قريب ولا من بعيد، قبل سنة منح التركمان في السليمانية مجموعة من قطع الأراضي. انا سمعت الدكتور برهم صالح في التلفزيون يقول شيئاً ما معناه ان هؤلاء ايضاً كالكرد مرحلون و مهجرون. و تتطلب الانسانية ان نعاملوهم بالتساوي كما الكرد المرحلون انا كنت من اولئك الذين غمرهم السرور بهذا الجواب على الرغم من معرفتي بأنه كان لهذا القرار اضداد كثر انا اعيش في كولن حيث يوجد فيها مئة و عشرون قومية مختلفة "على هذا، لا يزال يثار مسألة التمايز العرقي في المانيا باستمرار" لم لا يجوز ان نحلم، لا فقط في كركوك بل في السليمانية ايضاً ان يتعايش مجموعة من الأقوام. لكنني قومت هذا الموقف على جانبه الجميل انذاك. و الآن اتساءل اصحيح بأن ذلك الموقف كان نابعاً من قوة التسامح؟ ام كان ذلك موقفاً سياسياً ازاء تركيا لاستثمار توتر العلاقة بين البارتي و الجبهة التركمانية و ذلك بنية تقرب اكثر من تركيا؟ و اليوم حين اسمع و الألاف من الآخرين ايضاً حول ما اقترفتها احزابنا السياسية من اعمال نهب في كركوك – دون ان نسمع و الى الآن باتخاذ العقوبة بحق مسؤول حزبي، يتضح لنا بأن السياسة الكردية بصورة عامة لا تمتلك اخلاقية صادقة. بل مليئة بالتضاد و المزاجية مليئة بمعايير متضادة و غير متوازنة. و الا فماذا يعني ان تظهر نفسك مرة كصاحب قلب رحيب، يقسم الحبور والسكينة بالتساوي بين جميع اهل كركوك المضطهدين و مرة اخرى ان لا تعاقب هؤلاء الذين نهبوا حتى الانقاض التي تركها البعث من ورائه. في الحقيقة ان هذا النوع من التسامح خطر و مخيف، لانه يمرر مجموعة من المواقف السياسية التي لا تمت صلة بالتسامح و تحت ستار التسامح ذاته، هنا اود ان نمعن في بعض ملامح هذا النوع من التسامح لالكي نقتل قدرة التسامح داخلنا، لا لأن نقوط أي حديث يجري حول التسامح و ندينه، و لا لهذا كي نزاحم هؤلاء السياسيين الذين يحلمون بالتسامح عن صدق، و لكن كي نضع التسامح ثانية في معانيه السياسية والاجتماعية و الأخلاقية الحقيقية، و ذلك لأجل تقديم اعانة قليلة لو قدر لنا لهؤلاء الذين يريدون ادخال التسامح الى تراثنا السياسي.

1-هنالك نوع من التسامح له علاقة بالتراث الدكتاتوري، فالدكتاتور ليس فقط بذلك الشخص